عيد وتطور جديد

بقلم
محمود تيمور

في يوم ٢٣ يولية الحاضر ، نستقبل العام الرابع عشر للثـــورة الكبرى : الثورة لحرية الوطن ، وكرامة الشعب ، وكفاية الدولة ، وقدرة الجيش على أن يرد العدوان ، وعدالة النظم الاجتماعية التي تكفل حقوق الانسان .

ونحن اذ نحتفل بيوم ٢٣ يولية ، ونتخذه عيدا قوميـــا مجيدا ، فما نحتفل به لنجدد فيه عهدا تولى ، أو لنحيي به ذكرى منسية ، كشأننا في الاحتفال بأيام مواض كريمة ، وذكريات سالفة عزيزة ، فالحق أننا نمارس حياة الثـــورة منذ انطلقت شرارتهـــا الأولى ، لم نطو صفحتها لنستعيدها بالتذكار ، ولم ينقض حاضرها لنجدده في يوم عيد على رأس عام جديد .

انما نحن في عهد ثوري تتواصل أيامه ، وتتماسك حلقاته ، وفي كل يوم نحتفل بما نجنيه به من انتصارات ومكاسب في ميدان الانشاء والتعمير ، وفي مجال التطوير والتغيير .

ثورتنا الظافرة الموصولة ، لا تقوم بما يتوالى عليها من عدد السنين، ولكن تقويمها الحق هو بما لهـــا من أطوار واضحة المعالم ، في تعبيد الطريق واخلائه من العقبات والعراقيل ، وفي ارساء الأسس الوطيدة للأوضاع الجديدة ، وفي اقامة البناء على هدى من التجارب والكفايات ،

وفى رسم المخطط للقريب او البعيد من الآجال ، دون اعتساف أو ارتجال .

والطور الراهن من أطوار الثورة تتجلى سماته فيما اعتزمنا من اقتحام ميدان الصناعات الثقيلة ، لكى تواتينا بالقسط الوافى من قدرة الانتاج ، وذلك لتعزيز الديمقراطية الأصيلة ، وتحقيق التحول الاشتراكى الصميم .

وهذا الطور الدقيق من حياتنا الثورية لا يقتضينا مجرد الترحيب به ، والمسايرة له ، بل يطالبنا بأن نعد له عدة وافرة من التجلد والاحتمال ، ومن الايمان بقول حكيم الشعراء « **أبى الطيب** » :

بصرت بالراحة الكبرى فلم أرها   تنال الا على جسر من التعب

ولنا أن نتفاءل بمستقبل هذا الطور الجديد ، نتفاءل بأننا ملاقون فيه من الانتصار ما لا قينا فى أطوارنا الثورية السابقة من انتصارات باهرة . وفى قيادة الرئيس « جمال عبد الناصر » ، وفيما توافر له من خصائص الزعامة الواعية القادرة ، وفيما يوافيه من توفيق — ما يملأ نفوسنا ثقة وأمنا ، وما يحفزنا على أن نكون منه كما ناشدنا أن نكون ، حين قال :

« **أريدكم جميعا — وبغير استثناء — معى ، أحتاج فكركم مع فكرى ، وضمائركم مع ضميرى ، وأيديكم مع يدى** » .

والمعاصرون المخضرمون الذين عاشوا فى عهد ما قبل الثورة حينا ، وأتيح لهم بعد أن يشهدوا مطلع العهد الثورى ، لهم من مرونة العقل ، وسعة الأفق ، وحنكة التجربة ، قوة تدفعهم الى متابعة الركب ، ومسايرة التطور ، مستبشرين بالحيوية التى يخفق بها قلب المجتمع الجديد ، لخير الأجيال اللاحقة ، وازدهار الغد المرتقب .

وأما الجيل الناشىء ، أو — كما نسميه — الجيل الصاعد ، وليد الثورة ، وربيب فجرها المشرق ، ذلك الذى غذته الأوضاع الجديدة وأنمته ، فهو السند القوى للتطور العميق ، وعلى كاهله يقع العبء الأكبر فى المضى بالنهضات القومية الى أبعد مداها ، لا تراجع ولا قلق ، ولكنه العزم المتجدد ، والتقدم المطرد ، والاصرار على بلوغ الغاية مهما يكن من وعثاء الطريق .

وفى هذا اليوم الذى نحتفل فيه بالحدث العظيم ، حدث ٢٣ يولية ، نناجى وطننا بما ناجاه به بطل الثورة فى قوله :

« **يا وطن الحرية والأحرار ، سلمت دائما ، وأظلتك الى الأبد رايات العزة والعدل والتقدم » ... والسلام !**

محمود تيمور

المهاجرون



قصة : نجيب الكيلاني

حارتنا ضيقة ، مليئة بالاتربة وأكوام القمامة والروث ، وبيوتها قميئة كالحة، وأعواد الحطب الجافة تمد أذرعها من فوق الاسطح لتظلل الجزء الاكبر من الحارة ، وكان غريبا أن تفد عليها عربة نظيفـــة (تاكسى اسكندرية) ، ولهذا تكدست النسوة على الابواب ، وتطلعت العيون عبر النوافذ ، انه لحدث كبير أن يشهد أهل الحارة مثل هذه العربة .. وتوقف السائق ، ثم نزل وهو يسب ويلعن .. ويتحسس عربته فى اشفاق وخوف ، لشدة ماقاساته من المنخفضات والمرتفعات ، ومن وثوب الاطفــال على مؤخرتها وجوانبها ..

وكان وقـوف العـربة أمام منزل **« اسماعيل الدرديرى »** ، أحد فلاحى قريتنــا ، وفتحت أبـواب العـربة ، وانفرط منها عدد من النساء والرجال والاطفال ، وكانوا جميعـا من أهـل المدينـة كما هو واضـح من الملابس الافرنجية التى يرتدونها ، ومن كلماتهم وضحكاتهم المميزة ..

وصاح أحد الفلاحين :

ـ « انهم مهاجـرون .. أقــارب اسـماعيل الدرديرى .. أعنى أقارب زوج أخته التى كانت تعمـل خادمة ، وتزوجت من اسكندرانى .. »

أما « احمد عبد الوهاب » ، وهو من خيرة شـباب القرية ، وأقواها عودا وأملحها شكلا ، فقد بلل شفتيه بلسانه ، ولمع فى عينيه بريق غريب ، وهتف :

« ياقوة الله .. انظـروا الى تلك الفتـاة .. حورية من الجنـة ورب الكعبة ، الله يعمر بيتك ياهتلر .. »

كان المهـاجرون يشــقون طريقهم بصعوبة ، فقد وفد عدد كبير من أهل القرية ليمتعوا أبصارهم بهذا المشــهد الفريد ، وليشبعوا فضولهم ، فما فى كل يوم يرون هؤلاء النسوة الجميلات، أو الافندية الوافدين من الاســكندرية

ولم ينم « أحمد عبد الوهاب »ليلته ، لقد أعطى ظهره لزوجته ، وظل مفتوح العينين يفـكر فى الوردة الجميـلة .. الحورية الهاربة من الجنة .. وزوجته الى جواره تغط فى نوم عميق .. وأحمد لا يدرى كيف سلبت تلك الفتاة ــ التى أتت منذ ساعات ــ عقله : انه لا يعرف اسمها ، ولا يعرف من تكون ، لكنه على الرغم منه ينجذب اليها فى قوة .. وأخذ أحمـد يعـدد ميزاته .. انه يمتلك خمســة أفدنة .. ويعـــرف القراءة والكتابة ، تعلمها منذ صغره فى الكتاب .. ويعـرف قراءة الصـحف بالذات وعنـده فـكرة لا بأس بها عن هتـلر وموسـولينى وتشرشـل والحرب التى تطحن العالم .. وهو فى نفس الوقت فتى يملأ العين .. آه .. عيبه الوحيد هو أنه فلاح .. ويلبس الجلباب .. والطاقية الصوفية .. لكنه عاد وتشبث بالفـكرة القـديمة التى تزعم أن أولاد البنادر مدللين .. مخنثين .. وأن الفتوة والخشونة والشهامة لا توجد الا فى أبناء الريف .. لم يكن يفكر فى مدى صحة هذا الزعم ، وانما كان يبحث عن أية حقائق ليدعم بها مركزه بصرف النظر عن صحة هذه الحقائق أو كذبها

كان اسـمها رقيقا عذبا كرسـمها « نـوال » ، وكانت عـذراء لم تتخط الثامنة عشرة ، جـاءت مع من جاءوا هربا من غارات هتلر على الاسكندرية ، آملين أن تنتهى الحرب فى أقرب وقت،

ثم يعودوا الى الثغر الجميل مرة أخرى
.. لكن الحرب تستمر ، والوقت يمضى ، ويختلط المهاجرون بأهل الحارة ويتعاملون معهم : لكن فى شىء من التعالى والخبث ... وأحمد يتقرب الى نوال .. وغيره يتقربون اليها .. ونوال لا تأنف من الحديث معهم أو الظهور فى الحارة دون خجل ، وتزور بعض البيوتات ، ويصبح اسمها على كل لسان ..

ويطيل أحمد النظر الى زوجته ، فيهوله الفارق الضخم بينها وبين نوال، فلا يتمالك نفسه أن ينهرها أو يركلها بلا سبب ، يعود كل مساء الى « الست نوال » بمالذ وطاب من فواكه ولبن وزبده وأرز .. وكانت هداياه من نوع مناسب جدا ، وخاصة فى تلك الايام وكانت نوال تستقبله بابتسامة مرحة فيها الاعتراف بالجميل .. فيمتلأ قلبه بالسعادة ، لكنه يعود الى نفسه ، ويتذكر أن نوال تبذل ابتساماتها لكثيرين .. وهذا لا يرضيه انه يريدها لنفسه .. لا يريد لهذه الابتسامة أن تشرق الا فى ليله الحالك الملىء بالارق والرغبة واللهفة العارمة ..

وجاءها أحمد ذات يوم وقد توطدت بينهما أواصر الصداقة ، وقال :

- « لم أعد أطيق الصبر »
- « لماذا ؟؟ »
- « أكاد أنفجر »
- « لا أفهمك يا أحمد .. »

عض على شفته السفلى ، ثم أطرق هنيهة ، ورفع رأسه قائلا :

- « هنا لا نعرف اللف والدوران .. نعرف طريقنا ونمضى فيه صراحة »
- « شىء جميل .. »





ـ « ياست نوال .. الست الفاضلة هى التى لا تغادر بيتها ، ولا تلتقى بالرجال الغرباء .. »

ـ « لكى تكون المرأة فاضلة لا بد أن تعيش فى سجن .. »

ـ « أنت لا تفهميننى .. »

ـ « أفكارك غريبة فعلا .. النساء عندكم يمشين فى الشوارع ، ويذهبن الى الحقول .. وزوجتك مثلهن .. فهل معنى ذلك انعدام الفضيلة فى قريتكم؟؟ »

حاصره منطقها القوى ، وبساطتها المفحمة ، فارتبك وتلعثم ، وهم بالكلام ، لكنها مضت تقول :

ـ « وفى الاسكندرية تعودنا على ذلك .. أنا مثلا كنت أعمل » كاتبة باحدى الشركات لانى أحمل الابتدائية ـ هذا قبل أن تحطم القنابل مبنى الشركة .. وكنت أتكلم مع زملائى ورؤسائى .. أكل عيش ياسى أحمد .. »

وحاول أحمد أن يشرح وجهة نظره ، فبين لها أن كلامها لا يختلف كثيرا عن الواقع ، لكن نساء البيوتات الكبيرة ، يعتصمن بالحشمة والوقار ، ولا يتعاملن مع كل من هب ودب ، كان يتحدث بانفعال ، ولم يخف عليها أن أحمد واسع الآمال ، وأنه يريد أن يفرض عليها وصاية أكبر من مجرد الصداقة .. فهمست فى خبث !

ـ « لكن لماذا يزعجك سلوكى ؟؟ »

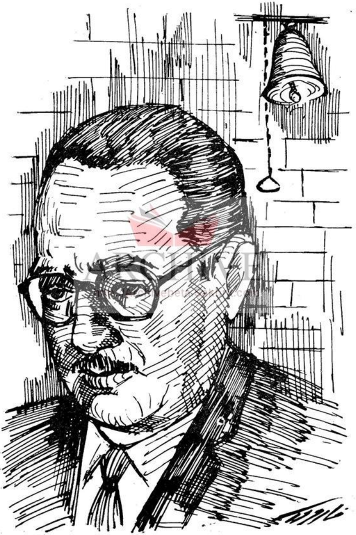
ـ « لانه يهمنى لابعد مدى .. »

فابتسمت قائلة :

ـ « نحن غرباء .. ونحاول أن ننسى أحزاننا وموطننا .. وغدا تنتهى الحرب ، ثم نعود من حيث أتينا »

فسدد اليها نظرات صارمة وهتف :

ـ « لن تعودى »



فأدارت أليه وجهها فى دهشة وقالت :

ـ « **كيف ؟؟** »

فدق الارض بعصا معوجة فى يده وقال :

ـ « لانى سأتزوجك .. »

فانتفضت قائلة :

ـ « **ماذا ؟؟؟** »

ـ « **أجل .. على سنة الله ورسوله ..** »

ـ « **لم أفكر فى شىء من هذا القبيل ..** »

فطأطأ رأسه فى شىء من الخجل والارتباك ، وقال :

ـ « قد اكون فلاحا .. لكنى رجل مستنير .. وأعرف كيف أسعد امرأتى .. » ولما لم ترد استطرد :

ـ « استطيع ان أدبر أمورى .. ان ثمن الفدان الواحد خمسمائة جنيه .. معنى ذلك أن فدانا واحدا يساعدنى فى فتح محل تجارى بالاسكندرية بعد أن تنتهى الحرب ، ونعيش هناك اذا أردت .. »

وشعرت نوال بدقة الموقف وحرجه، هنا .. فى القرية لا تستطيع أن ترمى بكلمة الرفض فى وجه الرجل الذى اختارها ، لانها عار واهانة كبرى لا يمحوها الا الدم ، وهى من ناحية أخرى لا تستطيع أن تقبل . وأرادت أن تهرب من الموقف الشائك حتى تدبر أمرها ، فقالت :

ـ « **الامر يحتاج الى شىء من التفكير ..** »

ـ « **ألم تفكرى فيه من قبل ؟؟** »

ـ « **لم يحدث ذلك ..** »

ـ « **هذا يحزننى ..** »

وجاءتها نجدة لم تكن تتوقعها ، فقد تذكرت أمرا كان غائبا عن بالها ولهذا قالت :

ـ « وكيف أفكر فى ذلك وأنت رجل متزوج ؟؟ »

فهز رأسه .. ثم مضى مسرعا ..

وتوقعت نوال عديدا من المتاعب فى المستقبل ، الناس هنا يسمون الصداقة بين الرجل والمرأة حبا ، بل عشقا ومجونا .. وألسنة السوء لا تكف عن الحديث ، وأحمد عبد الوهاب رجل لايستهان به .. ومن يدرى ؟؟ فقد يكون هناك ثلاثة أو اربعة رجال آخرون يريدون الزواج منها عندما تتاح لهم الفرصة .. فهى ليست غبية .. فقد رأت ذلك فى عيون الكثيرين .. حتى ناظر المدرسة الالزامية ذلك العجوز المتصابى ينظر اليها نظرات ذات مغزى .. ويلمح كثيرا لموضوع الزواج .. ومحصل الضرائب فى القرية .. ذلك الكهل الذى لم يتزوج بعد ، أرسل اليها ذات مساء واحدة تجس نبضها .. وهكذا تسير الامور فى طريق التعقيد.. وسمع أهل الحارة فى اليوم التالى نبأ غريبا غاية الغرابة ..

لقد طلق « أحمد عبد الوهاب » زوجته .. وساد اللغط فى كل مكان ، وانتشرت الشائعات فى جميع أنحاء القرية .. احمد عاشق لنوال .. بنت اسكندرية أكلت مخه .. سحرته .. وعد ومكتوب ياحبيبتى .. والشيخ « درويش » مقرىء القرآن على المقابر يستعيذ بالله ويحوقل ويقول :

ان النساء شياطين خاقن لنا
نعوذ بالله من كيد الشياطين

وامتقع وجه نوال ، وأصابها الذعر ، وهرولت تجمع حاجاتها ، وتعد حقيبتها ولكن احمد يدخل عليها فجأة ، فكأنما انشقت عنه الارض ، ويقول لاهثا :

ـ « لم تعد هناك عقبة ـ لقد طلقتها .. ألم تكوني تريدين ذلك ؟؟ » وفكرت أن تصفعه بالحقيقة المرة ، لكنها نظرت الى عينيه فارتعدت . ثم لاذت بالصمت فعاد يقول :

ـ « أتوافقين على الزواج الآن ؟؟ »

ـ « وماذا يقول الناس عني ؟؟ وبأي وجه أعيش بينهم ، وهم يعلمون أني اختطفتك من زوجتك ؟؟ »

فضرب كفا بكف وأخذ يقول :

ـ « بقاؤها معي ضايقك .. وطلاقها أخافك .. ماذا أفعل ؟؟ »

ـ « كل ما أريده هو أن تترك لي فرصة أدبر أمري .. أرجوك .. » فرفع سبابته اليمنى وأخذ يحركها منذرا :

ـ « حذار أن تجعليني مضغة في الافواه ، وسخرية بين السنة الخلق .. ان أحمد عبد الوهاب الذي ضحى بزوجته ... الذي أبدى استعداده لأن يتبعك أينما تشائين .. والذي أحبك أكثر من أي شيء في الوجود لا يصح أن ترديه حزينا مهزوما .. أتفهمين ؟؟ »

وعاد أحمد الى بيته يفيض قلبه ألما وغما ، وأمه تملأ البيت بالنواح وبالدعاء على الداعرات أولاد الحرام اللاتي يخربن البيوت ويسرقن الازواج »

وعند الفجر .. استيقظ أحمد على صوت بوق العربة .. كان البوق ينطلق متقطعا كصفارة الانذار .. وخفق قلبه بشدة .. وقذف بالغطاء بعيدا عنه ..

وجرى صوب الباب .. وما أن فتحه حتى اصطدم بضوء قوي باهر لم يجعله قادرا على أن يفتح عينيه ويرى ماأمامه .

وانطلقت العربة مسرعة ..

وسمع أحمد أحد الواقفين في الظلام يقول :

ـ « المهاجرون مسافرون .. »

وجرى أحمد خلف العربة كمجنون .. لكنه تعثر وانكفأ .. وامتدت أيد كثيرة تقيله من عثرته ، وتساعده على الوقوف في رفق .. فانتزع نفسه من بين أيديهم ، وعاد أدراجه الى حجرته حزينا ، والدموع تتسرب على الرغم منه فوق خديه ..

وأشرقت الشمس .. وكان أحمد قد جفف دموعه ، وان بدا بعض الاحتقان عليها .. ، ولبس جلبابه ، ودس قدمه في الحذاء ، وهم بالخروج ، فاقبلت أمه مشفقة ، وقالت :

ـ « ألا تتناول لقمة وكوبا من الشاي .. »

فقال بصوت جريح :

ـ « بعد أن أعود بزوجتي .. لقد كنت ظالما وقاسيا عندما طلقتها .. »
وتمتمت الأم في رضا وسلام : « ربنا يهدي سرك ياحبيبي .. »



غرفة استقبال المدير

تاليف هسوتى ـ شان

ترجمة : رمزى يسى



كان كل شىء فى غرفة اســتقبال « فيى » يدل على أن قلبه مملوء بالشفقة والحنان وحب الناس ، وأنه قام بأعمال مجيدة ترفع من قدره فى مجال الاحسان ، اذ يتدلى من سقفها لوحتان كتب على احداهما « غيور على الصالح العام » وعلى الثانية « يشارك فى جميع الاعمال النافعة » . ويدل خاتم الشرف الجمهورى ؟ ؟ ـ ؟ على انه ظفر فى عهد كل من رئيس الجمهورية ، الاول والثانى . وبينهما شعار يقول :

« قاعة لتقييم الشعر ومناقشة الشعائر » ويقال ان كاتب هذين الشعارين هو كانج يو – وى مقابل بضع مئات من الدولارات الفضية ، أما كانج هذا فهو مصلح برجوازى كان يدافع عن الملكية الدستورية سنة ١٩١١ التى يتزعمها صن يات – سن ، ثم أصبح ملكيا رجعيا .

وازدانت جدران القاعة الأربعة بشهادات ذات قيمة ، وبأمثال مختلفة ، وصورة « عطاء السماء » وطائفة من المرايا النفسية الجميلة من الصناعة الشرقية والغربية ، قديما وحديثا . وكانت القاعة تبدو فى الواقع مليئة بالمرايا ، وأكبرها مرآة معلقة فى مواجهة النافذة المطلة على الشارع ، ووضعت على الموائد والارفف ساعات ولعب قديمة رائعة ، كما وضعت المكتبة بأحد أركان القاعة ، وهى مليئة بالكتب التى تدافع عن فضائل الاقطاع .

وأدخل الحاجب زائرا ذا شارب ، يرتدى الزى الغربى وقال له : « تفضل بالجلوس ، وسيحضر المدير على الفور» وبينما كان الزائر يتلفت هنا وهنالك ويتأمل أثاث القاعة الفاخر ، انفلت الحاجب الى الخارج ليقول لاحدى الفتيات : « اخبرى سيدك ان مستر هوانج قد حضر » ثم يسمع صوت سيدة تقول هامسة :

« أن مستر تسيو – هو مع زوجته الخامسة »

وأدركنا من هذا الحديث القصير أن المدير « فيى » له زوجات عدة ، لا يقل عددهن عن خمس ، هذا فضلا عن الخادمات . والواقع أن فى هذه البلاد المتحضرة ذات المبادىء الكنفشيوسية ، أعيان البلاد وكبار الموظفين عن « الفضائل القديمة اعتبر أن وجود قليل من المحظيات يضفى على الاسرة لونا مبهجا ، ويساعد على التواصل الاجتماعى ، حتى لقد كان الفقراء الذين لا يملكون غير زوجة واحدة مثار السخرية والتهكم ، فكم يسوء الامر بالنسبة لهذا المدير الذى يبذل الكثير من ماله فى أعمال البر !!

ثم يقبل المضيف بعد دقائق وهو يصلح من عباءته ويضم يديه بالتحية ويقول فى دهشة :

« معذرة ، فقد تركتك مدة طويلة فى انتظارى »

ويسرع هوانج بطبيعة الحال برد التحية ويقول انه شرف عظيم له حين يكون فى انتظاره . وبعد تبادل عبارات الترحيب يعلن الزائر عن هدفه من الزيارة قائلا : « لقد قمت بعمل خيرى للنساء فى بلدى ، ولكنى سمعت الكثير عما قمتم به يا سيدى فى مجال الخير العام فحضرت أسألك الاذن فى رؤية مؤسستك العظيمة عسى أن نقتدى بها فى مؤسستى المتواضعة »

كانت أسنان المدير تدل على ثرائه العريض ، اذ لا يمكن لشىء أن يحيل الاسنان سوداء صفراء غير تدخين الافيون عدة مرات كل يوم . وشرح المضيف لضيفه فى كثير من التواضع هدفه من انشاء «مصنع الصالح العام» للنساء ، وما احرزه المصنع أخيرا من التقدم والنمو . وعرفنا من حديثه أن أموال هذا المصنع من تبرعات الشعب ، وأن الايدى العاملة فيه من الفتيات القرويات اللائى يتعلمن فيه الحياكة والغزل والنسيج وأشغال الابرة وصنع

الملابس وغير ذلك مما يحتاج الى مهارات خاصة ، وأن ايراد المصنع وافر وانتاجه غزير رابح . ولكن بالرغم مما تتوقعه بناء على حديث المدير ، تفهم أن بالمصنع عجزا يزيد على عشرة آلاف دولار سنويا .

ويأمر الرئيس أحد رجاله بالاتصال بالمصنع ليمهد لزيارة مستر هوانج ، ثم يناوله بطاقة يقدم بها نفسه الى المصنع، ويرفع مستر هوانج حاجبيه ويفصح لضيفه عن امتنانه ثم يحييه وينصرف .

ويعود المضيف الى القاعة ويدير مروحته الكهربائية ويأخذ فى تقليب صفحات من كتاب « البنوة الصالحة » وغيره من الكتب ، ثم يخرج لتدخين الافيون مع احدى محظياته ، ويسود الصمت قاعة الاستقبال ... ويرتفع صوت فتاة فى الداخل تبكى وتحتج قائلة : « ان لى زوجا ... اننى أرفض حتى لو منحتنى كل أموالك »

وبعد تناول الغداء أدخل الحاجب زائرا آخر ثم أسرع بعد أن قدم الشاى للضيف ، فاستدعى المدير . وكانت تبدو على الضيف مظاهر العجلة والرغبة فى مقابلة المدير على وجه السرعة .

لقد كان الضيف هو «السيد الثانى» والشقيق الاكبر للمدير ، وان كان يصر على أنه أصغر منه بسنتين أو ثلاث ، واخذ يتطلع فى قلق عسى أن يحضر المدير بسرعة .

لم ينتظر الزائر الجديد مدة طويلة،



اذا أقبل المدير يحمل غليونه وسأله « هل تناولت غداءك يا أخى الصغير ؟ »

« لا ياأخى الاكبر ، أخشى أن يصادف مصنعنا شيئا من المتاعب ... لقد ذهب شخص الى الجنوب ليقول للناس اننا أشرار ، وسمعت أنهم سيقومون بتحريات عنا ، وقد واضطربت هذا الصباح لدى سماعى هذه الاخبار حتى اننى عزفت عن الطعام ، لانهم لو عرفوا أننا نستخدم أموال المصنع لصالح شركة « هسنجهوا » فماذا يكون مصيرنا يا أخى الاكبر ؟ ... لابد أن نعاقب بالاشغال الشاقة مدى الحياة ان لم نقتل بالرصاص !! »

وأجاب المدير فى ثقة وهدوء : « لا تقلق ياأخى الاصغر ، انك تفقد أعصابك للتافه من الاشياء كيف يمكنهم ان يقولوا عن أشخاص يعملون الخير انهم « أشرار » ... أو جاء المفتشون فاحضرهم الى هذه القاعة المعدة لتقييم الشعر وبحث الشعائر حيث يرون ما فيها من تقارير وشعارات وتوقيعات بادية للعيان ... أى خطأ يمكنهم أن يجدوه ... اننا سوف لا نسلم بطبيعة الحال بأن رأس مال شركتنا جمعناه من

التبرعات ، ولكن ليس هناك ما يمنع الذين يعملون فى ميدان الاعمال الخيرية من ممارسة أعمال أخرى ... اننا لم نخرج على أى قانون .. »

أخشى أن يعرفوا أن فى استطاعتنا تقديم حساب الدخل دون المنصرف ، فماذا أعمل يا أخى الاكبر ؟ اننى عاونتك فى أعمال البر وبذلك اشركت نفسى فى الجريمة ... ماذا أفعل ؟

لا تقلق بالك .. اذا حدث هذا فأنا مستعد لهم ، كما أن أموال المصنع لا تنقل بطريق مباشر الى شركة هسنجو والمصنع الذى يدار لأعمال البر لابد أن تصادفه بعض الخسائر .. انانستطيع أن «نطبخ» الحسابات بحيث تبدو حقيقية .. والواقع أن أحدا من المتبرعين لن يحاول فحص دفاترنا ، وأولئك الذين يتبرعون بعدة مئات أو ألف دولار انما يفعلون ذلك لمجاملتنالا لمساعدةالمحتاجين وهم يشعرون بالرضا حين يأتون ويرون أسماءهم مكتوبة فى قائمة الخيريين .

أما المتبرعون الذين لم يذكروا أسماءهم فسنشير الى ثلاثة أو أربعة منهم ، وسيظن كل منهم أنه هو المقصود.

— وماذا نقول عن احتياطى أموال المصنع ؟

— يمكن تعليل ذلك بخسائرنا فى عملية استبدال السندات فى العام الماضى ، فاذا استفسروا عن ذلك ، فان أسوأ تهمة يمكن أن توجه الينا هى « قلة الكفاية » وليس هناك من يقبض عليه بهذه التهمة .. ويمكننا القول أيضا بأن شركتنا انما أقيمت لتدبير أمور المصنع ومنتجاته ، فلا يكون لك أو لى أية مشاركة ، ولا شك أن محظياتنا لن ينالهن سوء لادارتهن الشركة وقصارى القول ليس هناك ما يدعونا الى الخجل أو الفزع .

وأخذ «السيد الثانى» يهز رأسه هزات متتالية ويقول : « حسن جدا ، ليس فى هذا ما نخجل له فى مصنعنا ، فاذا ما حضر المفتشون فسوف لا يكشفون شيئا فى حساباتنا ... ولكن أمامنا مشكلة أخرى لم نفصل فيها بعد يا أخى الأكبر ، فلعله تذكر أن حراسنا قتلوا اثنين من الطلبة فى العام الماضى عندما حضروا لرؤية المصنع ، فاذا انكشف هذا الأمر فى التحقيق فسيلعب الشيطان دوره ، وأسوأ من هذا اننى سمعت بعزم اتحاد الطلبة على اعلان اتهام كل منا ، وسيعمد الى لصق لافتات واعلانات فى الشوارع للتشهير بنا .. لقد أصابنى هذا الخبر بطعنة فى الصميم فالمشكلة لا تقتصر على المصنع أو سمعتنا ، بل تهدد ممتلكاتنا وأرواحنا بالخطر » .

واضطرب المدير فى دخيلة نفسه ، ولكنه قال بهدوء :

— لقد طلبت من كو — جن حفظ هذا الموضوع ، ولا استطيع أن أؤكد تماما ماذا ستكون النتيجة ... ان كو — جن ذو نفوذ قوى فى الجنوب وتكفى كلمة واحدة منه الى السلطات مع بعض الترضيات للقضاء على المشكلة » .

— هل تعتقد حقيقة ان باستطاعتنا شراء ضمائرهم ؟ انهم متزمتون ضد الفساد ، ولا يقرون الرشوة .. هل تظنهم يقبلون ؟ »

— انك ساذج أكثر مما ينبغى يا أخى الأصغر ... ليس فى الدنيا كثيرون

يفعلون ما ينادون به ٠ ومهما كانت الحال فانهم يطالبون بالدولة الأمينة لا الأفراد الأمناء ٠ والحكومة ـ أية حكومة ـ لا تقر الرشوة بطبيعة الحـال ، ولكن الموظفين من البشر ، فمن منهم لا يحب المـال ؟ وما دمنا نجـد المبرر المعقـول فانهم يقبلون ، فان كنت قلقـا ، فلمـاذا لا تستدعى كوو ـ جن الآن وتبحث معه ما يجب أن نفعل ؟



ـ نعم ، سوف أفعل ذلك بطبيعة الحال لأننى لا أطيق أن أظل خائفـا ، والمسائل المالية يجب أن تستقر !!



ـ اذن يجب ألا تضيـع الوقت لأن كوو ـ جن يخرج عادة بعد الغداء ،وليس هناك ما يدعو الى التسويف

ثم أمر باحضـار « ركشة » لتنقل « السيد الثانى » بسرعة ، وما أن وصلت حتى نهض ، وقال وهو يغـادر المكان : « لقد نسـيت أن أهنئك على محظيتك الجديدة » ٠

فأجاب المدير وقد تقطب وجهـه : « سـوف نتحدث عن هذا فيما بعد ، ويجب أن ترجع لتناول الغداء معى ٠

وأسرع « السـيد الثانى » بركوب الركشة ولم يكلف المدير نفسه عنـاء الانتظار ، بل رجع الى غرفتـه وهـو ينفخ دخان غليونه ٠

وشمل السكون كل شىء فى حجرة الاسـتقبال الا تلك المرآة التى تعكس أشباح المارة فى الشارع المقابل ، ولكن لم تكد تدق الساعة ثلاثا حتى عـادت الحياة ثانيـة الى الحجرة حين اصطحب رئيس التشغيل بالمصنع زوجين قرويين ليريهم القاعة وما تحتـويه من نفائس

وأعجب الزوجان أيما اعجـاب بكل ما فى القاعة ، بالساعات والقطع الفنية النادرة ، وقالا ان قصـور الامبراطور نفسه قد لا تضم أشياء أثمن من هذه ٠

ـ وقال مستر «وى» رئيس التشغيل وهو يلتفت الى الزوجة العجوز : «هاأنت ترين أن مديرنـا أكثر النـاس ثراء وأوسعهم شهرة ، ومن حسن طالعكما أنه اختار فو ـ يونج خطيبة له ، فاذا ما اتخذها محظية فلن تحتاجا الى طعام أو كساء أو مأوى ، وقد يصبح ولدكما هسيـاو ـ كو قاضيا ، وان كان من الأفضل أن يعين قائد فرقة لأن للقضاة متـاعب كثيرة فى هذه الايام ، ولقد سمعت أن قائد الفرقة يمكن أن يرتفع الى أكبر الوظـائف ٠ فما من قريب لاحدى محظيات المدير الا وله وظيفـة كبرى تدر عليه مالا كثيرا ، فاذا وافق ابنكما هسـياو ـ كو على التخلى عن زوجتـه فـو ـ يونج الى المدير فانه سيحصل دون شك على وظيفة طيبة٠٠٠ رئيس فرقة ، قومسـبير ـ أو أى شىء آخر يطمع فيه ٠٠٠

وأثارت هـذه المعلومات ثائرة الرجل العجوز ، وامتعض مستر « وى » ولكنه أخفى امتعاضه وأسرع فأوضـح لهما أن المسألة عادية جدا ، فقد اعتادت عاملات المصنع على مزاولة أعمال خارجية كهذه ... والمدير من حقه ارسال الفتيات الى بيته .. فمثلا لنج ـ هـو ، وتسيو ـ هوا ، تعملان باسـتمرار فى خدمته . وحدث أن كان مستر « فيى » بحاجة الى وجود فو ـ يونج ، ولهـذا السبب دون غيره قضت ليلتها فى بيته .

وطلب الزوجـان العجوزان مقابلة فو ـ يونج لاستطلاع رغبتها الحقيقيـة **فأحضرها تسيو ـ هوا على الفور ،** فما كادت ترى والدى زوجهـا حتى انفجرت بالبكاء وخرت على قدميهـا وقالت وهى تنتحب :

ـ خذانى معكما الى البيت ،أنت ياأبى وأنت يا أمى ، لا تتركانى هنـا تحت رحمته ... اننى متزوجة الآن فعلا ... ولا أستطيع البقاء هنا لحظة ...

قد يكون لديه مال كثير ولكنه لايستطيع شرائى ... » .

ولما كانت صيحاتهـا قد تعالت حتى ترامت الى أسـماع من بالشارع ، فقد اخطرها مستر « وى » الى التزام الصمت وساعدتها المرأة على النهوض ، وأمسكت الفتاة بعد أن انهارت ، وسـاد الصمت أرجاء القاعة .

أما المرأة العجوز ، أم زوجهـا التى تبحث عن الثراء والجاه ، فقد احتضنت زوجة ابنها برفق وأخذت تشرح لهـا المزايا التى يمكن أنتحصل عليها الاسرة اذا ما قبلت الزواج من المدير الثرى ، ولكن الفتاة استمسكت بعنادها ولم تحاول التفكير فى أن تصبح محظية .. انهـا تريد العودة الى زوجها هسيا ـ كو .

وعجز مسـتر « وى » عن اقناعها بشتى الوان المغريات ولـكن احتـرام الفضيلة والوفاء ، وبعد مناقشات حامية رحلت فور يونج مع والدى زوجهـا .

وعاد مستر «وى» لمقابلة المدير ليخبره عن تمرد الفتاة وأن من الخير أن يبتعـد عنها ، فهناك فتيات كثيرات يفققنها جمالا وذكاء ، ووصف له موقفها فى صباح هذا اليوم وفى الليلة الماضية،وأنه هو نفسه حاقد عليها ، لانها وصفته بألفاظ نابية عند رحيلها ، وانه كان يريد قتل هذه الفتاة الوقحة لولا رغبة المديرفى اتخاذها محظية له ....

ومر المدير بشطب اسمها من قائمة العاملاتبالمصنع وطلب الىمدير التشغيل أنيذهب الى بيتها ويشترىصمتها ببضع دولارات يسـحبها من الرصيد الخاص بالاعمال الخيرية .

عندما حانت الساعة الخامسـة وقف بالباب بعض رجال الشرطة فتندت جباه كل من فى البيت بالعرق البارد لدى رؤيتهم .. هـل قدمت « فو ـ يونج » شكوى الى السلطات فجاء هؤلاء للقبض عليهم ؟ ولكن يبدو أن الموقف غير ذلك، اذ أعلن رجال الشرطة عن قصدهم :

«صدرت الأوامر بالاحتفال باستقبال القائد الأعلى غدا ، فعلى كل بيت أن يرفع الأعلام »

وتنفس أهل البيت ارتياحا ، واحتج أحد الخدم قائلا ! «منذ أيام قلائل صدرت الأوامر برفع علم لتوديع قائد ، وأنتم تطلبون اليوم أن يرفع غـدا علم لقائد آخر ، فما معنى كل هذه الاعلام ؟

أن الاوامر تفرض علينا من الجهات العليا ... لاحظوا ألا ترفعوا العلم غدا العلم الوطنى ذا الالوان الخمسة، ان علم البحرية هو الذى يستعمل الآن بدلا من العلم الوطنى

ولكن كيف نحصل على علم البحرية؟ هل يفرض على الناس اليوم أن يرفعوا علما ، وغدا علما آخر ؟

هذا شيء لايدخلفى دائرة اختصاصنا فالجهات العليا هى التى تأمر برفع علم التنين ، أو أعلام الجيش ، ولا نملك الا أن نأمر بما تأمر به الجهات العليا ....

وانصرف رجال الشرطة ، وسرعان ما ما انعكس على المرآة الكبرى فى قاعة الاستقبال صورة علمين كبيرين من أعلام حزب « الكومنتانج » يبلغ طول الواحد منهما أربعا وعشرين قدما رفعا على واجهة صالون الحلاقة الجديد ، وقد تدليا فوق الارض حتى ليخيل اليك أن هذا الصالون احدىالدوائر الحكومية الهامة .

وعندما أقبل المساء أقيمت بقاعة الاستقبال وليمة للمستر هوانج عقب زيارته للمصنع . وكان مستر « وى » رئيس التشغيل أول من وصل فتلقى تعليمات المدير ، وأنهى اليه انه اشترى علمين جديدين ، ولكن المدير اعترض على تبذيره المال فى شرائهما ، وكان يجدر به البحث عنهما فى متاجر لبيع الأشياء المستعملة ، ولعله كان يظن من الممكن العثور على العلم الوطنى الجديد فى مثل هذه المتاجر .

وظهر « السيد الثانى » ، وكان يبدو من هدوئه أنه يحمل أخبارا سارة ، وأخرج بعض الكتب وقال للمدير :

ـ « ان « كوو ـ جن » لم يستطع « بابتونج » لمقابلة القائد ، وطلب الى الحضور لأنه سيركبا قطارا خاصا الى أن أسلمك هذه الكتب وأقول لك ان كل ذا نشاط اجتماعى يجب أن يحفظ هذه الكتب منذ الآن عن ظهر قلب ، لأنها تضم القواعد الجديدة التى لا تتغير منها كلمة واحدة » .

ويأخذ المدير فى تقليب أوراق الكتب، ويقع نظره عفوا على هذه الكلمات : « **مبدأ العمل للصالح العام** » فيحس بهزة سرور شاملة ، ثم يسأل « السيد الثانى » : « أليس مصنع الصالح العام، يدخل فى نطاق مبدأ الصالح العام ؟

ـ تماما ، تماما، وهكذا تتفق أعمالنا مع وجهة نظر « صن يات ـ سن » .. ويسعدنى أن أخبرك أن «كوو ـ جن » قد تغلب على مشكلتنا وليس أمامنا الآن ما نخشاه .

ويصل مستر « هوانج » فى هذه اللحظة ، وبعد أن يتنصل من كل مسئولية يحدثه المدير عن العلاقة بين مصنعه ومبدأ العمل لصالح قومه ، ويتأثر مستر هوانج أكثر من أى وقت مضى بعملهذا المصلح الاجتماعىالحديث وحبه لأعمال الخير والبر ، ما دام الى

جانب ذلك زميلا للدكتور صنيات سن ولا بد أن يذكر هذه الميزة الأخيرة فى كتابه الذى يعده عن رحلاته ، ثم يغادر المكان دون أن يذكره بأن نار الغيرة من ثراء الدكتور تأكل صدره ولايفكر الا فى أن الرجل الغنى هو الذى يستطيع دون غيره أن يكون « فاعل خير » ويصل الى الغاية التى لا يصل اليها أحد غير الأغنياء ... هذه حقيقة صادقة كل الصدق !!

وظلت الوليمة قائمة الى ساعة متأخرة من الليل ، ثم تفرق المدعوون ، وساد القاعة صمت لا يقطعه غير صوت الحاكى فى « صالون » الحلاق الجديد مختلطا بأصوات الأوانى الفضية والأطباق .



محمود طاهر لاشين

من رواد القصة

بحث : عباس خضر

محمود طاهر لاشين هو احد الرواد الأوائل لفن القصة القصيرة العربية ، الذين ارسوا أصول هذا الفن فى مصر وفى بلاد الوطن العربى • له مجموعتان قديمتان ومجموعة حديثة• أما القديمتـــان فهما « **سخرية الناى** » و « **يحكى أن** » وقد ظهرتا فى العشرينات من هذا القرن ، وأخيرا صـدرتا فى طبعة ثانية فى مشروع المكتبة العربية الذى يقوم به المجلس الأعلى للفنون والآداب والدار القوميـــة للطباعة والنشر ، ظهرتا مصدرتين بمقدمتين تحليليتين كتب الأولى لسخرية الناى الاستاذ يحيى حقى ، وكتب الثانية « ليحكى أن » الاستاذ محمود تيمور •

اما المجموعة الثالثة الحديثة فقد أصدرها الكاتب نفسه سنة ١٩٤٠ مصدرة بمقدمة للدكتور حسين فوزى ، وعنوانها « **النقاب الطائر** » •

ولمحمود طاهر لاشين ـ الى جانب القصص القصيرة رواية اسمها « **حواء بلا آدم** » ظهرت سنة ١٩٣٤ مصدرة بمقدمة للاستاذ حسن محمود •

نشأ محمود طاهر لاشين فى أسرة من الطبقة المتوسطة فى حى شعبى بالقاهرة ، هو حى السـيدة زينب ، وتلقى التعليم الابتدائى بأحدى مدارسه ، وهى مدرسة محمد على الابتدائية • ولما أتم هذه المرحلة من التعليم لحق بمدرسة قريبة من الحى ، هى مدرسة الخديوية الثانوية ، ثم تخصص فى دراســـة الهندسة بمدرسة المهندسخانة العليا ، وتخرج فيها وعين مهندسا بالحكومة فى مصلحة التنظيم ، وظل بها حتى أحيل الى المعاش فى أواخر سنة ١٩٥٣ وكان قد شغل عن الانتاج الأدبى سنين طويلة فلما أحيل الى المعاش أراد أن يتفرغ للكتابة القصصية ، وكان قد سره ترديد اسمه كرائد فى فن القصة بعد النسيان الطويل ، فطلب تسوية معاشه قبل بلوغ السن القانونية بسنتين ، وأجيب الى طلبه ، ولـكن الموت ضن علينا بانتاجه الجديد فعاجله بعد ذلك بأشهر اذ توفى فى مايو سنة ١٩٥٤ •

عرف بين اصدقائه بالمرح والدعابة وخفة الظل وطلاقة الحديث ، يسترسـل فى كلامه على طبيعته ، يقول كل ما يريد أن يقوله فى ظرف وادب ، ويتقبل ما يقال له بسماحة وسعة صدر • وكان من أبرز أعضاء المدرسة الحديثة التى حملت لواء الثورة الأدبية فى أعقاب الثورة الوطنية ، ثورة سـنة ١٩١٩ ، واخذت على عاتقها انشاء فن قصصى عربى حديث يعبر عن الشخصية المصرية فى أصالة وصدق بعيدا عن تقليد القدماء والاجانب على السواء •

مهندس شـــاب موظف ، توفر له وظيفته حياة مادية لا بأس بها فى ذلك الوقت الذى كان يعتبر الموظفون فيه طبقة متوسطة ممتازة ماديا واجتماعيا ، وله الى جانب الوظيفة بعض أملاك من البيوت تدر عليه بعض الايراد • وقد نشأ صغيرا فى مثل هذه الحال ، ولكن هذه الطبقة كانت لها تطلعات الى الطبقة الأعلى منها ، وكانت تطلعات كاتبنا تكاد تنحصر فى التعبير الأدبى ، وعم يعبر ؟ لقد تعلق مثـل سائر أفراد المدرسة الحديثة بأدب الغرب القصصى الذى اقترن ازدهاره ، أو قام هذا الازدهار على تصوير الحيـــاة الواقعية بما فيها من تناقضات ومفارقات ، فالتفت الى واقع مجتمعه ، كى يفرغ انفعاله به فى شكل مماثل للشكل الغربى •

بدأ طاهر لاشين يكتب القصص بعد **محمود تيمور** • وقد صدرت مجموعته الأولى « سخرية الناى » فى أواخر سنة ١٩٢٦ ، لم يدون هذا التاريخ على الكتاب ، انما استنتجته من الاعــلان عنــــه فى جريدة « الفجر » التى كانت لسان حال المدرسة الحديثة ، وقد كتبت الجريدة تقديما له فى العدد الصادر بتاريخ ٦ يناير سنة ١٩٢٧ ، وظهرت المجموعة الثانية « يحكى أن » مع مقدمة للدكتور أحمد زكى أبو شادى فى سنة ١٩٢٨ استنتاجا مما ذكره الاستاذ يحيى حقى فى كتاب فجر القصة المصرية من أنها ظهرت بعد سخرية الناى بسنتين تقريبا وقد نشرت « الفجر » معظم قصص المجموعتين ، منذ العدد الثالث (١٩٢٥/١/٢٢) حتى توقفت عن الصدور • رقالت « الفجر » فى تقديمها لسخرية الناى انها كانت تود أن يكتب الدكتور حسين فوزى نقدا لها ، لولا أنه متغيب فى فرنسا • وعلى أثر ذلك توقفت الجريدة •

وكان طاهر لاشين يكتب فى الفجر ــ غير القصص ــ تعليقات فكهة تحت عنوان « حديث المجالس » يتناول فيها مختلف نواحى الحياة الجارية بأسلوب ساخر • وكان يوقع أولا باسم « محمود طاهر » ثم أضاف اليه بعد فترة « لاشين » •

لحظت فيما نشر من قصص المجموعتين الأولين بجريدة « الفجر » أنها متداخلة فى الزمن ، بمعنى أن المجموعة الأولى لم تكتب وتنشر أولا ، ثم كتبت قصص المجموعة الثانية ونشرت بعدها ، بل رأيت قصصا من الثانية نشرت قبل قصص فى الأولى ، بل نشرت قصص من الثانية قبل نشر المجموعة الأولى فى كتاب• ولحظت الى جانب ذلك أن كلا من المجموعتين يشتمل على الجيد وغيره ، وبناء على هذا لا نعد المجموعةالثانية تطورا أو ارتقاء لفن الكاتب بالنسبة للمجموعة الاولى • كل ما فى الأمر أن نسبة الجيد الى غــيره فى « يحكى أن » أكثر منها فى « سخرية الناى » •

قصة « **سخرية الناى** » التى بدأ بها المجموعة الأولى وسماها باسمها ، ليست ــ على ما أظن ــ من أوائل ما كتب طاهر لاشين ، اذ رأيتها منشورة فى « الفجر » بعد قصص كثيرة من المجموعتين وهى لا تمثل فنه القصصى ، من حيث الواقعية الخالصة المسترسلة الاسلوب ، ومن حيث البناء الذى له أول ووسط ونهاية • انما هى قصة يختلط فيها تصوير الواقع بالتحليقات الشاعرية الرومانسية والتأملات الفكرية العميقة ، كل ذلك فى أسلوب تظهر فيه الجزالة العربية التى لا تخلو من التلاعب والتكلف فى بعض التراكيب • وهى لهذا تصدم القارىء العادى والمستعجل ولكن القارىء الأديب المتمهل يحتسى محتواها رشفة رشفة فى لذة وعمق تذوق • يمثل الاولى القارىء الذى كتب عليها ــ النسخة من دار الكتب ــ : « بايخة جدا » ويمثل الثانى الذى كتب فى آخرها : « عندما يجتمع القمر والنور ، ونسائم الروض الفاترة الرطبة ، وأنين الناى المكتوم ، يرسل فى أجواء الليـــــل روعة لا يعرفها الا أولئك الذين يعرفون آلام البشر » •

واغلب الظن أن المؤلف كتب هذه القصة بعد أن تأثر بقراءة من جنسها جعلته يخرج عن الخط الذى يسير فيه •

تتكون القصة من خمس لوحات : يبدأ اللوحة الأولى بهذه المقدمة الفكرية : « من الاجسام جســـم يضغط فيكسر ، وجسم يضغط فلا يكسر ، بل يلين فيتحور ، وجسم يضغط فلا يكسر ولا يلين فيتحور ، بل ينقى ويتبلور • كذلك النفس ، ضعيفها يكسر ، وخبيثها يتحور ، وقيمها ينقى ويتبلور ، ومن النوع الأخير الأنبياء والعظماء • وعم وهدان •• »

وعم وهدان هو بطل القصة الذى « ضغطه البؤس صغيرا ، ولاحقه شابا ، ولازمه كهلا ، فهو شريد حائر ، يسلمه الصيف اللافح الى الشتاء القارس ، ويطوح به الريف العابس الى الحضر الهازىء ،فيطارده البؤس ويتعقبه الشقاء •

وهذه اللوحة الأولى تصوير اجمالى لحياة البطل من حيث أنه لم يقض عليه البؤس فيموت ، ولم يدفعه الى الانحراف فيكون لصا أو قاطع طريق ، ولكنه تجسم أخيرا فى فلســــفة « تستخف ما كان ،

وتستخف بما يكون » فهو رجل لا يأسى على ماضيه ولا يأبه بالمستقبل ، وهو يوسل هـــذه الفلسفة فى الفضاء من ثقوب نايه أنغاما فرحة حزينة مستسلمة للمكتوب •

واللوحة الثانية تمشى بنا على أرض الواقع « هنالك عند مدرسة الصنايع منطقة صاخبـــة لاغية ، تكتنفها مصانع الحكومة عن اليمين ، ومصانع الأهالى عن اليسار ، تجاوب فيها المطرقة المطرقة ، وتتعالى فى جوانبها قعقعة الحديد بين دوى الآلات المستمر كأنه همهمة الشياطين والمودة تزوم وتهترس » •

وتشتمل هذه اللوحة على صورة ساخرة من الواقع المصرى فى ذلك الحين ، اذ كانت الصناعة المصرية متخلفة تنحصر فى أشياء تافهة ، اذ يقول لنا بعد ذلك أن تلك المصانع « أهلية » لأنها ليست حكومية ، لا لأنها لأهل مصر ، انما هى لأجانب من أمثال « أرمنيان وبترو ودارتانيان » •

والسخرية تقول : **ليس كل ما هنالك مصانع أجنبية ، فهنالك أيضا مصانع أخرى مصرية للمصريين •• وتعتبر اللوحة فى رسم « بائع المخلل » وما على عربته من البراميل المرصوصـــة المملوءة « باللفت الوردى والخيار الزمردى والليمون الكهرمانى » • ورسم « بائعة المحشى » الواثقة من جودة بضاعتهـــا ورخصها ، وثوق « فورد » من سياراته ومحركاته الى حد أنها لا تزيد فى مناداتها على أن تقول فى هدوء : (الطيب يا غشيم) مع مد ياء الغشيم مدا رزينا بعيدا عن أية مباهاة أو أنانية »** وكذلك باعة القلل والأباريق والأزيار والبلاليص •• يقول من خلال هذا التصوير وبين سطوره فى سخرية ممزوجة بالمرارة : هذه هى الصناعة المصرية •

وهذا المكان الذى ترسمه اللوحة الثانية لا يهمنا فى متابعة بطل القصة الا أنه طريق الى مكان آخر فى طرف القاهرة ، وهو ريف به مزارع ونخيـــل وأكواخ وتقوم فى بعـــض أرجائه دور كدور المدن وحوانيتها •

فى هذا الريف يعيش « **عم وهدان** » ومن هنا تبدأ اللوحة الثالثة فى الوصف التفصيلى لعم وهدان ونشأته والسبب الذى دفعه الى الهرب من مسقط رأسه ، يصفه بالطريقة الشائعة فى كتابة تلك الفترة وهى الوصف فى دفعة واحدة ، وهنا يتجلى فنه « الكاريكاتورى » المعبر ، يبدأه بشىء من التكلف فى التعبير فيقول فى تقديم البطل : « **ولست مسئولا عن كائن من كان يشذ به خياله ، فيحسب أن سيجد هاهنا انسانا له أكثر من** رأس واحدة ، وعينين اثنتين وتكوينا كأى تكوين بشرى **مألوف • بل هى رأس أقرب الى الضخامة ، لولا شعرات بيض موزعة فى أنحائها لكانت أنموذجا بديعا للصلح ، تتقدمها جبهة عريضة خط فيها الدهر خطوطا صريحة لا يستطيع عم وهدان معا أن ينكر أنه ابن الخمسين ، ثم عينان عميقتان محدجتان ، فوقهما حاجب ونصف حاجب ، وتحتهما لحية وشارب ، لا يحسد أحدهما الآخر على شىء ، فلكل منهما نصيبه الوافر من المشيب ، ولكل منهما الحرية المطلقة فى أن ينمو حسبما أراد •••»** ويحدثنا بعد هذا عن اضطهاد زوجة أبيه اياه وقسوة أبيه عليه ، مما دفعه الى التشرد •

وها هو ذا عم وهدان فى اللوحة الرابعة قد وصل الى هذا الحى الريفى حيث تقبله أهله وأكرموه بعد أن قدمه اليهم امام المسجد الذى عطف عليه لما عرف شأنه • ووجد الرجل الشريد راحته وطمأنينته بين أهل الحى الذين أنزلوه بينهم موفور الرزق والكرامة ، وراح يقضى أوقاته « **اما ساهما واجما يفكر فى كل شىء وفى لا شىء ، أو عازفا على نايه يشدو ويتفنن ، واما ناشطا •• يجوس خلال الدور ، يقضى حاجة هذه من تلك ، ويبلغ رسالة تلك الى هذه ، وقد لا يؤديها لأن الأطفال قد تشبثوا به ، فهو جالس بينهم يداعبهم ويلاعبهم كأنه طفل ذو لحية مستعارة »** •

أما اللوحة الخامسة ففيها « فيلا » صغيرة أنيقة تقوم فى تلك الضاحية ، يقيم بها « **سرى من سراة القاهرة ، بناها منذ عام وأنفق على رياشها وأثاثها بسخاء ، ولبث فيها مع زوجته ينتظران قدوم الولد الغائب بقلوب تنتفخ من سرور وفرحة كلما اقترب الميعاد** » والولد غائب فى باريس حيث يطلب العلم • ولما أتم دراسته وظفر بالشهادة عاد الى وطنه وأبويه « عاد الفتى يحمل العلم فى رأسه والهمة فى صدره ولكنه كان يحمل السل فى أمعائه » وعاش الفتى وأبواه فى دارهم الخلوية معذبين من جراء هذا المرض

وفى احدى الليالى لمح المريض نور البدر من خلال الستائر«فاشتهى أن يقوم فينظر نظرة قد تكون الأخيرة، وأن يملأ صدره من الهواء العليل يتزود به الى قبره ، فأسنده والداه فيما بينهما • وكان اذ ذاك هيكلا عظميا ، وسارا به فى بطء وهو يجر ساقيه جرا ، ولكن خارت قواه قبيل النافذة فسقط مغشيا عليه ، فأسرعا به الى سريره •• ثم أسرعا ففتحا النوافذ ، عل الهواء ينعشه ، وعل ضوء القمر يعيـــــده الى صوابه • فدخل الهواء ودخل النور ، ولكنهما كانا يحملان أنغام الناى مرسلة متتابعة ، تستخف ما كان وتستخف بما سيكون •• ومرت سحابة على وجه القمر •• »

نلحظ أن اللوحتين الثانية والخامسة ضعيفتا الارتباط بالقصة ، مما يجعل بناءها العام غير متماسك على خلاف بقية القصص فى المجموعتين • ولو صرفنا النظر عن هذا وعن الشاعرية والرومانسية فاننـــا نجد فى هذة القصة بعض الخصائص لكتابة طاهر لاشين على وجه عام ، نرى السخرية الخفيفة أو المرح الذى يقف على عتبة السخرية ويحول دون امعانه فيها روح انسانى وميل الى التعاطف • ونرى الاشخاص المستسلمين للقسمة والنصيب ، ونرى التعبير الأدبى الذى يجمع بين « كلاسيكية » اللغة وأصالة الكاتب بحيث يتكون من الأمرين أسلوب شخصى متميز ، وذلك برغم ما فيه من بعـــض الأخطاء اللغوية التى نلحظها فى النصوص المتقدمة ، كتأنيث الرأس مثلا ، وبرغم بعض العبارات التى تستهويه فتبدو متكلفة لا تضيف جديدا من الدلالة ، وسنرى الأسلوب فى بقية القصص يسلس ويخضع لمقتضيـــات القص ، وان كان يظل محتفظا بالقوة التعبيرية والتميز الشخصى •

ونرى كذلك فى هذه القصة ما نراه يتكرر فى كثير من قصص المجموعتين ، **من وصف بيوت الفقراء والعمال** ، اذ يقول عندما ينتهى من وصف حى مدرسة الصنايع الى الحى الريفى : « **ونحن فيهـا أقرب ما نكون الى مستقر البطل** ، بيننا وبينه قنطرة خشبية طويلة عريضة ملتوية تنحنى حتى ليمر تحتهــا أتلع القطارات جيدا ، وحتى ليشرف المرء فوقها على بيوت العمال ، حقيرة قذرة **بأوســع معانى القذارة** والحقارة ، متساندة بعضها الى جانب بعض فى ذلة ومسكنة جهة الشرق ، **تقابلها فى الغرب تلال من تراب الفحم** متجهمة عابسة كأنها رمز حياة التعساء » •

واهتمامه ببيوت الفقراء ، **والعمال** فى أحياء القاهرة الشعبية وقذارتها وتداعى بنيانهـــا وتكدس السكان فيها ، انما هو من تجربته كمهندس تنظيم ، وهو يبث فى الوصف من روحه الانسانى كأديب مرهف الحس اطلع على تصويرات مماثلة فى أدب الغرب وخاصة فى الأدب الروسى •

ووصف طاهر لاشين بوجه عام وصف مجنح •• ان صح هذا الوصف ، اعنى أنه يؤدى أغراضـــا تعبيرية غير مجرد الوصف كما ترى فى وصف بيوت العمال المتقدم ، ففى نعتها بالتساند مع الذلة والمسكنة ايماء الى ما يكون عادة بين هذه الطبقة من التعاون وما كان يفرضه عليهم الواقع السىء من المذلة والمسكنة• ثم أنظر الى ما يقابل هذه البيوت من تراب الفحم العابس الذى يعكس حياة التعساء •

ويبدو لى من بدايات طاهر لاشين الموفقة فى كتابة القصـــة أنه لم ينشر الا بعد أن وثق من نفســه ولعله فعل مثل ما حدثنا به شحاتة عبيد فى مقدمة مجموعته من أنه كتب قبل القصص التى نشرها قصصا أخرى أهملها • وذلك على عكس كاتب مثل محمود تيمور أسرع بنشر أوليات انتاجه • وما يتصل بذلك ما قاله أصدقاء طاهر لاشين من أنه كان يتريث قبل أن يكتب ، فلا يبدأ فى كتابة القصة الا بعد أن تنضج فكرتها فى ذهنه ، ثم يتريث فى الكتابة فلا يتم القصة فى جلسة واحدة •

يقول الاستاذ حسن محمود ـ وهو صديق لطاهر لاشين عرف فنه القصصى منذ نشأته ـ أن طاهر **لاشين لم يكن من الكتاب الذين أمضوا فترة طويلة فى المران على صفحة الكتابة قبل أن يصير لهم جمهور « فان مجهوده الأول فى القصة ، ولعلها قصة « فى قرار الهاوية » كان مجهودا بارزا جعله فى طليعة كتابنا القصصيين » •**

و « فى قرار الهاوية » هى القصة الثانية فى المجموعة الأولى « سخرية الناى » وهى قصة جيدة فعلا

أما قصة « يحكى أن » التى صدر بها المجموعة الثانية وسماها باسمها ، فهى تمثل ما فى معظم قصص الكاتب من الاهتمام بالموضوع الاجتماعى والحرص على صبه فى القالب الفنى ، والعناية بالتنسيق بينه وبين سائر عناصر القصة ، بحيث يتم التعادل بين كل العناصر ، من رسم الشخصيات والتحليل وحبكة السرد والحوار •

وحتى الآن ما زلنا نلحظ فى قصاصينا جميعا العناية بالهدف الاجتماعى ، فى المحاولات الأولى وفى القصص الفنية المتكاملة • واذا نظرنا الى رواد القصة القصيرة الذين نجد العناية بالاصلاح الاجتماعى ظاهرة بشكل واضح ، كما فى قصص محمود تيمور ، وكذلك فى قصص الأخوين عيسى وشحاتة عبيد مع الاهتمام البالغ بالتحليل ، ولكنا نجدها أقل نسبيا عند محمود تيمور الذى يعنى أشد العناية برسم الشخصيات •

الموضوع الرئيسى فى قصة « يحكى أن » ـ كما يبدو من البدء والختام اللذين يحاكى فيهما ابن المقفع فى كليلة ودمنة ـ أن الانسان ينبغى عليه أن يتبصر فى عواقب الأمور قبل أن يأخذ بأوائلها • على أن الموضوع المقصود هو ما يحتوى عليه هذا الاطار الكلى مما كان يسود المجتمع اذ ذاك من الرغبة والتطلع الى فوق ، تطلع الطبقة المتوسطة الى ترف الطبقة الغنية وثرائها ، لا لحاجة حقيقية ، والا كانت الطبقة الفقيرة الكادحة أولى بذلك ، على حين نراها قانعة راضية بما قسم لها من البؤس وشظف العيش انما كان التطلع من الموظفين وأمثالهم الى الاثراء عن أى طريق ، وكان طريق الزواج ممهدا بالنسبة للموظفين ، اذ كانوا مرموقين محترمين حتى من الطبقة الغنية ، كما نلحظ ذلك من مثل قول الخاطبة لمبروك افندى وهى تعدد صفاته المرغوبة عند أهل العروس : « **وأنت سيد الناس ، شباب وموظف فى الميرى •• الخ** » • وغالبا تكون عواقب هذا التطلع مثل عاقبة مبروك افندى ، لان الطمع ـ من ناحية الزوج ـ يعمى عن التبصر ، والاقبال ـ من ناحية الزوجة وأهلها ـ يكون دافعه التستر وانهاء فترة انتظار العريس والخوف من الفضيحة أو التعنيس •

وفى القصة نظرات جانبية ودلالات اجتماعية أخرى ، مثل انحراف البنت المصرية فى فترة انتقالها من التقاليد القديمة الى الحياة العصرية ، وانطلاقها فى الأخذ بأسباب المدنية الغربية دون أن يكون هناك ما يردعها أو يوجهها الى السلوك اللائق من تربية منزلية سديدة ، ومن نقد نظام الخاطبات وما يستلزمه من تمويه ومبالغات وعدم الفهم الحقيقى لشخصية الزوجة أو الزوج •

واذا نظرنا فى عناصر القصة الفنية فان أول ما نلحظه هو التقدم ـ بالنسبة للكاتب وأترابه ـ فى رسم الشخصية ، فهو لا يقدمها لنا دفعة واحدة ولا عن طريق الوصف المجرد ، انما هو يعرفنا بها على مهل وفى المواقف المناسبة • وأبرز ما يصطنعه ظاهر لاشين فى رسم أشخاص القصة ، أمران : الأول الاكتفاء باللمحة الدالة عن الأوصاف الكثيرة ، والثانى صب الصفات فى سياق خبرى ، يقدم « **نعمات** » المدللة الكسول اللعوب ذات المغامرات المريبة المنتشية بسهرة الأمس ، فلا يذكر شيئا من هذه الأوصاف، بل يقول انها « لا تصحو من نومها قبل الساعة التاسعة صباحا ، فاذا ما استيقظت تثاءبت وتمطت ، ثم تثاءبت وتمطت ، وشرعت تنكمش وتنبسط على هذا الجنب تارة وعلى الآخر تارة أخرى كسمكة ورقة الميكا التى كنا ـ ونحن صغار ـ نجدها فى لفائف الشكولاتة ، أو تستوى على ظهرها فتمد ذراعيها الى مؤخر السرير تعبث بقوائمه الرفيعة على نحو ما تصنع عازفة على قيثار ، وهكذا حتى يروقها أن تنهض فتنهض، أو حتى تتبرم والدتها فتضطرها الى النهوض •• على أن نعمات كانت اليوم أكثر استسلاما الى تراخيها وما فيه من حركات وسكنات ، اذ كانت تستمتع بذكرى ليلة الأمس ، وتخشى لقاء أمها من أجل ليلة الأمس أيضا » •

وهو لا يحدثنا عن جمال نعمات بالأوصاف المألوفة ، بل يكتفى باستغلال صورتها « **فى الفستان الديكولتيه** » وتأمل مبروك افندى فيها وافتتانه بها •

وكذلك يصور لنا شخصية مبروك افندى بما فيها من غفلة وغباء وطمع من خلال مواقف مختلفة فى الوظيفة وعلاقته بالرئيس ، وبزملائه وفى المنزل •• الخ •

وكذلك يصنع فى تصويره للأم ، وحتى الأب الغائب يعطينا لمحات خاطفة عن ميوله النسائية وبعده عن بيته واهماله لتربية ابنته التى هى فى الحقيقة صورة له من حيث البحث عن الجنس الآخر فى الخارج.

وتنتشر الفكاهة فى قصص طاهر لاشين مستخدمة فى الأداء الفنى : فى رســم الشخصيات وفى اللمحة النافذة وان كانت أحيانا تبلغ درجة التكلف . انه مثلا يصف صوت الأم بهذا التعبير الدقيق الظريف « ولما كان صوتها آنئذ بلغ قمة سلمه الموسيقى حتى نبح « لولو » يحتج على أن يجد من كبرى أسياده منافسا له فى عوائه ... الخ . **ومثل ذلك يقول فى وصف مبروك افندى بالبله وهو داخل الى رئيسه** « يضم سترته الفضفاضة فتنضم ، ويحاول أن يعامل شفتيه بالمثل فيأبيان ، فيدارى عصيانهما بابتسامة لا يسمح الظرف الحرج باتقانها ، فاذا هى باهتة بلهاء » . **ومن التكلف فى هذا المجال قوله فى وصف الخادمة العجوز** « وهى نوبية تمادى الزمن عليها فى خدمة البيت حتى بلغ الهرم بتكوينها عامة وبوجهها خاصة حدا يجوز للمرء حياله أن (يموت فى جلده) من شدة الخوف أو أن (يموت على نفسه) من شدة الضحك حسب مزاجه الشخصى » ومن مبالغاته الفكاهية فى هذه القصة قوله عن الخاطبة : « وضربت صدرها ضربة لو وقعت على نظيره من غيرها لاستدعى له أقرب طبيب » .

وقد عنى طاهر لاشين بالاتقان فى الأسلوب اللغوى وبالتعمق فى التعبير الفنى ، **فكون لنفسه بذلك** ـ كما ذكرنا ـ أسلوبا شخصيا متميزا ، يقوم على التركيب العربى المتين الخالى مما يكون عادة فى أساليب المحاكين القدماء من الترادف وايراد الجمل المحفوظة والاعتماد على رنين الألفاظ مع الفقر فى المضمون وهو يجيد الايجاز فى موضعه ، ومن بليغ ايجازه قوله « وتنزل الستارة عن قبلة من الزوجة للزوج ، ثم ترتفع ـ بعد انتراكت ـ عن قبلة من العشيقة للعشيق » .

وتندمج هذه الخصيصة الاسلوبية كثيرا مع روح الفكاهة كما ترى فى النصوص السابقة . وفكاهة طاهر لاشين قاهرية نابعة من صميم شعب القاهرة ، وهى تعطى لكتابته قيمة تعبيرية ، من حيث تمثيلها لروح وخصائص أهل هذه المدينة .

والكاتب مع عنايته بالتركيب العربى القوى والسلامة من الأخطاء ـ عدا القليل الذى يند عن قلمه ـ جرىء فى استعمال الكلمات الدارجة التى يتراءى له أن اللفظ الفصيح ان وجد لا يحل محلها ، وكذلك الكلمات الأجنبية الدائرة على الألسن وخاصة فى ذلك الوقت . ولعله أول كاتب من الرواد الحديثين يكتب الحوار « كله » باللغة العامية ، فقد بدأ محمود تيمور يكتبه بالفصحى ، وتردد بينهما عيسى وشـــحاتة ومحمود تيمور . وقد عاب على محمود تيمور هذا التردد الدكتور حسين فوزى فى نقد له بجريدة الفجر وقال انه يجب أن يكون الحوار كله باللغة العامية .

وطاهر لاشين لا يكتب الحوار كيفما اتفق ، بل نراه دقيقا فى اختيار ما يدل على الشخصية المتكلمة ويكون من تمام تصويرها ، مثل حديث الأم ، ومن أمثلته الدقيقة المعبرة عن الشخصية قولها عن زوجها « دا راجل قليل الأصل كانت قسمتى معاه مرار وندامة . انت فاكره ان سفره للبلد يعنى للعـــزبة والتحصيل . **دا كلام ما يدخل لى عقل ، ولا ينطلى على .. حضرته قاعد هنـاك جنب الست تفيدة هانم ، يبعت يسأل عنا ليه .. من يوم ما مات جوزها وهو انهتر عليها ولم قادر يدارى أموره .. داهيه لم ترجعه** » .

ومن القصص التى تصور طمع الموظفين والشباب فى الاثراء والترف عن طريق الزواج بامرأة غنية ، قصة « ألو ... » وهى من مجموعة « يحكى أن » . يبدو الحدث فى هذه القصة حول موظف تزوج من ابنة رجل غنى طمعا فى الثروة ، يريد من صهره « الكرم اما بالمال أو بالموت ، ولكن ها خمسة أعوام مضت هى خمسة سلاسل متصلة الحلقات من شجار وشقوة وآلام ٦٠ تورط فيها فى الديون من جراء تبذير المرأة المعتزة بالستين فدانا التى سترثها ، كما أفرط فى شرب الخمر طلب العزاء ولكى تكتمل البلية ، انها ولدت ثلاث مرات وذهب الوليد ضحية جهلها واهمالها ، وهذا صهره الفانى ذو المفاصل الصاخبة والقلب اللاغب والمعدة الفاسدة والشرايين الجامدة يعيش فى الارض معيشة لا يموت فيها ولا يحيا .. ماذا .. أى سجن موحش سيمضى فيه شبابه .. لتسقط الثروة .. ولتحيى الحرية .. »

هكذا كان يحكي يوسف لزملائه في المكتب عقب ليلة سكر فيها وعربد ، وأقسم أنه لم يعد يطيق أن يرى وجه زوجته ٠٠ وطلقها ٠٠

وموضوعات **قصص طاهر لاشين كأوصافه مجنحة ٠٠ بمعنى أن الموضوع الرئيسي له أجنحة ٠٠ هي موضوعات جانبية لا يصرفه الاهتمام بها عن الموضوع الأساسي ان لم يخدمه** ٠ وفي هـذه القصة يسلط أشعة مضيئة على حياة الموظفين وأحوالهم في المكاتب ، فالكاتب يبدأ بمهاد للقصة نرى فيه غرفة بديوان من دواوين الحكومة بها أربعة مكاتب ، على ثلاثة منها ثلاثة من الموظفين : أنماط مختلفة ٠٠ الرئيس ذو الكرش ، والشاب « فريد افندى » المعتز بثروة الوالد ولقب « موظف » والذى يثنى ساعده برشاقة فيرفع كم القميص الحريرى عن ساعة من ذهب وسوار من نفس المعدن ، والموظف الثالث « رجل أزرق المشيب منفوش الحواجب والشوارب ناشف الحديث والوجه والتكوين » أما الرابع الغائب فهو زوج الغنية بطل القصة ، يأتى متأخرا متجهما ، ويحكى لزملائه ما كان ، وعندما يقول لهم « طلقتها » يضرب الرئيس المكتب بيده ضربة يسر لها فى نفسه ٠٠ لأنها تشبه ضربات « سعادة المدير » أداء ، ووقعا ٠٠ ويقول بالفرنسية « فوز ـ آت فو » ويرادفها بالترجمة العربية : « **أنت مجنون** » ٠ وتنتهى القصة بحـديث تليفونى يعلم منه الزوج الذى طلق زوجته لأن زواجه لم يحقق أطماعه ـ يعلم أن صهره مات ٠٠ ويضع السماعة فى ذهول وهو يقول : « **تصوروا أن أبوها يموت النهارده ٠٠** » ويتمتم الرجل العجوز قائلا : « **تستاهل ٠٠** »

وقصة « **الكهلة المزهوة** » ـ من مجموعة يحكى أن ـ تقوم كذلك على طمع الشباب فى أموال الزوجات ولكن الكاتب يركز فيها على المرأة نفسها وطمعها فى الشباب ٠٠ كانت فى الثانيـــة والأربعين وقد مات زوجها ، من رسم الكاتب لها قوله « وفى الحق أنها كانت شابة الجسم ، والجسم كثيرا ما يختلط بشبابه الى ما بعد الشباب بكثير ٠٠ وهنا غلطة زهرة ، فقد كانت تنظر الى المرآة بعين الماضى فلا تلحظ ما حـل بأجفانها من ذبول الكبر وما غادر نظراتها من بريق الصبا ، ولا تستبين تلك التجعدات الدقيقة التى أحاطت بشفتيها ٠ بل لكانت ترى محيا نضيرا وريانا بماء الجمال ٠ ومن ثم كانت تتحدى الفتيات وتقلد سذاجتهن وتستبيح ما يبيحه نزقهن « يطمع فى هذه المرأة ، أو فى مالها ، شاب « من أسرة مجيدة حقا ، ولكنه غوى منذ صغره فلم يفلح فى المدارس العدة التى ساقوه اليها ، وشب شريدا عربيدا » ويبدد الثروة التى آلت اليه بعد وفاة والده ، واستعان الفتى فى احتياله على المرأة بشيخ دجال يعمل بتعاويذه وتمائمه على ايلاف القلوب أو تفرقتها حسب الطلب ٠٠ استعان به كما استعانت به المرأة قبل الزواج حتى تم ، ثم استعان به الزوج بعد الزواج فى اتمام عملية الاحتيال التى انتهت ببيعه ضيعتها وهربه منها ، ثم تنتهى القصـــة بموقف ظريف ، اذ تهتدى الزوجة الكهلة الى الفندق الذى يختفى فيه زوجها الشاب بمصاحبة الشـــيخ الدجال الذى يتظاهر بمساعدتها ، وعندما تراه هناك تنفجر بالشتائم ، ويقول أحد المشاهدين وهو يظن أنه ابنها : « لعنة الله على أبناء هذا الجيل ٠٠ مسكينة هذه الأم ٠٠ » ويقول آخر : « ان من يبتليه الله بولد فكأنه ابتلاه بنقمة والعياذ بالله ٠٠ » وتقول الزوجة بدهشة وصوت مبحوح : « ابنى ؟؟؟ » ويقترب منهـا الفتى هامسا وهو يبتسم : « تسكتى بعد كده والا أصرخ وأقول ان حضرتك زوجتى ٠٠ مش والدتى ٠٠ خليكى عاقلة وتعالى نتحاسب جوه ٠ » أما الشيخ فقد وقف على بعد يفتر عن ضحكة شيطانية ويعبث بأصابعه فى لحيته ٠

وفى هذه القصة وصف رائع للقمر من حيث ربطه بالمشاعر وأحوال النفس وهو مثال من عنايتـــه بالصياغة والتعبير الأدبى ، يقول الكاتب : « **كانت ليلة من تلك الليالى التى يتوانى القمر فيها حتى يهجع كل خل ، فلا يطلع الا على شجى يستجديه ، أو شاعر يستوحيه ، أو عشيقين أبى الغرام أن يكونا من النوام ، وكان كامل وزهرة من الصنف الأخير** » وهو يهيىء بهذا الموقف الشاعرى لما يريده الشـــاب من الاحتيال على المرأة ، يقول عقب ذلك : « وفيما هما عند نافذة الغرفة ، والفتى باسط ذراعه قدر مستطاعه على خصر زوجته يناجيها ، وفمه على قيد من أذنها ـ همس اليها بحديث حلو فحواه أن وجود أرضها الى جانب أرض آل زوجها الأسبق مصدر للنزاع ، والأهم من ذلك أن اتصالها ـ على أى صورة ـ بآل الزوج الفقيد يثير غيرته ويؤلم عواطفه » ٠

وكثيرا ما نرى فى قصص طاهر لاشين صورة الموظف الحكومى ، كما رأينـــاها فى قصص الأخوين التيموريين : رجلا يجتمع له الثالوث المفسد : الشباب والفراغ والجدة ، وقد كان مرتب الموظف يحقق له بعض الترف لارتفاع القيمة النقدية ورخص المعيشة فى تلك الحقبة ، بالاضافة الى غنى الأب أو الابن ، أو الى ما يورث عنهما ، فالموظف غالبا من الطبقة المتوسطة الغنية بعض الشىء التى استطاعت أن تعلم أبناءها فى المدارس • ومن تمام الصورة الأخذ بمفاسد المدنية الغربية ومحاكاة الاجانب الغربيين والتحلى بنطـق عبارات من لغاتهم كما رأينا فى قصة « ألو ••• »

ومن القصص التى يجنى فيها الرجل على زوجته فيسيمها العذاب ، ويحرمها الضرورى من القوت ، فيكون ذلك داعيا الى سقوطها ، قصة « فى قرار الهاوية » ـ من مجموعة سخرية الناى ـ وهى من أوائل ما كتبه طاهر لاشين • تصور رجلا سكيرا سلبه الادمان على الخمر كل ما فى الانسان من نوازع الرحمـــة والانسانية . يبدأها بوصف ليلة باردة من ليالى الشتاء التى يقبع فيها الناس فى بيوتهم ، لا يسمعون فى الخارج الا « طب •• طب •• طب •• ـ وقع أقدام أحد السابلة يكافح طريقه وسط الطين المتراكم ، والبرك المبعثرة ، التى خلفها مطر الليلة الماضية •• أو ـ طق •• طق •• ـ وقع حوافر جواد يعدو فى الشارع العمومى » ويذكرنا هذا وما فى الوصف من « ثلج ثائر فى الهواء » بجو قصصى تشيكوف ، وحكاية الأصوات تتكرر فى قصص كاتبنا « لاشين » ـ فى هذه الليلة يعود السكير الى بيته متأخرا ، ويبعث بابنته « التى لم تتخط العاشرة الا منذ أشهر » الى الخمار ومعها زجاجة ليملأها من « اللى بيشربه أبويه » • ويضرب الرجل زوجته وابنته ضربا قاسيا ، فتهرع اليهم جارتهم « أم سيد » والشاب الذى يقطن غرفة السطح . ويقول لزوجته : « ياالله اتفضلى • انت لوحدك • خليه ينبصط سدنا لفندى وست أم سيد » وتقول « أم سيد » ـ وقد عرفناها فى سياق القصة مريبة السلوك يتحرز الناس المستقيمين من دخـولها بيوتهم ـ بحدة وغضب يخفيان فرحا وارتياحا : « ماتبتش فيه ماتبتش فيه • هو سراية عابدين ياختى • ولا يعنى راح ياكلوها الكلاب • قومى ياختى باتى عندى قومى » ومنذ هذه الليلة أخذ التغير يدب فى كيان الزوجة على نمط حياتها ، وفى جسمانها ، وفى تفكيرها •• وتدرجت بها أم سيد من غرفة السطوح الى حيث جلست على كرسى قديم من القش الى جانب منزل مهدم ليس فى دهليزه ســوى (كنبة) من الخشب بالية عليها مصباح مختنق الضوء ، وقطعة صغيرة من مرآة •• هنالك جلست ، ما يستر ثوبهـــا هزالها ، ولا تموه الأصباغ ما ارتسم على وجهها من هرم وألم » •

ومن هذه القصص الاجتماعية التى يجنى فيها الرجل على المرأة ويدفعها بغروره وبجهله الى السقوط ، قصة « بيت الطاعة » ـ من مجموعة سخرية الناى ـ ولعلها أول عمل قصصى فنى يعالج هذه المشكـــلة الاجتماعية التى لا تزال قائمة الى الآن •

ولا أذهب مذهب الاستاذ يحيى حقى فى قوله عن هذه القصة ومثيلاتها من قصص طاهر لاشـــين : « **وكان الكاتب وقع فريسة سهلة لارهاب الفكرة القائلة بأن الأدب مرآة للمجتمع ، ورسالتـــه ، فكلف نفسه عمدا أن يفرد قصة لعلاج كل عيب من عيوبنا الاجتماعية** ، فهذه قصة عن « بيت الطاعة » وقصة عن « تعدد الزوجات » وقصة عن « هدم الخمر لكيان الأسرة » وقصة عن « الزواج بالأجنبيات وجنايتـــه على الاولاد » وقصة عن « البخل » وأخرى عن « أولياء الله الزائفين وخطرهم » •• لذلك لم تسلم هذه القصص من الخطب المنبرية واللهجة الخطابية ونغمة الوعظ والارشاد ، كما لم تسلم من الاستطراد والزيادات التى لا طائل تحتها ، فأصابها هذا القصد الى العظة بشىء من التكلف » •

فلست أرى فكرة أن فكرة « الأدب مرآة للمجتمع ، ورسالته » ذات ارهاب ، وقد رأينا نهضتنـــا القصصية كلها تقوم عليها ، ولا أرى أن الكاتب وقع فريسة لها ، وقد يكون فعلا ـ كما قال الاســتاذ يحيى ـ فى بعض القصص ما يشبه الخطابة والوعظ ، ولكنه قليل جدا ، لا ينبغى أن يطغى ـ فى تقييم هـــذه القصص ـ على الاجادة الفنية والقدرة على أداء الرسالة (من خلال الأحداث والتجسيم والتصوير ، وهى الغاية التى يبلغها كل أديب عظيم • أما « الاستطرادات والزيادات التى لا طائل تحتها » فهى حقا منتشرة فى قصص لاشين ، سواء فى مجموعة « سخرية الناى » أو « يحكى أن » وان كان الاستاذ حقى قد ذكرها فى الكلام على « سخرية الناى » فقط • وقد أشرت اليها فى بعض ما تقدم •

وفي مجموعة « يحكى أن » قصة عن الريف عنوانها « حديث القرية » عدها الاستاذ « يحيى حقى » خير مثال لنضج موهبة طاهر لاشين ، وهى قصة جيدة تهدف الى تصوير حال القرية المصرية وما يعيش فيه أهلها من فقر وما هم عليه من جهل ، والى أن الطريق الى تخلصهم مما هم فيه هى أن يتسلحوا بالارادة والعمل ، وأن يشعروا بوجودهم ويصروا على تحقيق هذا الوجود ·

ولو ذهبنا مذهب الأستاذ حقى لقلنا انه أفرد هنا قصة لسوء حال الفلاح ، ولا شك أن الأستاذ عندما رأى جودة القصة لم يسعه الا أن يعطيها حقها من التقييم الصحيح ، اذ قال عن الكاتب فيها : « انه استطاع بمهارة فائقة واحساس مرهف ونغمة مكبوتة أن يقدم لنا فى قصة صغيرة جدا صورة كاملة لمعيشة الفلاحين المادية والعقلية والروحية لا أظن أنها تزول سريعا من النفس بعد القراءة » ·

يقول الراوى فى القصة انه ذهب مع صديق له الى قرية الصديق ، ومن أول الأمر يستولى الكاتب على ناصية موضوعه فيوجه الطبيعة مع شعور الأسى للفلاحين ، واذا كنا قد رأينا عيسى عبيد فى قصة « مأساة قروية » يدخل على القصة بمقدمة عن جمال الطبيعة فى الريف فنحن هنا نرى لاشين يقول : « ··· وثم لقينا نضرة وسرورا ، ولكن تلك النضرة التى تفتن ابن المدينة فى لا نهائية الريف ، وذلك السرور الذى يغمر كيانه ووجدانه حين يرى الطبيعة تتهلل له ابان ولى وجهه ، كانا مشوبين عندى بالمرثية للفـــلاحين أنصاف العرايا وهم مكبون على الارض يعملون فيها الفؤوس أو المناجل مكدودين يتصببون عرقا ·· » الى آخر ما وصفه من سوء حال القرية وبؤس أهلها ·

وهو وعيسى عبيد كتبا عن الريف وهما من أهل المدينة ، ولكن لاشين لم يورط نفسه فيما ورط **عيسى نفسه فيه من التسلل الى داخل نفوس القرويين والتعرض لدقائق فى البيئة الريفية لا يعرفها الا ابن القرية ، بل كتب من زاوية الزائر المشاهد المستمع ، ولم يعرض لداخل النفس وما يضطرب فيها من المشاعر الا بالنسبة اليه او الى الراوى** · ومما يذكر فى هذا الصدد أن هيكل فى « زينب » كتب عن الريف كتابة مختلفة عن هذين الكاتبين · حقا انه من أبناء القرية ، ولكنه من أبناء الملاك الكبار فيها ، لهذا كتب من زاوية ابن الأعيان الذى لا يشارك الكادحين آلامهم بعمق كما يشعرون بها ، يضاف الى هذا اتجاهه الرومانسى الذى وجهه الى كتابة « اللوحات » الكبيرة الواسعة عن جمال الريف دون أن يمزج ذلك بمشـــاعر الأبطال أو مجرى الوقائع ·

ولطاهر لاشين قصص أخرى غير هذه القصص التى يبث فيها ما يرمى اليه من الأغراض الاجتماعية ، قصص تغلب عليها الفكاهة ولا تكاد تجد فيها غير المتعة الفنية والجو المرح ، والكاتب مجبـول على هـذه الروح يبثها حتى فى قصصه ذات الأهداف · طبيعى اذن أن تسترعى انتباهه بعض المواقف أو الشخصيات التى يعرضها لطرافتها أو يعبر عن تفاعله المرح معها · منها قصة « الشيخ محمد اليامانى » ــ فى مجموعة يحكى أن ــ وهو دجال يدعى أنه من أهل الباطن ، وقد جاء الى الراوى يطلب منه أن يمد يد المساعدة الى جيوش أهل الباطن ·· وقال له الراوى فى النهاية وهو يعدد الأوصاف التى خلعها الدجال على نفسـه : « يا معالى وزير الأشراف سابقا ·· يا سعادة سفير الخلافة الأحمدية حالا ·· يا حضرة المحترم كاتم أسرار أهل الباطن الا من استثنى : الله يحنن عليك ·· »

وهناك نوع آخر تختفى فيه الفكاهة تماما ، اذ لا موضع لها فيه ، هو قصص تقوم على مآس مفجعة ، منها قصة « القدر » ــ فى مجموعة يحكى أن ــ وهى قصة شاب عنيت أمه بتربيته وتعليمه حتى تخرج وصار مدرسا مثقفا ، ثم يكشف أن أمه كانت تفرط فى عفافها لكى توفر له تلك التربية ··· ويصور الكاتب صراع الابن بين احتقار الأم والصفح عن زلتها القديمة ، وأخيرا ينتهى هذا الصراع بقوله لها وهى فى الاحتضار : « **أماه ·· أماه ·· ما بالك ·· ؟ لا شىء ·· انك امرأة ماجدة ، أماه ·· انك غالبت القـــدر القاسى فانقذتينا وتحطمت ·· أنت شريفة ·· كبيرة النفس يا أمى ·· قومى سامحينى ، واغفرى للقدر ··** »

وفكرة الغفران للمرأة البغى وتعليل خطيئتها تعليلا يعيد اليها اعتبارها واسناد المشاعر الانسانية اليها برغم سقوطها ، فكرة أجنبية دخيلة على جونا · هذا ولجو القصة (القدر) كله نرجح أنها مقتبسة أو على الأقل تأثر الكاتب فيها بقصة أجنبية · وثمة قصص أخرى نحس هذا الجو الأجنبى فيها ، منها فى مجموعة

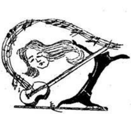
« سخرية الناى » قصة « الوطواط » على أنه يصرح فى قصة بهذه المجموعة عنوانها « الانفجار » ـ يصرح فى آخرها بهذه الملحوظة : « هذه القصة مقتبسة من قصة للروائى الروسى الكبير تشيكوف » •

وقصة **تشيكوف** المقتبس منها ، ترجمها **محمد السباعى** بعنوان « **زوبعة منزلية** » وهى ضمن مجموعة القصص التى جمعها يوسف السباعى من مترجمات والده ، ونشرها فى كتاب باسم « مائة قصة » • وقد سار لاشين مع تشيكوف خطوة خطوة فى القصة ، وان كان قد أعطاها جوا مصريا خالصا لا شائبة فيه ، ومن تغييره بها أنه جعل الأب البخيل الذى يقسو على ولده تاجرا فى خان الخليلى ، وهو فى قصة تشيكوف « مزارع بسيط » وقد ثار الابن على أبيه ثورة عنيفة كانفجار للمعاملة القاسية ، كان الابن الروسى طالبا فى موسكو ، يريد نقودا ليعود الى جامعته وليشترى بعض الملابس ، ريثما يتيسر له هناك أن يعاود اعطاء الدروس الخاصة ، أما الابن المصرى فهو يريد مصاريف المدرسة وملابس لائقة يظهر بها أمام زملائه فى المدرسة • ويلين الأب فى القصتين اذ تعود اليه عاطفة الأبوة فى النهاية ، حيث يقول الأب الروسى لابنه : « **وداعا يابنى ، النقود على مائدة الطعام**» ويقول الأب المصرى : «**تلاقى المصاريف وثمن الكسوة على الترابيزة المدورة** » •

وفى مجموعة « يحكى أن » : من القصص التى يشبه جوها جو القصص الغربية ، قصة « الشبح الماثل فى المرآة » وهى قصة طالب يقيم وحده فى غرفة بمنزل قديم ، ويسكن قبالته رجل غامض استرعى نظره ، وكان يقابله مصادفة فلا يعبأ الرجل به ، وازداد فضول الطالب نحو الرجل ، وتعمد أن يلقاه ويتحدث اليه ، وتحدث اليه مرة عن قصة فيلم رآه فى السينما تتضمن أن شابا ارتكب جريمة قتل أورثته الخبال حتى صار كلما نظر الى المرآة لم يبصر صورته بل يبصر خيال القتيل ، وذات يوم تقدم الى المرآة عمدا ، فلما ظهر له الشبح أطلق عليه مسدسة ، فلم يتحطم غير الزجاج ، وعلى اثر ذلك جن الفتى جنونا مطبقا •

ولحظ الطالب اهتمام الرجل الغامض بهذه القصة ولحظ كذلك ان شخصيته تبدلت بعد هذا الحديث ، فأصبح يتربص للقائه بعد أن كان يتجنبه ، ويعاود الحديث معه والمناقشة فى القصة •• والطالب يلحظ ما طرأ عليه من اضطراب وخبال ، حتى استيقظ ذات ليلة على طرق عنيف على باب غرفته ، فأطل من ثقب الباب فاذا هو يرى الرجل يدخل مسكنه وهو يهمهم كالمحموم ثم سمع صوتا عظيما لزجاج تهشم أعقبته صرخة هائلة ، فاستيقظ أهـــل المنزل وسارعو فى هلع يتساءلون ، واذا الرجـل قد حطم مرآته وقذف بنفسه من النافذة • وفى القصة تصوير وتحليل لنفسية المجرم عندما يستيقظ ضميره ، ويلاحقه الندم • وجو المنزل وغرفه وسكانه يشبه جو قصة « **المساكين** » **لمكسيم جوركى** » •

وقصة « الشاويش بغدادى » ـ فى مجموعة يحكى أن ـ تشبه قصة « الكلب الجنرال » لتشيكوف فى كل منهما الشرطى الذى يتقلب بين وجهة نظر وأخرى فى الحادث الذى يقع أمامه حسب ما تمليه عليه أغراضه • وفيها تصوير رائع لشخصية الشرطى المصرى فى ذلك الوقت •



قصة : فاروق منيب

زيارة



فجأة لم أستطع أن أتقدم خطوة واحدة . شلت قدماى . أصبحت كالأسير العاجز أمام مصيره . حتى أرتاح قلت لنفسى .. أنت نذل . لكن هذه الحيلة قديمة يعرفها المدربون على أساليب الخداع . اعتقد الناس أننى توقفت فى طريقى لأن المطر كان غزيرا وقاسيا . **لكن صلة الرحم هى التى كانت تسمرنى فى مكانى . ابن أمى . من سبقنى فى الميلاد هو الذى يلح على الآن . هل تجدى الضوضاء حولى فى انتزاعى من عالمى .** بئست بها من خانات فارغة على أن أملأها كل يوم . المعركة فى الخارج تطحننى . عندما وجهت بمرفأ الأمان سمعت صوتا يقول لى : هل هذا يرضى . حاولت أن أهرب، أن أموه .. لكن الحجج كلها انهارت . قال لى الطيف الحبيب :

ـ هل تتركنى كل هذه السنوات دون زيارة واحدة .

سكت وأنا أشعر بذنب ثقيل .
أعاد على الشكوى :

ـ أنا لا أعتب عليك .. أنت تعرف أنى لا اريد منك شيئا كبيرا ..

قلت :

ـ لا أستطيع تحمل زيارتك .. انها تتعبنى وتضنينى .. أمرض بعدها شهورا ..

ـ هذا كلام لا أصدقه ..

ـ أقسم لك بشرفى ..

ــ أعرف أنك تعانى فى سبيل الاحتفاظ بشرفك .. أريد قسما آخر .

ــ أقسم بحياتى ..

ــ انك تناضل لتعيش ..

ــ اذن بماذا أقسم لك ..

ــ ليس بيننا قسم .. أعرفك جيدا .. ألم نعش معا قبل أن تعرف أى شىء فى الوجود .. بل انى سبقتك الى الحياة .. ويكفى ذلك .

ــ وماذا أستطيع أن أقدم لك ..

ــ اذا أردتنى أن اتحدث اليك كما يتحدث الناس .. أريد غطاء للشتاء ..

وغاب الطيف عن خاطرى لحظات . انا اجلس فى مكان دافىء . مبسم الشيشة فى فمى ، وكوب الشاى يتصاعد منه البخار فى يدى . وعلى زجاج باب المقهى تتناثر حبات المطر . عاودت مواجهة نفسى .. أنت نذل . لكنه عاد وقال لى :

ــ لا أريد أن تلوم نفسك .. فقط تصرف ببساطة .

ــ كيف ؟

ــ تعال لزيارتى .

ــ لا أستطيع الآن .

ــ وماذا يشغلك ؟

ــ ذاهب الى العمل .

ــ وفى غير وقت العمل ..

ــ فى البيت ..

ــ منذ متى عرفت زوجتك ..

ــ بعد أن عرفتك طبعا ..

ــ طيب لماذا تنسانى .. ؟

ــ لم أنسك أبدا .

ــ وماذا تفيدنى العواطف .. والبكاء ؟ !

وتذكرت أول مرة زرته فيها . لا داعى لذكر المكان أو الزمان . كلهم قابلونى بترحيب . كانوا يضحكون .. فاذا اقتربت منهم .. يصمتون .. لم .. لا أحد يعرف .. ثم يعودون الى الضحك من جديد . وآخرون ينزوون فى الأركان . يشبهون القردة الذكية منكودة الحظ . تحسست رأسه . ما زالت به العلامة القديمة .. الكى الدائرى الذى أعرفه به . سكت وهو ينظر الى فى حنان . قلت له :

ــ هل تعرفنى ؟

ــ طبعا .

ــ طيب من أنا ؟ .

ــ أنت فريد .

وزعوا عليهم الأكل . كان اليوم جمعة . الزوار عديدون احضروا معهم الأكل الكثير . ونحن صغيران فى البيت كنا ننام على سرير واحد .. نأكل من طبق واحد .. نصطاد من نهر واحد . لا أستطيع أن أبوح بشىء من الذكريات . الضوضاء تحاول أن تطمس النبع العميق . تريد أن تمتص رحيق مائه العذب . قطرات المطر ترطب جفاف الزعيق السخيف . ليتها تمطر دواما حتى يتوقفوا ليفكروا .. لكنها تمطر .. فيتجمعوا ليثرثروا . وهو يطل على من المستشفى فى خفر . كلمات الاخاء فى شفتيه ، وأصداء الجلبة فى أذنى . لابد أن أتوقف .

قال لى عامل المقهى :

ــ احضر حجرا آخر ؟ .

قلت :

ــ هات .

غاب ثم عاد :
ــ احضر نارا جديدة ؟
ــ هات .
المقاعد الطويلة التى كانوا يجلسون عليها تتجسد فى خيالى . مرضى طيبون . لا يعترضون على شىء . ليست لهم مطالب يدافعون عنها . لا يشعرون بالزمن الذى يمضى . لا يعرفون البرقيات وأساليب الاحتجاج التى يعرفها المرضى الآخرون . عاد الى صديق الرحم :

ــ أنت تتفلسف .. تعال .. وسوف تدرك الواقع الصحيح .
ــ لا أستطيع ..
ــ تحب الهروب .. أليس كذلك ؟
ــ نعم ..
ــ هل تهرب من أخيك ؟ .
ــ أخى فى عينى ..
ــ كلام فارغ .. شبعت منه .. اذا كنت جادا تعال لزيارتى .. أنا أشتاق اليك .. هل نسيت أيام الطفولة ؟

ــ يستحيل .
ــ اذن لماذا تتراجع ؟
ــ اخاف المستشفى ..
ــ نحن لا نخيف أحدا .. قوم مسالمون .. اننا نتوه فى عالمنا ..
ــ أفكر فى خروجك ..
ــ هذه تكاليف عليك ..
ــ لا يهم ..
ــ وأيضا .. اعصابك لا تتحمل .. ان لى متاعبى الخاصة ..
ــ سوف أقاوم ..
ــ أوصيك بأمك وزوجتك ..
ــ وانت .. ؟

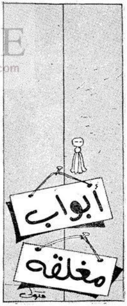


ــ لا أطلب منك غير المودة ..
الضوضاء ما تزال تصم الأذن . والشفاه تهتز بالكلمات . لا أدرى ماذا افعل . صديق الرحم يطل على يعاتبنى ، والعمل ينتظرنى ، وشىء كالموت بدا يزحف على صدرى .

عقب انطفاء نار الثورة بالسودان عمد التاجران الشريكان على تصفية تجارتهما فورا والعودة الى القاهرة يحملان مالا وفيرا كسباه كما يكسب أكثر تجار الحروب ومقتنصو الفرص .

تشاء الأقدار ان تجمع بين ناصيف الكسرواني ، الفتى اللبناني المغامر ، وبين طنوس الحلبي الذى لا يقل عنــه فى طموحه الى الكسب ، وان توثق بينهما عروة التعارف والتفاهم والاشتراك فى عمل تجارى بدأ متواضعا لتواضع رأسماليهما ، وما لبثا ان تدرجا فيه خطوة بعد خطوة ، فاتسعت الدكان ، وقد كانت ضيقة ، وتعددت أصناف البضاعة وكثرت أنواعها . وصار يعاونهما فى البيع أكثر من عشرة عمال يبدأون فى الصباح الباكر ولا ينصرفون منه الا بعد ساعة من صلاة العشاء ، أما الشريكان فقد كانا يقضيان فى متجرهما الواسع أكثر من ســـاعة بعد انصراف العمال فى تدبير الادارة وشئونها ، ولما نشبت الثورة قل الوارد لانقطاع المواصلات ، وزاد الطلب ، وتضاعفت الأسعار مرات ، وتشاء الأقدار أيضا أن تجعـــل أخـــلاق الشريكين متقاربة ومزاجهما واحدا ، وأن حب المال وجمعه

ولذة المغامرة ونشــوتها أغرقاهما وصرفا نفسيهما عن لذات الحياة الا لذة واحدة لم يكن فى وسعهما تركها لوفرة العرض بانحلال الأخلاق أبان الحروب . ودوافع



بقلم : حبيب الزحلاوى

الشباب ، ومن العجيب أنه لم يشجر بين الشريكين أى شجار طوال مدة المشاركة الطويلة ولم يختلفا قط فى حساب مالى أو تصريف أمر من أمور التجارة وادارتها وما تنازعا أبدا على امرأة أو استأثرا بواحدة من تينك الكثيرات الراغبات فى سد الرمق لا الجائعات الى الشهوة .

تأبى نفس المغامر القعود عن العمل بالغـــة ما بلغت ثروته من الضخامة . ولأول مرة فى تاريخ حياة هذين الشريكين بعد عودتهما من السودان ، رأيا أن من المتحتم عليهما فصم عروة الشركة وفضها لأن أحدهما اختار ولوج باب الزراعة والاتجار بحاصلات الأرض ، بينما الآخر رغب فى امتلاك الأرض وبناء المساكن وتأجيرها ، وبرغم اتجاههما المتعارض هذا بقيا صديقين ودودين يأويان الى الشقة الصغيرة التى لا يصدق عليها أنها تضم غنيين فى مقدمة أغنياء الحرب لبساطة أثاثها وايكال خدمتها الى سيدة عجوز لا ترهقها خدمة السيدين القانعين ، الحريصين على ســاعات النوم المبكر ، والاكتفاء بما تقدمه تلك العجوز المقترة من طعام .

شكى ناصيف الى طنوس من الوحـدة والأرق ، وضيق الصدر ، فعرف هذا بواعثها ، فدعاه الى الترقية ، وهو ميسور يحب انفـاق المال ، أصغى هذا الى نصح صديقه ، ولكنه ما لبث أن عاد اليه يشكو اليه تقززا من الترفيه العمومى الذى يمثل الحيوانيـة البحت ، ويرى أن لا محيد له بل لا مفر له ولصديقه من الزواج .

ناصيف : الزواج ! وأنى لنا الاقدام عليه قبل التثبت من حمل المسئولية ! .

طنوس : نحن ، أعنى أنا وأنت أغنياء من نعمة الله علينا .. وهل لمثلنا أن يفكر بالمسئولية ! .

ناصيف : (وهو يضحك) .. هل نسيت حياتنـــا فى السودان وكيف كنا نغوص فى حمآت من الوحل ! .

طنوس : شأننا فى هذا شأن كل الشباب ، والزواج هو الحد بين الجهل والتعقل .

ناصيف : صحيح ما تقول ، ولـكن الا تذكر المرات التى عالجنا بهـا الأطباء وتلك التحاليل التى أجروها لنا ، وحبوب الزرنيخ التى كنا نبلع مقادير منها ! أن تذكرت ذلك فاذكر إنها هى المسئولية التى كلمتك عنها فظننت أنها مسئولية انفاق المال ، أما المشكلة التى أعنيها يا أخى ، وهى التى تشغل بالى ، هو المال الذى ربحته معك بعرق الجبين لمن يكون مصيره ؟ .

طنوس : أوضح لى رأيك لأنى لم أفهمه جيدا .

ناصيف : أجب على سؤالى يا طنوس ، اذا تزوجت وكنت عقيما فمن هو الذى سيستولى على مالك من بعدك ؟ أنت مسئول عن مالك أكثر مما انت مسئول عمن ســتكون زوجتك التى سوف تعذبها بمرضك .

طنوس : لقد بلبلت ذهنى بخواطرك هــذه ، وأشغلت بالى فيما سيكون أو سوف يكون ، وأظلمت المستقبل فى عينى ، وأنى برغم توجسك هذا سأتزوج من فتاة من بنات قومى وسأكون سعيد الحظ اذا لقيتها من بنات ضيعتى ، أما البنين والبنات فهم من عطايا الله ، أما المال فليكن من بعدى لمن يكون .

ناصيف : أهنئك يا أخى على هذا الاستسلام المريع والاتكال الذى يفوق الاهمال ، أما أنا فبرغم شعورى مثلك بالوحدة والأرق وضيق الصدر فانى لن أتزوج الا بعد أن يمتلىء أحشاء امرأة منى وتلد ولدا سليما معافا يكون ولى عهدى وعندها أعقد قرانى عليها .

طنوس : أنت مجنون يا ناصيف ولا شك !! بالله عليك قل لى .. أى فتاة تلك ، فقيرة أو عانس فاتها الرحل أو سيبة أو أرمل لم تبلغ سن اليأس ، أى مخلوقة شرقية ترضى أن تحبل وتلد ثم يعقد عليك زواجها ؟ عد الى صوابك ولا تكن غير معقول.

ناصيف : هذا ما عزمت عليه ... سأحاول يا طنوس .. فان بئت بالفشل فانى بعده أعود الى (جوزفين) أعرض عليها اقتراحى هذا .

طنوس : أثبت لى الآن جنونك المطبق ... أنت تعود الى جوزفين تعرض عليها قبول اقتراحك ؟ هه . كيف وأنت ناصيف الكسروانى الذى ملأت عيني خرجين كبيرين بالليرات الانجليزية الذهب وأحطتها بنشارة الخشب حتى لا يسمع لها وسوسة ، وتملك مئات الأفدنة فى ضواحى المدينة تبنيها دورا عصرية سوف تدر عليك المئات من الجنيهات فى هلة كل شهر . ولماذا لا تطرق أرفع باب من أبواب الاسر ، كما سأفعل أنا ، فتبنى بفتاة عذراء وتترك الباقى من الأمور على الله .

ناصيف : وصـــــلنا الى مفترق الطريق وأصبح من المستحيل على المشى معك فى درب واحـــد .

* * *

(جوزفين) فتاة فى نحو الخامسة والعشرين من العمر ، أول ما يطالعنا فيها نظرة جذابة من عينين بنيتين كحلاوين وقامة مـديدة متناسقة يزينها عنق أتلع وخدين أسيلين وشعر بنى متموج ، هـــذا الجمال الفاتن والشباب النضر مثواه بيت من بيوت الترفيه السرية تديره امرأة فرنسية قهرمانة فى تجارة الرقيق الأبيض ، تحسن اختيـــار نزيلات دارها كما تعرف زوارها الذين يقدرون الجمال ولا يضيرهم بذل المال فى سبيله ، والقهرمانة هذه يصفها ناصيف ويقول بالغ ما بلغ حبها كسب المال عن طريقة الخناسة فان فى قرارة نفسها بقايا نسمة من روح الانسانية مبعثها ألم كامن ورحمة بنفسها بالفتيات البائسات أضرابها ، وتذكارات الماضى الذى عبرت طريقه قبل أن تمسى قهرمانة معروفة .

* * *

دلف ناصيف الكسروانى فى خطوة متثاقلة نحو مدام دى فرانس فقدم لها ، بعد أن قبل يدها ، باقة من البنفسج لقفتها فشمتها فشكرت (مسيو ناسف) على هديته الذكية وقبل أن تدعوه للجلوس دكع ناصيف على ركبتيه كما لو كان يمثل ، ورفع اليها كفيه ضارعا راجيا استجابة طلبه .

حسن الموقف التمثيلى هذا فى عينى القهرمانة ، وربما يكون قد أثار فى نفسها بعض ذكريات الشباب ونزواته ، وقد حنت الى ذلك الوضع والى صوت الضراعة الخفيض فقالت له بصوت لين ونبرة ناعمة ما الذى تريده منى يا حبيبى .

نهض ناصيف الكسروانى وجلس الى جانب مدام دى فرانس يطلب منها بصوت خفيض كالهامس اقناع الآنسة جوزفين بقبولها له زوجا .

ذهلت القهرمانة بهـــذا الطلب المفاجىء ولما استردت جأشها سألته هل أنت مجد فيما تطلب أو تريدها خليلة أو محظية ؟ .

ـ معاذ الله تكون لى خليلة بل أريدها زوجة شرعية .. هذا ان قبلت منى شرطا واحدا .. وأنا أرجو منك يا مدام مساعدتك اياى كى تقبل شرطى .

وهمس فى أذنها ببضع كلمات اضحكتها . وأردف يقول بصوت عادى أنه مستعد الساعة على تحقيق الأمر وهو فى ذات الوقت يقدر الخسارة المادية التى ستلحق بها من جراء أخذ أجمل فتاة من جميلات فتياتها المليحات ورمى اليها بكيس مملوء بالجنيهات الذهب .

أخذت الكيس فرازته مرات بكفها وقالت ، المسألة فيما أرى « يا مسيو ناسف » هى قبول الآنسة جوزفين طلبك فهل توافقنى على ترك الأمر أدبره بتأن وروية ؟ .

من الأفضل يا مدام استدعاء الآنسة جوزفين ومفاجأتها بالعرض ثم نعقب على العرض بالشرط ، وسيكون أساسيا بالنسبة لى ولها ، وأحسب أنها سوف تقدره وتقبله لأنها امرأة واعية .

حضرت جوزفين فسمعت العرض من فم الرجل الذى عرفته من قبل وعرفته جيدا فلم تتمالك من ذرف الدموع ومن النهوض من مجلسها لتركع عند ركبتى هذا الرجل الكريم الذى يطلب انقاذها مما بها وتنكفىء على يده تقبلها وتقول وهى متلجلجة بين البكاء والابتسام « سيكون غضب الله وغضب الوالدين قد حلا بى ان كنت لا أحمل منك خلال الشهور الأولى ، أو يكون قد كتب على الشقاء والذل والألم ما دمت آوى هذا البيت ، ولكن الله سيستجيب صلاتى ويحقق مبتغاك ، وسأكون زوجة وفية صادقة الوفاء » وفى الحال نزعت زينة شعرها ورمت بالوردة الحمراء التى كانت تحليه وراحت الى غرفتها تنضو ثياب العمل لتعود بشعرها المضفور غير المصفف وفى لون خديها الشمعى بغير ما بياض أو حمار وبشفتيها الدقيقتين كأنهما ثمرة الفراولة وتقول للكهرمانة : سيدتى ليس بالقليل تخليصك اياى من قبضة النخاسين تجار الرقيق وقد اختطفونى من أم فقيرة ، كما ليس بالهين على نفسى ايواءك اياى فى بيتك تطعمين جائعا وتكسين عريانة وتدفعين بى الى رجال جياع عطاش لا يشبعون ولا يرتوون ، وانه لمنة منك اطلاق سراحى وفك اسارى ، وتقبلك منى هذا المبلغ الزهيد وقد ادخرته من عطايا المتصدقين وأصحاب الجود ، ورمت لها دفتر التوفير فى صندوق البريد .

بكت مدام دى فرانس لما رأت بنصر جوزفين يزينه خاتم الخطوبة الذى هيأه مسيو ناصيف من قبل ، وضحكت وهى تشرق بدمعها حين دعاها الخطيب الى الباسه خاتم الخطوبة وأبت الا فتح زجاجة شمبانيا لتشرب نخب الخطيبين .

درجت السيارة تحمل جوزفين وخطيبها الى فندق شبرد ، وقد رغبت جوزفين الى خطيبها أن يعاونها على عزلة رياضية تطهر روحها من دنس الماضى وتنقيها من خطاياها بالاعتراف العام الى الله والكنيسة .

سر ناصيف الكسروانى بروح خطيبته تعود الى بيعة الله فوعدها بأن سيحذو حذوها فى الرياضة الروحية والاعتراف الى الله وطلب غفرانه وتزوده بروحه وجسده .

كانت جوزفين تجهل مركز رجلها المالى ومكانته فى المجتمع ، وأنى لها أن تعرف ؟ بل كان أملها الوحيد هو أن يتحقق وتصبح زوجة حليلة متى أنجبت ، وكيف لقابعة مثلها فى فندق شبرد أن تخمن وهى لا تقابل أحدا من الناس ولا تعرف أحدا منهم ، حتى أن معالم القاهرة لا تعرف منها سوى النيل فى الجزيرة والأشجار الباسقة فى طريق الهرم ، ولا تسمع من الأحاديث سوى الحديث

الحلو الذى لا يمل من خطيبها ، والد الجنين الرابض فى أحشائها . وهما فى عربته الخاصة التى يجرها جوادان مطهمان فى أمسيات كل يوم ؟ وكل ما تعرف أنها تعيش فى النعمة والرغد ، فى كنف رجل يحبها ويدللها ويخاف عليها . ولكن بعض الحقيقة قد بدت لها يوم نقلت من مستشفى الولادة تحتضن وليدها الى الدارة التى شـيدت خصيصا لها ، وأن الهدية التى قدمها زوجها لها من حجة الدار وقد كتبهـا باسمها ، وعقد من البرلنت الثمين يزين عنقها ، ووعد بوفاة العهد الذى تعهد لها به يوم انتشلها من منزل مدام دى فرانس .

...ـد أسابيع استردت النفسـاء قواها ، وفى ذات اليوم الذى عمد فيه البطريرك ورجال ...ـوس الطفل ، وبعـد الانتهاء من مسحه بالزيت المقدس كلل غبطة البطريرك ورجال أكليروسه عبد الله ناصيف الكسروانى على عبدة الله جوزفين بيرانشتين بشهادة ذات عرابى الطفل أى شبيه الوليد وقد تسجل قران الوالدين ومعمودية الوليد فى ساعة واحدة فى سجلات البطريركية .

كان طنوس الحلبى هو الوحيـد بين أبناء الجالية المتمصرة يعرف خبيئة نفس شريكه السابق وأسرارها وعزمه على الزواج من جوزفين بائعـة الهوى ، كما كان فى ذات الوقت هو الدلال المتطوع والمذياع ينشر خبر شريكه ناصيف فى أوساط الجاليـة خطوبة شريكه ناصيف وفى أوسـاط الأسر وبين الطلمة والمتطفلين الذين يعيشون على أحـداث الناس ، من فتاة من نبيلات الأسر النمسوية ، وكان لا ينفك من ترديد ذكر شريكه السابق والاشادة بنبل خلق خطيبته وكان قصده من ذلك اسكات ألسنة الأسر التى كانت ردت عروضه السخيفة ولاكتها وتشدقت بها وتقول عنه أنه لم يكن يحفل بكرامة العائلات وعادات القوم وترميه من جرائها بألسنة حداد ، ومن المعلوم الذى لا جدال فيه أن حكاية ، أى حكاية يحكيها طنوس الحلبى المزارع الكبير صاحب آلاف الأفدنة كفيلة بالانتشار والذيوع وباخراس ألسنة المتشدقين وكم أفواه الثرثارين والثرثارات من النساء الحاسدات والمتحسرات على فوات تلك الفرصة السعيدة . يضاف الى بر الشريك بشريكه ، ومكانة ناصيف الكسروانى المالية وامتلاكه أحياء برمتها ومنازل عدة منها ما تم بناؤها ومنها فى دور البناء ومنها فى دور التأسيس ، ثم التفاف المرتزقة حوله وتردد الناس اليه وترحيب الحاكمين به ، وهذا أيضا يكفى لكتم كل فم من أفواه من تقوم حياتهم على الخوض فى أعراض الناس ومصائبها ، فلا عجب تسكت تلك الألسنة لتلهج بخلائق الكونت دى كسراوان ، وهى رتبـة سـامية أنعم عليـه بهـا قداسة البابا بروما وهى لا تمنح عادة الا للأسر المحافظة على قوانين الكنيسـة وقدسيتها ، والرتبة هذه تسرى بالتبعية على السيدة الزوجة وقد أصبحت الكونتيس جوزفين دى كسروان .

حن الشريك الى لقاء شريكه ورأى ان الواجب يقضى بتهنئته بالنجاح فى زواجه . وفى اطمئنانه على مصير ثروته بعد انجاب ولى عهده وبالحصول على رتبة سامية مقدسة من قداسة بابا روما وكيل السيد المسيح على الأرض ونائب بطرس الرسول صخرة الكنيسـة . ولكنه تردد فى القيام بهذه الزيارة الواجبة ، وسرعان ما تحول تردده الى اقدام وانسرح أقدامه على البساطة فاتخذ منها سبيلا الى طرق باب شريكه السابق الذى فارقه منذ عقد خطوبته على جوزفين التائبة وحدد لتلك الزيارة موعدا قبل العشاء ، فلما التقيا قال له ناصيف ببساطة تنم عن رفع الكلفة وصفاء الود ، جئت لاهنىء جوزفين وزوجها . وأهنىء زوجها بها والوليد بوالديه و ... و ... و ... ولكن ناصيف قد أسكته باشارة

من يده وابتسامة ترحيب به وقال لقد جئت يا طنوس فى وقت تهفو فيه نفسى الى كاس من العرق نشربه سويا على صحة الشريكين .

ـ صحة الشريكين ! ما هذا الكلام يا ناصيف ، بل نشربه على صحة جوزفين وابنها وعلى صحتك أنت .

ـ لا .. لا .. يا طنوس ، أرجو منك المحافظة على الرتبة المقدسة ، وأنا لا أسمح لك ولا لسواك بندائى باسمى مجردا و ...

دخلت جوزفين بقدها الفارع وثغرها الباسم تحمل طفلها ترحب بالضيف الذى تعرفه شريكا لزوجها وصديقا من عداد أصدقائها وتريه وجه الطفل .

وشم (١) ناصيف الكسروانى اشارة الصليب على صدره وعلى وجه الطفل ولم يعر كلام شريكه السابق اهتماما وقد اخرج من جيبه علبة من المخمل فيها سلسلة وصليب من الذهب رغب الى جوزفين الباسها للطفل كما رجا من السيد الكونت أن يسمح له بتقديم هدية الزواج الذى لم يدعى الى حضوره الى السيدة الكونتيسة وهو يعتب عليهما لعدم اختياره شبينا (٢) لهما فى الزواج .

الكونت ـ أترك العتاب جانبا وتعالى نجلس ونشرب ونمز .

دب دبيب الخمرة فانطلق اللسان فقال ناصيف لشريكه بلهجة الرجل السائل المجد « الا تذكر يا كونت حكاية الزربول المعلق على شجرة التوت .

طنوس ـ دع الهزار جانبا لأن حكاية الزرابيل كانت فى الجبل اما أنا وانت فقد عشنا سنين فى السودان وها نحن الآن فى القاهرة عاصمة مصر أم الدنيا .

ناصيف ـ رجائى منك ان تنادينى بلقبى وبالرتبة التى شرفنى بها أفندينا ، الم تقرأ الخبر منشورا بالمقطم ؟ .

طنوس ـ انا لا أقرأ جريدة الانجليز وعلى كل حال أقول لك مبروك وألف مبروك يا سعادة الباشا ونهض ليعانق شريكه ، فرده هذا برفق وعنجهية وقال بتؤدة ورزانة ، الآن فقط يسمح الباشا لسعادة الكونت بتقبيله وتهنئته بالرتبة بشرط أن لا ينسى الزرابيل والتواسيم المعلقة على التوتة (٣) .

ضحك الصديقان وقهقها طويلا فى حين أن الكونتيس كانت تشاركهما الضحك وهى لم تفهم كلمة من حوارهما وتقبض وجيهيهما وعبوستهما ثم انفجارهما بالضحك والقهقهة ونهضت من أريكتها تدعوهما الى تناول طعام العشاء ، وعلى مائدة الطعام استأنف الصديقان الحديث باللغة الفرنسية التى تعرفها الكونتيس ، ومن حديثهما هذا أدركت أن ثروة زوجها تقدر بحى واسع من أحياء القاهرة فيه عشرات الدور ذات الطوابق المتعددة وأن ثروة رفيقه تبلغ عشرة آلاف من الفدادين الخصبة فى صعيد مصر فابتسمت ابتسامة الرضا والاطمئنان ونهضت تستأذن الصديقين انصرافها الى النوم .

طنوس ـ تسألنى يا أخى لم لم أتزوج حتى اليوم ، وأنا أسأل ما قيمة المال اذا لم يعد على

---

(١) وشم ـ تعبير كنسى خاص برفع اليد الى الجبين والكتفين والصدر ترسم المسيح المصلوب .
(٢) الاشبين ـ شاهد الزواج الكنسى .
(٣) الزربول ـ حذاء يلبسه سكان الجبال والتاسومة اسم للخف فى تعبير أهالى حلب .



مالك بالسعادة ؟ اقسم لك يا أخى بأنى مستعد الآن على التنازل عن نصف ثروتى للقاء رضى الفتاة التى أحبها وأريدها زوجة لى ولـكنها رفضتنى ورفضت مالى وقالت لى بجرأة نادرة وصراحة صادقة موجعة انها تفضل الزواج من شـاب فقير يكبرها قليلا على الزواج من كهل مثلى دلف أو كاد يدلف على الخمسين وترانى من جراء ذلك فى كدر ونغص وتعاسة والغريب فى أمر هذه الفتاة أن والدها هو احد صغار المحاسبين يكاد راتبه لا يكفى نفقات أسرته وهى الزوجة والزوج والبنت الوحيدة المدللة .

عرف ناصيف أن عمر الفتاة يبلغ النضج التام وأنه من العسير على الانسان اقناع فتاة فى الخامسة والعشرين بالتحول عن خيال الشباب وطموحه الى السعادة فى الزواج من فارس احلامها ، وقد عز عليه أن يرى صديق شبابه يتعـذب وشريك غناه يتوجع ويئن من ألم الرفض الذى يجرح الكرامة ... فطمأنه ووعده بالسعى فى معالجة الموضوع .

ليس من اليسير معرفة ماذا دار من حـديث بين الكونتيس جوزفين وبين الآنسة ايفلين خطيبة الباشا طنوس العتيدة ، أنما عرف ناصيف من زوجته الكونتيس أن الفتاة قبلت الزواج ورضيت بهذا الطالب الذى طالما ردت طلبه ، كما عرفت ان ام الفتاة وابيها قد وافقا على هذا الطلب السعيد وفرحا به أشـــد الفرح .

ولم يكن والد ايفلين واثقا من صدق رضا ابنته عن هذا الزواج ولكنه عزا قبولها المفاجأ وتحولها من الرفض المطلق الى الاستسلام ، لقد عزاه الى براعة الكونتيس وقدرتها على التأثير والاقناع كما عزاه الى غريزة المرأة فى التقلب والتلون .

كانت فرحة والدة ايفلين فرحة مزدوجة ، الأولى لانهـا سوف تكون حماة طنوس باشا الحلبى أكبر غنى مزارع فى الجالية وثانيـا لانفراج الكرب عن صدرها خصوصا وقد قارب قطار المتأخرات فى الزواج يجرف ابنتها فى ركابه ، ولما انفردت الأم بابنتها أخذت تحدثها عن الغنى والفقر ، والسعادة والشقاء ، وعن الظهور والخمول وعن أشياء كثيرة سوف تنقلها من حال الى ضده أما الفتاة فقد كانت تصـغى الى أمهـا وقالت أنها طرحت بمستقبلها الى بحر عجاج « بسيانية » واستسلام وتركت أمرها « للبخت والنصيب » .

* * *

سر الكونت ناصيف بنجـاح زوجته فى اقناع ايفلين ، وطار الباشـا طنوس من الفرح عندما زف اليه شريكه تلك البشرى التى أخرجته عن الاتزان ، وقد دفعه فرحه الأهوج الى الطلب من صديقه الذهاب معه الليلة التى بيت ايفلين يلبسها بيـــده خاتم الخطوبة ، وأبى أن يسمع ما قاله صديقه له عن أصول اللياقة وقواعد الاتيكيت وما يؤخـــذ من تدابير فى مثل هذا الظرف ، ولكن أنى للملهوف يسمع وأن يتدبر بوعى وتعقل ؟ .

كانت حفلة زواج الباشا طنوس الحلبى حديث الناس وقد تكلموا عن الكرم والبذخ ، وعن حب أبناء الجالية وسيداتها للظهور ، وعن السرور الطافى على وجه العريس دون العروس ، وعن حســد السيدات والفتيات للعروس التى واتاها الغنى والسعادة والنعيم ، وتندروا بما طاب لهم التندر فى الحكم على مستقبل العروسين .

... طاف العروس بعريسه مصايف أوروبا ومشاتيها ، وتنقلا من عاصمة الى عاصمة فى أوروبا وأمريكا وآسيا وقد عادا بعد ذلك المطاف يحملان أملا سعيدا خبيئا ، فى صميم قلب العريس وفى أحشاء من ستسعد قريبا بالأمومة ، وقد ولدت ولدها البكر ثم الثانى والثالث .

لم تخب نار حب الباشا لزوجته ، انما الذى غاض الابتسام فى وجهه وفى نفسه وهو ذلك المرح والفرح وكثيرا ما كان يراه الناس يتباعد عنهم يؤثر الاشراف بنفسه على أراضيه وزراعاته الشاسعة فى وسط الصعيد ليبتعد عن البيت .

لم يكن أحد يعرف سببا لانقباض صدر الباشا وانكماشه وقتله أغلب أوقاته فى مزارعه حتى ان حماه وحماته وايضا صديقه الكونت وزوجته لم يكونوا يعرفوا شيئا عنه ولا هو كان يشكو ، انما كان من الملاحظ عليه أنه يتعمد المرح والكلام ويموه حزنه الدفين بالسكوت واللياذ بالريف ، قد يكون حزن النفس هو السبب الذى عجل فى تقويض ذلك البناء الجسمانى المتين ، وهد تلك القوة القوية ، وعجل فى انتقال ذلك السعيد بالمال ، التعس الهموم بغير أسباب المال الى العالم الفانى الذى يتساوى فيه الغنى والفقير بعد حياة زوجية دامت حوالى عشرين سنة لم يتساو فيها التكافؤ النسبى .

***

قويت صلة جوزفين بايفلين بعد ترملهما ثم توثقت وزادت ارتباطا بعد زواج بنين وبنات هذه وتلك وقد صارتا بحكم الشيخوخة محتاجتين الى الثرثرة بالكلام والافضاء عن النفس ، أى كلام يسدان به ثغرة الوحدة .

كانت جوزفين تعيد على مسمع من صديقتها ذكريات ماضى زواجها من الكونت ، ذلك الرجل الكريم الذى أشبع روحها حبا ووفاء وسعادة وجعلها أما لبضع من البنين والبنات تربوا جميعا على حب الوالدين وحب الحرية ، وحب الاعتماد على النفس ، وهم ينعمون الآن بحب زوجاتهم وأزواجهن وأولادهم ، ولم يختلفوا على اقتسام الارث كما حدده والدهم فى وصيته ، ولا اعتدى أخ على نصيب اخته ، ولا طمع الكبير بحق الصغير وتقول أنهم يجتمعون حول مائدتها ظهر كل يوم أحد مع أحفادها يشربون ويأكلون ويثرثرون ويلعبون ، ويشبعها كل واحد وواحدة منهم حبا ورعاية ودعاء ، أن يوم الأحد عندى يا عزيزتى ايفا ، يوم عيد يتجدد فى كل أسبوع ، ومن فضل الله على أنى لم أسمع من بناتى شكاية واحدة من أزواجهن ولا من كنائنى اى ملاحظة على تصرفات أولادى غير مرضية نحوهن ، ولكن الخنانيص صغارا وكبارا يتألبون على جميعا فى طلب واحد كأنهم مجمعون عليه وهو طلب لا يمكن قبوله وكيف لى يا عزيزتى ايفا أن أقضى يوما بأكمله عند كل واحد وواحدة من أولادى وبناتى فيضيع الاسبوع بأكمله ، ويقفل البيت ، الذى لا أريد أن يقفل أبدا وهو بيت زوجى الكونت دى كسروان ، ولا أعود أفرغ الى رعاية الفقيرات من بنات طائفتنا المحتاجات الى رعايتى ومساعدتى لهن فى تجهيزهن حين يتزوجن .

ايفلين : تعنين البنات اليتيمات الفقيرات اللواتى يتعلمن بمدرسة القديسة تيريز على نفقتك ؟ .

جوزفين : نفقتى أنا ! أنى لى مالا أنفقه سوى المال الذى أعطانيه المرحوم زوجى ! اسمعى يا ايفلين حكاية هـــذا المـال : رغبت الى المرحوم زوجى أعطانى عشرة جنيهات فى الشهر أنفقهـا دون أن يسألنى عن كيفية انفاقها وقد تكرم رحمه الله فمنحنى الجنيهات العشر ، وسرعان ما وقف على حقيقة أمرى فاذا به رحمه الله يعاتبنى على عدم اشراكى اياه فى عمل الخير الذى كنت أظنه سريا ، فصار يعطينى عشرين بدلا من عشرة ، ويشترك معى بعشرين أخرى كنت أنفقهـــا كلها على اليتيمات والفقيرات ، أن الفقر يا عزيزتى ايفلين عدو ظالم منه ينبثق المرض ، وعنه تتولد الشرور ، لقد كنت فقيرة يا عزيزتى وعرفت المرض وغمرنى الشر ، فلما أفاء الله على بنعمة النجاة من الجوع وعقابيله ، وظللنى بظل انسان كريم غنى وتزوجنى ، عدت فى تفكيرى ، أول ما عدت ، الى الوجيعة التى لم يندمل جرحها ولن يندمل ما دام هناك فقيرات يتيمات جائعات عطشى الى غوث ومعين ، وما دامت حصتى من الارث الذى خصنى به المرحوم زوجى تكفى للانفاق على محاربة الجوع والفقر والمرض والجهل وكل ما تجر وراءها من شرور ، فانى سأداوم على اتيانها الى النهاية .

ايفلين : سمعت فيما سمعت منك أنك تبالغين فى الاشادة بالمرحوم زوجك وتكررين فى انزال الرحمة عليه ، فى حين أنه كان من عمر زوجى وأنه لما بنى بك كان فى سن الكهولة وكنت أنت فى نضارة الشباب وأنك ولابد ، كنت تطمعين فى زوج يكبرك قليلا ، ولا يكون حاله كحال زوجـــك وزوجى وقـــد تركانا أرملتين فى نحـــو الخمسين من عمرينا .

جوزفين : اسكتى يا ايفا ... لا تنكرى نعمـــة الله عليك . لقد كنت فيما أعلم فى حال من الفقر كحالى وقد كنت فى مستهل صـبـاك عرضة للخطيئة والشر والمرض والذل وقد اعترفت لى بذلك ، كما تذكرين ، ألا يجـــدر بى ، أليس من الواجب علينا ان نستنزل الرحمة على رجلينا ونذكر حبهما لنا وفناؤهما فينا ؟ .

ايفلين : حديثك الطيب هذا يا جو يثير فى نفسى الكثير من العوامل التى تعتلج فى صدرى لا أعرف لهـا سببا ولم أستطع تفسيرها ، لقد كنت فى قرارة نفسى أحب زوجى وابغضه فى آن واحد ، أكبره وأحتقره ، أفتخر به كزوج وازدريه ، لا أطيق فراقه ولا الدنو منه ، أغار منه وأغار عليه ، كنت أتمنى له الموت فلما مات بكيته بدموع حارة وما زلت أبكيه وأحقد عليه .

جوزفين : أصحيح ما تقولين يا ايف أم هو تخريف عجائز ؟ .

ايفلين : قد كان يصدق حكمك على فى التخريف لو كنت قمت صرح هذه المتناقضات طفرة فجائية ، فى حين أنى بنيتها لبنة لبنة ، لقد كنت أسعد بالشىء كما كنت أسعد بضـــده ، أفرح بالضـــحك والبـــكاء ، تبكينى الغبطة كما يبكينى الالم ، وانى يا عزيزتى جو ، برغم السنوات العـــديدة التى بت فيها أرملة ، ما زلت رهينة هذه المتناقضات وأسيرتها ، وقد أصف الحقيقة اذا قلت لك أن لو عاد زوجى الى الحياة لما تحولت عن معاملته كما كنت أعامله به طوال حياتنا السالفة .

جوزفين : فلنتكلم يا عزيزتي ايف بشيء من التبسيط والصراحة .

ايفلين : لقد ادركت ما تعنين يا جو ، وانى لمعترفة لك بالحقيقة وهى لقد كان زوجى قويا في كل شيء ، في حبه ، في تسامحه ، في تعاليه ، في ثورة نفسه ، وفي غضبه كما في رضاه ، لقد كانت قوته ترضيني وتشبعني وتربني ، كما كانت تبعدني بعيدا عن واقع الحال ، لتلقى بي في خيال أجسمه ، في شيء أريده وأشتهيه ، ولكني لا أدرى على وجه التحقيق ما هو ذلك الشيء ومن هو ، كنت أشبع الجسد وانكر المجسد ، لقد كان زوجى يدرك بفطانته ورهافة حسه طوية نفسى وتقلبها ككفتي ميزان في نهوض غير ناهض وهبوط غير هابط فيقابلني بالتسامح والتعالى ، كان من المحتم على أن أقبل اليد وأشكر الفاعل وأعترف بفضل الزوج القوى السخى الكريم ولكني كنت أجد لذة سادية في ارضائه واغضابه ، لقد كان يشجيني سروره ويبكيني فرحه وكانت سعادتي في رفض كل ما يرضيه وقبول كل ما لا يرضيه ، واستحسان كل ما ينكر واستقباح كل ما يحلو له .

جوزفين : عجيب ما تقولينه يا ايف .. ألا تعلمين أن الله خلق المرأة لتحب ؟ وأن الطبيعة أسبغت عليها نعمة الجاذبية الفتانة تتمثل في طلعتها ، في قدها ، في خلقها ، في الحديث والاشارة ونبرة الصوت ، كيف غاب عنك كل هذا ؟ كيف كنت تقربين هذه الهبات على مذبح أنانيتك الذاتية وتتعمدين حرمان زوجك ، ان الرجال ، كل الرجال ، أطفال كبار لعبتهم المرأة ، لكل رجل ادعاء خاص في معرفة سر المرأة ، أو بالاحرى سر زوجته في حين أعتقد أن هذا السر لا وجود له الا في وهم الرجل وتخيله ، أن هذا الوهم يزيد من رصيد المرأة في حساب الحب ، ويذكى رغبة الرجل في هضم الزوجة بكل ما فيها ، وهو بعد ذلك ان انحرف قليلا فيكون انحرافه الى الولد ليشارك أمه في مسئولية تربيته .

ايفلين : أفهم الآن معنى ما تقولين يا عزيزتي جـو ، ولكني كنت في حال تدعوني الى الاستمتاع بكل ما أنكره الآن ، كنت مثلا أتقلب على بساط من الغبطة حين كنت أسبب الغضب لزوجي لأرى الشرر يتطاير من عينيه ، والغضب يهز يديه وعنقه ، والكلمات تتلجلج في حلقه لا يقوى على النطق بها ، ويتعثر عليه لفظها ، كنت أخاف وأنكمش ، وأضحك وأبكي ، وكان المسكين في لحظة واحدة ينسى الاساءة ، يطفىء شره ، ويكظم غيظه ، ويخمد جذوة غضبه ، فيتقدم منى بحنان يكفكف دموعي الكاذبة التى لا أدرى اذا كانت دموع فرح أو دموع حزن ، دموع شماتة أو دموع انتصار .

جوزفين : مسكينة أنت يا ايف .

ايفلين : لقد ولدت عشر ولادات بين سقط وعدم اكتمال مدة الحمل وبين سليم عاش شهرا فقط ، توجست خيفة يا جو من أن لا يكون لى ولد يرث ، فصممت على حمل سليم فرزقت بتوأم ... لقد ساور زوجى الشك ولكن سرعان ما زال شكه وتبدلت

ربيته فعطف على الولدين فأحبهما وتعلق بهما ، فأعطى عليهما حبا قويا ، أضعف ما أقول فيه يا عزيزتي جو ، أن حبه الجارف ذلك للولدين أضعف حبه لزوجته واشعل في نار الغيرة من أولادي .

جوزفين : اذن لقد عدت وأنت زوجة يا ايفلين الى ما كنت عليه وأنت بنت ؟ .

ايفلين : لقد فهمت قصدك من هذا السؤال ، وانا بدوري أسألك ، هل لو كنت ولدت ابنك البكر مشوها هل كان زوجك يعقد قرانه المدنى والدينى بك ؟ واستطردت تقول .. لا علينا يا عزيزتي من هذا الحديث الشـــائك ، فلنعد اذن الى اتمام الحديث الأول .

ايفلين : تقصدين حديث الغيرة ، غيرتي من زوجي على ولدى ، لقد أبعدتهما غيرتي عنه وبحت أبث فيهما روح البغضاء له ، وكنت أختصم معه بحضورهما وقد نجحت في جعلهما ينظران اليه كم مهمل في البيت ، وما كان يخطر لي ببال أن ولدى هذين بعد ان كبرا ينقلبان على بعد وفاة زوجي يحاسبانى عن كل صغيرة وكبيرة اقترفتها في حق زوجي المسكين الذى مات دون أن يتفوه بكلمة واحدة في حقى .

جوزفين : انت شـــقية يا ايف .. بل أنت شريرة ومريضة ينخر المرض عظمك ، وينخب قلبك ، كيف لا تعرفين أن الزوجة التى تسعد زوجها انما هى تسعد ذاتها وأن التى تشقيه بالنكد والالم انما هى المنكودة التى تتألم .

ايفلين : صحيح ما تقولين يا جو ولكنك لم تضعى اصبعك بعد على مكمن الوجع ، أزعم لك أن وجيعتى لم تكن من ذات وجيعة زوجي الذى ما برحت أبكيه بل جاءت من الفقر الذى ورثته ، من العوز ، من الجوع ، من الحرمان ، من اشـــتهاء الحياة ، ومن جميع ما يتبعها من آلام تسربت الى الفكر منذ بدأ شعورى بالألم ينشب أظافره في روحى ، الفقر يا جو جعلنفسى تثور علىكل ما هو غنى بالذات ، لقد اردت في صباى ان أعيش مع شـاب أحببته فتوهمت أنه سينشلنى من فقر كنت فيه ، لقد أردت التخلص من الفقر ، شفقة على والدى الذى كان يكد ويشقى ويحرم أمى المسكينة من الأشياء الضرورية ليسعدنى أنا لأنى ابنته المدللة ، لقد املت الكثير من ذلك الشاب الوغد الذى مهـــدت له السبيل وفتحت له أبواب السعادة فلما ولجها تخلى عنى وقد وهبته أعز ما تهب العذراء حبيبها ، وقد كنت اعترفت لك بذلك من قبل ، من هـــذه الجـــذور نبتت في شجرة معرفة الشر لا الخير ، لم تثمر تلك الشجرة تفاحـــة تشتهى لونها وشمها وطعمها لأن الحية نفثت فيها سمها وبالسم جبلت مظهرها ومخبرها ، فصرت بهـــذا الحكم الغريب والتكوين غـــير السوى ذاتا خالصـــة لا تعقل ســـوى ذاتها ، أفهمت ما اقول يا عزيزتي جو .. لقد صرت ذاتا خالصة لا تعقل سوى ذاتها ، لقد علمتنى الحياة التى عشتها مع زوجي الذى لا انفك من بكائه أن الحيـاة التى أحياها اليوم هى في صميم حياتى الواعية ، لقد عقنى ولدى أو بعبارة واضحة لقد رغبا الى ابعاد

شرورى عنهما وانهما أغلقا أبواب بيوتهم فى وجهى حتى لا أجلب لهما عدوى النكد ، عدوى مرضى النفسانى المبتــلاة أنا به ، كنت أتوهم يا عزيزتى أن الايثار سنة الحياة فكنت لا أنعم بزوج ولا بولد ولا بمال ولا باشباع معدة وارواء شهوة بل كنت أؤمن بالذات الخالصة ، أؤمن بنفسى وبعدى للطوفان .

جوزفين : أنت شريرة يا ايفلين .. مجبولة من عناصر الشرور كلها ، بعيدة عن الله ، وانك لشقية شقية وشريرة شريرة .

ايفلين : (وهى تصرخ) ـ أنت أيضــا تقولين انى شريرة وشقية .. أتوسل اليك يا جو ، أضرع اليك يا عزيزتى لا تعيدى على مسمعى هذه العبارة مرة أخرى ، لأنها تؤلمنى ، تجرح قلبى فى صميمه ، تفقدنى الوعى ، أضرع اليك أن لا ترمينى بها مرة أخرى ، اسمعى .. لقد عرفت بعد أسف ـ شديد وحزن أكثر شدة انى مريضة النفس متقلبة الأهواء ، وأن المرض قد أنشب مخالبه فى فأعمانى ، لقد عميت عن حب زوجى لى ، عن تسامحه معى ، وعن اغراقه اياى فى بحور من السعادة ، لقد عميت عن تقدير حب زوجى الصادق لى حين سلمنى خطابا أدركت من خط كاتبه مضمونه ، لقد كان مضمون ذلك الخطاب التعس وشاية دنيئة من رجل خسيس ولكنها كانت تكفى لتقويض حياتى من أسسها لأنها تقرر واقعة حقيقية ، وقد عزاها زوجى ـ بكرم خلقه ـ الى حساد أخساء النفس أرادوا بنا الشر والوقيعة ، لقد عميت نفسى عن تقـــدير ذلك الموقف النبيل ، وأنا اليوم أحصد زوان ما بذرت من شرور ، وأهم تلك الشرور هى ما بذرته فى نفس ولدى من حقـــد على زوجى وكراهية له ، وانى اليوم آكل ذلك الخبز المر ، واليوم فقط عرفت انى مريضة ولكنى سأكفر منذ هذه الساعة عن كل سيئاتى لأنى سأحذو حذوك فى رعاية الفتيات الفقيرات ، وتيسير زواج البنات اليتيمات ، وأيضا من هن أمثالى وأمثالك حتى لا ينزلقن أو يوصـــدن بمصابى .. ان لدى الكثير من مال زوجى يرفض ولداى اخذه أو مسه ، ولا أدرى كيف أخفف عن صدرى حمله ولا كيف أنفقه ، خذى مالى يا جو وليكن انفاقه بمعرفتك لأنك أنت قديسة تائبة وعسى الله يصفح عنى ويغفر لى .

صوبت جوزفين نظرة باهتة الى صديقتها ايفلين وقالت لها بصوت واضح ونبرات ثابتة قوية .. أنت امرأة شريرة شقية مثلك بلغت من العمر أرذله فطرت على الشر والحقد لا تنفعها التوبة ولا تنقيها الندامة لأن الاحسان ان لم يكن من القلب الطاهر فهو لا يطهر القلب الدنس . ونهضت من مقعـــدها وهى تقول .. أنت شريرة شقية .

ايفلين : قلت لك لا تعيدى على مسمعى هذه العبارة التى كان يقذفنى بها زوجى ، وهى الشتيمة الجارحة الوحيـــدة التى كان يرجمنى بهـــا كل ما طفح صدره بالألم . ان صدى تلك اللعنـــة ما زال يرن فى أعماقى فيمزق أوصالى ، أما وقد رددتها أكثر من مرة بقوة وصلابة وقذفتنى بها بقسوة وعناد فأنا أردها لك وأصبها على رأسك لعنـــة مؤبدة ، وعلى زوجى ألف لعنة مثلها ، وعلى أنا آلاف اللعنات لأنى شريرة وشقية حقا .

٩ أيام

تأليف : وليم سام بروث

ترجمة : خديجة براده



دق جرس التليفون وحاولت جاهدا الوصول اليه « **هل أستطيع التحدث الى الكوماندور اليستون** » .

وأجبت « نعم انى هو » كانت الساعة تشير الى الرابعة صباحا .

ــ سيدى ، أنا الملازم ماكتير .. اننى فى مبنى الادارة ومعى هنا اثنان من ضباط الأمن ومعهم .. مريض .. مدنى ... لحظة واحدة يا سيدى » .

ثم حدثنى صوت آخر حاد منتبه :

ــ أنا الكابتن بلانكنشيب من المخابرات البحرية أمامنا الآن حالة طوارىء ونحن فى حاجة اليك يا كابتن فورا .

وأجبته : «**أمهلني عشر دقائق فقط**» ٠

حينما وصلت الى مكتب **الملازم هاكنتير** كان يملأ البيانات الخاصة بالمخابرات وأمامه كان يقف ثلاثة رجال، اثنان منهم طويلان يرتديان الملابس المدنية والثالث أقصر من المتوسط ٠ ذا شعر ثقيل مجعد وعضلات بارزة الا أنه كان حافى القدمين لا يرتدى شيئا تحت معطفه القديم المتآكل ٠

وحين دخلت التفت الى أحد المدنيين وسألنى : « هل أنت الكوماندور اليستون » ؟

وأومأت برأسى فأرانى بسرعة بطاقته الشخصية ٠ ولكنى استطعت أن أقرأ فيها كلمة « **مخابرات البحرية** » ثم قال « أنا الكابتن بلانكنشيب وهذا ٠٠ **وأشار الى زميله** ٠٠ هو كابتن ترمبول ضابط الأمن فى معامل ليفرمور وهذا ٠٠ **وأشار الى الرجل ذو المعطف** ٠٠ هو المريض مستر جوزيف فيتالى » ٠

واقترب منى كابتن بلانكنشيب وقال هامسا: « اننا نريد أكبر قدر من السرية فى هذا الموضوع ، فهذا الرجل مريض أو على الأقل نحن نعتقد أنه سيكون مريضا ٠٠٠ مريضا جدا » ٠

ونظرت الى **مستر فيتالى** بكثير من الاهتمام ٠ وحينئذ لاحظت أنه كان يتحامل على نفسه ليقف ٠

وفجأة وجه مستر فيتالى حديثه الى « أرجوك يا كابتن انصت الى أنت لقد كنت أحس ببعض التعب والاغماء ولكنى الآن أشعر بتحسن وهناك بضائع كثيرة تنتظرنى فى تراس لكى أعود بها الى سان فرنسيسكو قبل بدأ السوق يجب أن يتم ذلك فى مدى عدة ساعات ٠

وسألت بلانكنشيب : « انه يبدو على ما يرام فما هى طبيعة مرضه » ؟

ونظر بلانكنشيب الى فيتالى ثم اقترب منى وهمس : « التعرض لمواد مشعة لمدة طويلة ٠

وصعقت ونظرت الى **جوفيتالى** صاحب عربة النقل رجل الأعمال الصغير كان يقف متحرجا ينظر الى السجادة ٠ وراودنى سؤال ملح : « ما هى علاقته بالمواد المشعة التى تعتبر سرا قوميا ٠

ودق جرس التليفون فأمسك به ترمبول وسمعته يقول: « نعم فى ليفرمور قل له انها حالة **طوارىء خطيرة** ٠٠٠ يحسن حضور الدكتور كلمر ٠٠ أعلم أن الساعة الآن الرابعة صباحا ولكن اطلبه وقل له ٠٠ هناك حادثة متعلقة بالمواد المشعة المتخلفة ٠٠ حادثة تشمل ٠٠٠ نعم تعرض أحدهم للاشعاع ٠

ونظر الى جوفيتالى ٠٠ ونظر الى بعينين صافيتين ٠ كان وسيما بشعره الثقيل المجعد الذى يتوج رأسه ٠ وحينئذ لاحظت شيئا لامعا ٠ كما لو كان غبار دقيق لامع قد نثر على شعره وأذناه ٠ كان العرق يتصبب منه ٠

ووصل الدكتور كلمر فى أقل من ساعة ٠ كان رجلا فارعا جادا الا أنه لم يكن طبيبا بل عالم ذرة كان من الباحثين الذين يعملون فى مركز القوى الذرية فى ليفرمور بكاليفورنيا ٠ وكان يحمل معه جهازا مربعا غريبا ٠

وانتهى بجو جانبا وبدأ يفحصه بسماعة متصلة بهذا الجهاز ثم دون بعض الملحوظات • ثم سأل **جو** بعض الأسئلة ثم كتب فى سجله مرة أخرى • وأخيرا اقترب منا وقال : « أرجو أن تقوموا بالترتيبات اللازمة لكى يبقى السيد فيتالى هنا ل ٠٠٠ للفحص ٠٠٠ طبعا انتم تقدرون أن ذلك محافظة على الصحة العامة •

وفعلا أعدت الترتيبات • وجاء بعض رجال الأسعاف لنقل جو الى أحد العنابر المنفصلة • كان هذا العنبر فى مكان مرتفع ويطل على خليج **سان فرانسيسكو** • وطلب **كلمر** من رجال الاسعاف أن يلبسوا الأقنعة والقفازات أثناء نقل « **جو** » وأن تحرق هذه بعد الانتهاء من استعمالها فورا • كذلك تحرق كل ملابسهم والملابس التى يرتديها **جو** وذلك عقب وصوله الى حجرته مباشرة • على أن يدفن الرماد المتبقى منها •

بعد مغادرة جو للحجرة اتجه **كلمر** الى **بلانكنشيب** قائلا : « لقد وقعت هذه الحادثة قبل منتصف الليل والساعة الآن قد قاربت الخامسة هل تدرك معنى هذا التأخير ؟

ورد بلانكنشيب : « انى لم أخطر الا منذ أقل من ساعة وعلى كل حال هذه هى التفاصيل كما وردت الى ، ثم التفت الى الملازم ماكنتير : «سيدى لو سمحت» وحين غادر ماكنتير الحجرة بدأ حديثه •

— هناك مركز لأبحاث القوى الذرية فى **ليفرمور** بالقرب من **سان فرانسيسكو** وككل مركز أبحاث توجد مواد مختلفة الا أن هذه المواد تكون مشبعة بالاشعاع كالادوات المستخدمة والأوانى الفارغة والخرق ، هذه المواد التى تصبح غير ذات قيمة بانتهاء التجربة ويجب التخلص منها • فتوضع فى أوعية محكمة الاغلاق ، ويوضع معها أسمنت ، وحين يتجمع لديهم عدد من هذه الأوعية تحمل على عربة نقل الى احدى موانى خليج **سان فرانسيسكو** وفى العادة تكون هذه الميناء **أوكلاند** • ثم تشحن على بعض سفن النقل الخاصة التى تحملها الى وسط المحيط ثم تغرقها •

وقاطعه كلمر : « وبالأمس كانت لدينا مواد متخلفة لتجربة أحسسنا أنها أخطر من أن نستمر فيها • وكان اغراقها هو أسهل وأسرع وآمن طريقة نضمن بها التخلص من هذه المواد • وهكذا حملت احدى عربات النقل هذه المخلفات وسارت بها بأسرع مايمكن فى طريق أوكمونت الجانبى غير المطروق •

وأكمل بلانكنشيب حديثه : « وفى اوكموند يوجد نفق خط سكة حديد وكما تعلم كان المطر ينهمر طوال الأسبوع الماضى وبينما كان سائق عربة النقل يقترب من النفق رأى رجلا يقف فى مدخله ويشير له ، ووراءه عربة نقل متعطلة •

كان هذا الرجل هو **جوفيتالى** • وكان يقف حافى القدمين مشمرا سرواله • ذلك أن الماء المتخلف عن الأمطار كان يملأ النفق مما جعله يخلع حذاءه •

وأكمل بلانكنشيب حديثه : « كان الطريق ضيقا وكان سائق عربة النقل مسرعا وحاول تفاديه حين رآه فجأة • ولكن الماء منعه فاصطدم بجانب النفق وسقطت بعض الأوعية وكسرت احداها لسقوطها على أسمنت الرصيف ويبدو أن محتوياتها قد انتشرت على **فيتالى** •

وساد السكون فترة نظرت خلالها الى الدكتور **كلمر** الذى كان يهز رأسه ببطء

واستمر **بلانكنشيب** فى حديثه « لم يصب السائق بسوء ولكنه طبعا حذر **فيتالى** من أن يلمس أى شىء وسأله ان كان قد أصابه أى رذاذ من السائل الذى كان بداخل الوعاء المكسور ٠

ولكن فيتالى قال له ألا يقلق وأنه بخير ٠ طبعا كان هناك رذاذ كثير نتيجة سقوط الاوعية فى ماء المطر وأغلب الظن أنه لم يحس حينئذ بالمادة التى أصابته٠ على أية حال ان هذه الحادثة وقعت فى شارع جانبى غير مطروق بعد منتصف الليل ٠ وكانت العربتان معطلتان ٠ وهكذا بقى **فيتالى** هناك بينما اتجه سائق عربة النقل الى أقرب تليفون ٠ وطبعا استغرق وقتا طويلا ، وأخيرا اتصل بمركز التجارب ٠ وسرعان ما قام ترمبل بواجبه وأخذ معه عربة أخرى وبعض العمال **وجهاز جيجر** لقياس مدى انتشار **المواد الخطرة** فاكتشفوا ان الماء الذى يغطى أرضية النفق والرصيف والحوامل كانوا مشبعين بالمواد المشعة ٠

طبعا لم يكن من السهل عليهم أن يقنعوا فيتالى بأن يخلع ملابسه ويستحم جيدا فى مجرى قريب ٠ فهو شخص قوى ٠ ولكنه أذعن أخيرا ٠٠ ثم أحضروه الى هنا ٠

وسألت كلمر : « **هل هو فى حالة خطرة** » ؟

فأجابنى مقتضبا : « أخشى أن يكون كذلك ان مستوى الاشعاع فى هذه الحجرة أعلى مما يجب لمجرد تنفسه فيها» ثم خفض بصره وقال : « حيث سار ٠٠ وحيث وقف ٠٠ ان السجادة مشبعة بالمواد الخطرة» ٠٠ثم نظر الى **بلانكنشيب** « يجب أن تغسل يديك عدة مرات جيدا بالصابون وتقلم أظافرك فورا وتتخلص من كل ملابسك بلا أدنى توان ٠

وقاطعته : « **يا الهى ماذا كان بداخل هذه الأوعية** » ٠

ـ لا أستطيع أن أخبرك ٠

وسأله بلانكنشيب : « مامدى خطورة حالته » ؟

ـ لا أستطيع أن أجزم فأنا لا أعلم بعد مدى تعرضه لهذه المواد ٠

وبعد فترة سكون وتردد قال الدكتور كلمر : « هناك طبيب فى بركلى يدعى الدكتور كلين وهو **أحد** أولئك الأطباء المتخصصين فى علاج حالات التعرض للاشعاع ويقوم الآن بتجارب ناجحة جدا ٠ وقد ابتكر طريقة جديدة لعل هذه تكون فرصة لتجربتها وانقاذ جو ٠

وسرعان ما استدعى الدكتور كلين ٠ ورغم أنه كان أصغر الموجودين سنا الا أنه كان أكثرهم حماسا وادراكا لخطورة الموقف ٠ وقد أحضر معه بعض الأطباء المتخصصين وكثير من الأجهزة الحديثة ٠ أحدهما جهاز لامتصاص الدم الذى تعرض للاشعاع واحلال دم جديد مكانه فى نفس الوقت ٠ كذلك أحضر معه قائمة بأشهر الأطباء المتخصصين فى علاج الاشعاع فى العالم أجمع ٠ كان يوجد اثنان فى اليابان وواحد فى سويسرا وواحد فى القطب الجنوبى ٠



بعد أن حك جسم فيتالى عدة مرات بالماء والصابون حلق كل شعر رأسه وجسمه . ولكنه كان يعترض على ذلك ويؤكد لهم مرارا وتكرارا أنه فى أحسن حال وانه لا يشكو وأنه يريد الخروج ليستأنف عمله .

ثم انتابه غثيان مفاجىء فترة قصيرة عاد بعدها يطالب بالخروج .

وقبل الظهر كانت القوات البحرية قد قامت بمد خط اتصال خاص من المستشفى حتى يستطيع الدكتور كلين الاتصال مباشرة باليابان أو سويسرا أو حتى القطب الجنوبى لو استدعى الأمر .

كان هذا هو اليوم الأول ... كانت هذه هى البداية .

وفى اليوم التالى جاء رجال كثيرون .

رجال جادون سريعو الحركة يحملون معهم عديدا من الأجهزة المعقدة ٠ فأحرقوا شعر **فيتالى** وملابسه وقاموا بتحليل الرماد المتخلف ٠ ثم تبادلوا نظرات جادة ثم بعثوا الى **واشنجتون** برسالة عاجلة للاستفسار عن الثلاث حالات التى سبق أن أصيبت بالاشعاع فى **لوس اليوس** ، الاثنتان منذ بضع سنوات وتلك التى حدثت فى العام الماضى ٠

وفى مساء اليوم الثالث لدخول فيتالى المستشفى ذهبت لزيارته والحصول على توقيعه على بعض الأوراق الهامة ٠

كان يجلس فى سريره محاطا بالوسائد تلمع رأسه الحليقة فى ضوء الحجرة الخافت ٠ وينظر بحزن وأسف الى ماوراء النافذة الى خليج **سان فرانسيسكو** ٠ واقتربت منه واستدار الى ٠ حاولت أن أخفى أثر الصدمة فى صوتى وأنا **أحييه** ٠ **كان جسده** أحمر ٠٠٠ لون يميل الى البنفسجى ٠٠٠ لون مخيف ٠

عرفنى ونظر الى نظرة بائسة ثم ابتسم وهمس : « لقد جنوا ٠٠٠ لقد أخبروا زوجتى أننى أصبت فى حادث وأنهم سيبقوننى هنا تحت المراقبة ٠ وهى تعتقد أن اصابتى فى رأسى أو شئ من هذا القبيل ٠ ولكن صدقنى سأقول لها كل شئ حينما تأتى لزيارتى ٠ ثم توقف عن الحديث ونظر الى ولكننى كنت أحس أن هذه النظرة لا تنبع من عينيه ولكن من مكان سحيق ٠٠٠ ثم قال : « **اننى أحترق من الداخل** » ٠

حاولت أن أسرى عنه وأطمئنه ٠ وفى هذه اللحظة سمع أزيز طائرة فقال : « كنت أتمنى أن أصبح طيارا ولكن ٠٠ هل سبق لك رؤية سوق سان فرانسيسكو ؟

أجبته وأنا أتفحصه : « كلا أبدا »

وقال بهدوء: « لو أنك رأيته لضحكت كثيرا ٠ كل هذا الكرنب والخس والسبانخ والجزر الطازج كلها مرصوصة على جانبى الطريق يحاول أصحابها غسلها بماء الخليج ٠ ثم هؤلاء السماسرة الحاذقين يجرون هنا وهناك يصرخون ويلوحون بأيديهم ويحددون الأسعار التى تلائمهم ٠ وفى الساعة السادسة يصبح الشارع خاويا مرة أخرى » ثم هز رأسه مبتسما : « سأكون سعيدا جدا بعودتى الى هناك » ٠

وفى اليوم الرابع وصلت حرارته الى ١٠٣ درجة فهرنهايت ٠ كان يحقن بالمضادات العضوية وتجرى له أكثر من عملية بذل ٠ وأخذت عينات من نخاع عظامه لتحليلها ولكنها أظهرت أول مبادئ التآكل ٠ وبدأ المصدر الرئيسى لتكوين كرات الدم **الحمراء فى الاستسلام** الا أن كرات الدم البيضاء مصدر الدفاع الرئيسى كانت تبذل كل قوتها ٠ كان هذا الجسد يبذل كل قدراته للتمسك بالحياة ٠

كذلك كانت تفعل القوات البحرية ٠ كان هناك سيل من المتخصصين من كل أنحاء البلاد ٠ ونشرات مستمرة وجداول دائمة تسجل فيها آخر تطورات الحالة أولا بأول ٠

أما جو نفسه فقد كان يتألم رغم أنه قد أحيط بالثلج بعد أن أصبح مجرد كتلة محترقة ذات لون بنفسجى ٠

وفى اليوم الخامس نقلوا زوجته مادج الى حجرة مجاورة فى نفس العنبر ومنعت من رؤيته ولكنها كانت تود البقاء بالقرب منه ٠

وذهبت لزيارتها كانت بسيطة غائرة العينين ولكنها متماسكة الأعصاب حلوة الروح ذكية سريعة البديهة ٠

كانت قد اطلعت على السبب الحقيقى لحالة جو وقد لاحظت على مائدة حجرتها عدة كتب ومنشورات حكومية كلها متعلقة بالاشعاع الذرى . ولابد أنها أحضرت هـذه الكتب من المكتبة الملحقة بالمستشفى .

وقالت : « لقد ذكرك جو كثيرا وهو يقول عنك « جنتلمان » .

وارتسمت على شفتيها ابتسامة قصيرة رائعة «هذه هى أحسن صفة لدى جو» .

ـ « **ان هذا يشرفنى** » وكنت أحس كذلك فعلا .

وفجأة حولت وجهها عنى : « انه حقيقة رقيق ... رحيم ... حنون وقوى وهو يعرف ذلك ولكنه لم يستغل قوته أبدا .

توقفت عن الحديث ثم « هذه الحادثة هل ... هل حقيقة كانوا ينوون اغراق هذه المواد فى البحر » ؟



وأكدت لها « نعم فهذه هى الوسيلة الوحيدة للتخلص من المواد الخطرة » ؟

ـ أليس فى ذلك خطر عام ؟

ـ انها توضع فى أوعية محكمة الاغلاق ويضعون معها كمية من الأسمنت .. ويغرقونها بعيدا عن الشاطىء ومع الوقت يتكاثف عليها الطين فتفقد قدرتها على الاشعاع ومن ثم خطورتها .

وفى اليوم السادس حدث انخفاض ملحوظ فى عدد كرات الدم البيضاء كانت حرارته ١٠٤ درجة وظهرت أعراض انهيار الكبد والمرارة . كان قد فقد

الكثير من وزنه وأصبح يرقد هناك كتلة من الشحم المتهتك تنضح عنها الأنابيب. أنابيب فى فمه وأنفه وذراعيه وقدميه • كان كلين يبذل قصارى جهده وقد جرب كل الطرق والوسائل كان آخرها تغيير نخاع العظام عن طريق استبدالها بنخاع المتبرعين •

وفى اليوم السابع والثامن كان جو يتحسن تحسنا كان يرقد على سرير من الثلج وجهه قد خرس وعيناه صامتتان•• عمياء •

وفى مساء اليوم الثامن استدعانى دكتور **كلين** • وحين ذهبت اليه وجدته بصحبة مجموعة أخرى من الاخصائيين كانوا يمسكون بأوراق عديدة •

ورحب بى الدكتور كلين رغم اجهاده الواضح •

وبدأوا جميعا يشرحون لى باصطلاحات علمية آخر تطورات الحالة وملخص مافهمته أن علاج كلين قد أثبت نجاحه • وتساءلت متفائلا: «**اذن هناك أمل**» •

ــ نعم ولكن ليس فى هذه الحالة بل فى حالات مستقبلة نكون قد زدنا فيها علما فى تطبيق هذه الوسيلة الجديدة • ولكننا بعد التشريح •••

ــ وقاطعتهم منزعجا «التشريح؟ ولكنه يتحسن» •

ــ ان غريزة حب البقاء هى التى تدفعه الى المقاومة بأقصى مايستطيع •

ومد يده بورقة « هل تستطيع أن تحصل على توقيع السيدة فيتالى • فاننا سنحتاج الى موافقتها بتجاربنا الاخيرة • ويحسن أن تحصل على موافقتها مقدما• حتى نستطيع العمل فورا •

وفحصت الورقة كانت اذنا بتشريح جثة جوزيف فيتالى •

ــ أواثقون أنتم الى هذا الحد ؟

ــ نعم ويحسن أن تؤكد لها فائدة هذا الاذن اذ يجب أن نعمل بعد وفاة جو مباشرة • واعتقد أنها ستقدر الموقف •

وذهبت الى مسز فيتالى فقيل لى انها فى الكنيسة الصغيرة الملحقة بالمستشفى حيث تبقى هناك الى ما بعد العاشرة من مساء كل يوم •

وعاودت الكرة مع الساعة العاشرة والنصف وفتحت لى الباب بنفسها ونظرت الى متوجسة •

وجلست الى جوار مائدتها الصغيرة المكدسة بالكتب والمطبوعات « **سيدتى قبل أن أطلعك على هذه الورقة أريد أن أشرح لك سبب وجودى وأهمية توقيعك عليها الآن** •

ونظرت الى الورقة ثم أومأت برأسها فى هدوء •

ــ أعتقد أنك قرأت كل هذه المنشورات عن « الرونتجن » وهى وحدة قياس الاشعاع • ولابد أنك عرفت أن الانسان يستطيع أن يتحمل عددا معينا من « الرونتجن » حوالى ٦٠٠ على ما اعتقد•

وترددت فترة • ولكنها خفضت عينيها ولم تفتح فمها •

ــ مسز فيتالى انهم يعلمون الآن أن زوجك قد تعرض لاكثر من الف « رونتجن » •

وفتحت عينيها ونظرت الى نظرة متحجرة ولكنها لم تفتح فمها •

ــ مسز فيتالى هل فهمت ما أحاول توضيحه لك •

ــ نعم لقد مات جو •

ــ كلا ولكن ••

ــ لقد مات جو « كان صوتها خفيضا مليئا بالحزن » ان قلبه ينبض وهو يتنفس ويتألم ولكنه مات • لقد مات

منذ ثمان أيام وهو يقف فى الطريق يحاول أن يجد من يساعده على دفع عربته • لانه كان يحب عمله ويتفانى فيه• لانه كان يحس بالفخر وهو يحضر الفاكهة والخضر الى الناس• لكي يطعمهم. كان ذلك يسره فقد كان يحب الناس•

وتوقفت عن الحديث وانحدرت دمعتان على وجنتيها •

– **مسز فيتالى انى آسف حقا • ولكن ما قلته هو الحقيقة والموت بالنسبة للمستر فيتالى أمر لا شك فيه • واذا أردت الحقيقة كلها لقد كان مقدرا أن يموت منذ بضعة أيام** وهم يعتقدون أن زوجك قد عاش هذه الفترة لانه كان يعالج بطريقة ابتكرها أحد أطباء المستشفى النابغين •• الدكتور كلين • وهذا يعنى أملا كبيرا فى النجاة للضحايا الذين قد يتعرضون لخطر الاشعاع فى المستقبل » •

ومدت لها يدى بالورقة وأكملت حديثى « ولكنهم لا يستطيعون التأكد من نجاح هذه الطريقة الجديدة الا بعد القيام بعدة تجارب دقيقة ، أخرى • ويجب الاعداد لهذه التجارب مقدما • ذلك انهم كلما اسرعوا فى القيام بها كلما أمكن التأكد من نجاح طريقة كلين• ولكنهم طبعا وقبل كل شىء يجب أن يحصلوا على اذن منك •• على توقيعك على هذه الورقة •

فتحت الورقة وقرأتها بسرعة ثم طوتها وهزت رأسها « كلا •• كفى » •

– **مسز فيتالى أرجوك •**

– كلا « كان صوتها غاضبا » اننى لم أره منذ اليوم الثالث ولكنى أعرف الآلام التى تعرض لها • والعذاب الذى مر به • والتآكل والهزال الذى حل بجسمه • لقد أعطاه الله جسما جميلا قويا مليئا بالحب لى •• لطفلنا وللحياة هذا هو ما أبقاه حيا • حبه الكبير ودعواتى وملأت الدموع عينيها « هل يعتقدون أنهم سيجدون ذلك كله اذا ما استعملوا مشارطهم ؟ هل يستطيعون قياس روح الانسان الخالدة • وملأت لها كوبا من الماء « **مسز فيتالى ، اشربى** » ؟

وهزت رأسها كانت ترتعد « لقد كان لهم طوال ثمانية أيام ولكنه حين يموت سيصبح لى ، لى وحدى • ولن أسمح لهم بمسه مرة أخرى •

وكرمشت الورقة وكورتها ورمتها بغير اهتمام فى سلة المهملات • ثم غطت عينيها ووجهها بيديها وبدأت فى النحيب •

وأخيرا توقفت عن البكاء وأخذت نفسا عميقا ثم مسحت وجهها براحتيها :

– **مسز فيتالى** أرجوك ألا تعتقدين أننى أريد الضغط عليك لتوقعى على هذا الاذن فلك مطلق الحرية فى أن ترفضى • **مسز فيتالى ان المادة التى تعرض لها زوجك هى نتاج تفاعل مواد موجودة فى هذا العالم • وقد ينتج عن هذا التفاعل اخطار لا يمكن حصرها ولكنى أعتقد أنك تؤمنين بوجود اله عادل حكيم** • ومن ثم لا يمكن أن تتصورى أنه يعطينا هذه المواد والعقل التواق للمعرفة لنفكر به فى وسائل أفظع لكى نقتل بعضنا البعض • هناك حتما أغراض أسمى وأعظم • وهذا هو ماكانوا يقومون به فى ليفرمور• لقد كانوا يعالجون المواد التى تعرض لها جو بحيث يجعلونها تخدم الناس والانسانية • وموافقتك على اقتراحنا ستحمينا نحن •• نحن الذين أحبهم جو •

وانتظرت ولكنها بقيت صامتة لاتنظر

الى شيء وظلت كذلك الى أن تركتها .

كانت حجرة جو مليئة بالأطباء المتخصصين فى تحاليل عظام وخلايا الموتى . كانت تجاربهم وتقاريرهم هى الخطوة الأخيرة للتأكد من نجاح طريقة الدكتور كلين . أما جو نفسه فقد كان يرقد هادئا فى غيبوبته الأخيرة بعد أن تدهورت حالته فى الساعات الثلاث الماضية وأصبح كل جسمه كتلة من الخلايات المتداعية .

تلقى الدكتور كلين نبأ رفض توقيع مسز فيتالى بهدوء : « لعلها تعتقد أن الاقتراح قد جاء قبل ميعاده . لعلها لا تزال تأمل . على أية حال سأكتب لك اذنا آخر .

– أتعنى أنك تريد منى أن أحاول مرة أخرى فيما بعد ؟

– نعم فانه قد يبقى على هذا الحال عدة ساعات أخرى . لذلك يحسن بك أن تنام قليلا، ولم أنم كثيرا حين أيقظنى رنين التليفون . كان الدكتور كلين يتحدث .

– لقد مات جوفيتالى .

ونظرت الى ساعتى كانت حوالى الثانية صباحا . لقد مرت تسعة أيام منذ وقف جوفيتالى وحيدا فى طريق موحش ينتظر أى عربة تمر به .

– هل أخطرت مسز فيتالى .

– نعم .

– حسنا سأحضر فى ظرف عشرين دقيقة .

ارتديت ملابسى وخرجت الى الشارع . كانت الريح الباردة تهب والسحب السوداء تغطى الخليج واتجهت الى حجرة جو حيث أضيئت الأنوار . وتحركت الأشباح والظلال .

قابلتنى المرضة فسألتها عن مسز فيتالى .

– لقد رحلت بعد أن وصلتها أنباء زوجها مباشرة .

– رحلت .. الى أين ؟

– الى الكنيسة .

– حسنا .

– مسز فيتالى ان الباب مفتوح .

– أعرف ذلك ولكنى كنت أنتظر .. لقد كنت آمل أن **تحضر** .

– مسز فيتالى انى لآسف جدا لموت جو .

وانهمر المطر ولكنها ظلت ساكنة فترة ثم قالت : « **بعد أن تركتنى أمس** فهمت ماكنت تعنيه بحديثك معى . وانى لشاكرة لك فأنا أعلم الآن أن هناك سببا لموت جو وانكار هذه الحقيقة كانكار وجود ... » وتوقفت ومست باب الكنيسة بأطراف أصابعها ثم فتحت حقيبتها وسلمتنى مظروفا .

– أريدك أن تأخذ هذا قبل أن أدخل هنا .

واستدارت وفتحت الباب ودخلت وانبعثت من الكنيسة نفحة من هواء دافىء تفوح منه رائحة البخور . وسطع النور المنبثقمن الكنيسة عليها . وتألقت قطرات المطر على شعرها كالماس ولمحت وجهها . لقد زالت عنه كل آثار الألم والعذاب .

وفتحت المظروف وبداخله كان اذن التشريح . الاذن الذى كرمشته أمس وألقته فى سلة المهملات . كان قد فرد وطوى بعناية .

ووقعت عليه ....

الملاح التائه



بحث : د. طه محمود طه

جوزيف كونراد

١ ـ تقديم

يتميز جوزيف كونراد على معاصريه من كتاب القصة الانجليز بمميزات كثيرة قلما نجدها فى أعلام القصة فى الأدب الانجليزى . فبالرغم من أنه اتخذ من انجلترا وطنا له وحصل على الجنسية البريطانية الا انه لم يتقيد بالدعوة الوطنية ولم يكن ضيق الأفق محدود الفكر ، ففى قصصه يحرص على الدعوة الى العالمية . لقد كانت بولندا ، موطنه الأصلى ، وانجلترا تثيران فى نفسه أحاسيس عميقة ، ولكن تجاربه فى البحر على ظهر السفن وفى دول أخرى جعلت منه مواطنا لأكثر من دولة واحدة . ويمكننا اعتبار كونراد مواطنا عالميا فقد كان يعتبر أفراد الجنس البشرى أعضـــاء فى أسرة عالمية واحـدة تميزهم فروق سطحية ولكنهم يشتركون جميعا فى أشياء كثيرة رئيسية متشابهة . ولم يرتبط كونراد ببلد معين وكان يتمتع بحرية قلما تمتع بها هـ . ج . ويلز الذى كان يحاول هو الآخر الوصول الى نظرة عالمية . ومعظم شخوص كونراد فى قصصه شخوص « أجنبية » تعمل فى أجواء غريبة بعيدة عن موطنها الأصلى ، ولكنها شخوص آدمية من دم ولحم تفرح وتقاسى كمعظم بنى البشر .

وقد أطلق بعض النقاد على فنه القصصى عبارة « الواقعية الرومانتيكية » وكونراد واقعى فى قصصه لأنه كان دائما يتخذ لنفسه ، كنقطة البداية في قصصه ، تجربة من واقع حياته أو من حوادث الحياة حوله، فهو لم « يلفق » حبكات قصصه أو يخترعها ، فقد كانت عملية « فبركة » القصة من أشق الأمور بالنسبة له . كانت مادته هى الحياة ذاتها أو الواقع وكان يصر على أن كل عنصر فى تجربة يمر بها الفنان له أهميته ويستحق التسجيل . ويجب على القصصى ألا « يلفق » فى وصفه لها بغية أن يجعلها تتفق وما ينبغى أن تكون عليه فى رأينا . والواجب الأول هو الصدق الذى يجب على القصصى أن يعبر عنه بطريقة جمالية مضفيا عليه الظلال ، والمعانى التى يلمسها بنفسه فى كل حالة ـ وهذا هو عنصر الرومانتيكية فى قصصه . وقد أضفت هذه الرومانتيكية بطبعة الحال تعقيدات كثيرة تعتبر مسئولة الى حد كبير عما تشتهر به قصصه من غموض وتداخل فى الحوادث والشخصيات وتعقيد فى العلاقات . واذا كانت هذه الصنعة

في يد قصصي مجرب يحذق فنه حذقا تاما فانها تضفى على عمله الأدبى متعة دقيقة غنية ، اذ يسرى في كل عنصر من عناصر قصته الهامه التخيلى وواقعيته الصادقة • ومن بذور الواقعية نبتت قصصه فى خياله وازدهرت بعد فترات من التأمل فيها لتخرج لنا قصصا واقعية رومانتيكية ، وان كان اطارها رومانتيكي غريب الا أن جذورها فى الواقع الملموس • وكان كونراد يعتقد أن فن كتابة القصة يشبه الى حد كبير فن الرسم أو الموسيقى ، فهو فن لا يعتمد على سرد « الحدوتة » فحسب بل على طريقة السرد والتكنيك والشكل ، « فالحدوتة » ثانوية بالنسبة له • ويضفى كونراد على مواقفه وشخوصه فى قصصه ثوب الاقناع ولهذا فهى تتسم بالواقعية • وتتدرج الحوادث وتتعقد فى دائرة كبيرة حتى تهوى الشخوص التى كانت مرتعا للمتناقضات على طريقة المأساة عند أرسطو •

ان القصصي ، فى اعتقاد كونراد ، ليس من شأنه أن يهذب أو يواسي أو يسلي أو يشجع أو يدخل البهجة الى النفوس ، ولكن مهمته الأولى تنحصر فى « استعمال القوة الكامنة فى الكلمة المكتوبة لكى يجعلك تسمع وتحس ، وأهم من هذا كله ، يجعلك « ترى » • » ويجب على القصصى أن يصبو الى تحقيق التوافق بين الشكل والمضمون ويحاول أن يصل الى القدرة على التشكيل كما فى النحت والى الألوان كما فى الرسم والى الايحاء السحرى كما فى الموسيقى • وكان يؤمن بأن هذه المميزات فى العمل الأدبى يمكنها أن تلعب دورها ولو للحظات قصيرة وترقص فوق السطح العادى للكلمات ، تلك الكلمات القديمة المستهلكة التى طمست ايحاءاتها على مر عصور من الاستعمال الردىء • ويقول فورد مادوكس فورد الذى كان يتعاون مع كونراد :

« لقد تعودنا أن نمسك برقبة الموضوع حتى نعتصر منه آخر نقطة من امكانياته الدرامية • وكانت القصة بمثابة عملية « نقل » لمسألة ما : سوء تفاهم مثلا ، أو مجموعة من المواقف الحرجة ، أو جسد انسان ، أو تتابع حالات نفسية • ومن هذه الأجزاء تتكون وحدة القصة • ولا شك أنه لا بد للقصة من أن تحتوى على « وقفة » أو عدة وقفات • ولكن يجب لهذه الوقفات أن تكون نتيجة لتوقف تلقائى فى مزاج الشخص وهى ضروريات زمنية تتطلبها طريقة المعالجة • ولكن القصة باكملها لا بد لها من أن تكون استغلالا لجميع الأوجه وتسير الى قمة واحدة ، لتكشف مرة واحدة وأخيرة ـ فى الفقرة الأخيرة من القصة أو التى قبلها ـ عن المغزى النفسى للقصة كلها » •

٣ ـ حياته :

كان والد كونراد ، أبولو كورزنوسكى ، رجلا مثقفا عالما مثاليا ، ودفعته مثاليته وأفكاره المتحررة الى الرحيل عن بولندا مجبرا ليقضى وزوجته وابنه أياما عصيبة منفيا فى روسيا • والى جانب اهتمامه بالسياسة كان شغوفا بالأدب الفرنسى والانجليزى ، وقام بترجمة دقيقة ليفكتور هوجو وشكسبير ونقل روائعهما الى اللغة البولندية • وبعد مولد كونراد بخمس سنوات جاء أبولو الى وارسو وبدأ فى نشر جريدة أدبية ولكنه كان يهتم بالسياسة وساعد فى تكوين اللجنة الوطنية السرية وكانت اجتماعاتها تعقد فى منزله من آن لآخر • وقبض عليه فى عام ١٨٦٣ لتمرده ونفى الى روسيا • وكانت زوجته امرأة مثقفة مرهفة الحس تهتم بنشاط زوجها ولهذا طلبت أن تلحق بزوجها فى منفاه فى « بيرم » على مقربة من جبال الاورال • ولكن صحتها اعتلت فى المنفى وتوفت بعد ثلاث سنوات وكان عمرها ٣٤ عاما • وأصبح الأب رجلا محطما كئيبا لا يستطيع أن يحصل على المال الذى يكفيه وابنه ولكنه ظل خلال هذه المحن محتفظا بحبه للأدب • وأخيرا توفى فى « كراكو » عام ١٨٦٩ وذلك بعد وصوله الى وارسو بسبع سنوات •

وكان كونراد ، الذى اضطر الى مشاركة والده عالمه المضطرب ، وحياته القاسية ، يشغل نفسه طيلة هذا الوقت بالقراءة ويغذى خياله بالكتب التى كانت تؤنسه فى وحدته • ولفترة الطفولة هذه أثرها الكبير فى اهتمامه بالمسئولية الفردية والاعتماد على النفس فى كتبه والسيطرة عليها • ولما بلغ الحادية عشر من عمره التحق بمدرسة القديسة آن فى « كراكو » حيث درس الأدب الكلاسيكى واللغة الألمانية • وكان فى هذه الفترة قد تمكن من اللغة الفرنسية وأصبح يتكلمها ويكتبها بطلاقة بعد ذلك • وفيما بين عام ١٨٧٠ وعام ١٨٧٤ أشرف على تعليمه شاب جامعى وأخذ كونراد يفصح لخاله الوصى عليه برغبته فى العمل على ظهر السفن كبحار ، ولم تفلح جميع المحاولات التى بذلت فى اقناعه عن العدول عن رغبته • ولا شك ان

افتتانه وحبه المبكر للبحر كان حبا « أدبيا » لأنه كان قد قرأ فى مكتبة والده مجموعة ضخمة متفرقة فى أدب الرحلات والبحار والأسفار وكانت تستحوذ عليه رغبة طاغية منذ صغره لرؤية بلاد أخرى • ويروى عنه انه وضع أصبعه ذات يوم على خريطة افريقيا وقال : « عندما أشب سأذهب الى هناك » وكان المكان الذى وضع عليه اصبعه هو الكنغو البلجيكية •

وفى ١٤ أكتوبر عام ١٨٧٤ ، وبعد عيد ميلاده السابع عشر بشهرين ، أبحر الى مارسيليا كبحار على ظهر سفينة ليبدأ حياة البحر والمغامرات ومعه بعض خطابات التوصية ومبلغ ضئيل من خاله الذى تردد كثيرا فى السماح له باتخاذ هذه المهنة • ومن مارسيليا أبحر كونراد الى جزر الهند الغربية وأمريكا الجنوبية وقد تشكل هيكل قصته « نوسترومو » أثناء هذه الرحلة كما خاض كونراد أول تجربة له فى تهـريب الاسلحة وهو على ظهر السفينة « سانت انطوان » فى طريقها الى أمريكا الجنوبية • وبعد أربعة أعـوام قضاها فى العمل فى الاسطول التجارى الفرنسى ، عمل فيها فى عدة سفن دون أن يكون لديه أية فكرة عن مستقبله ككاتب قصص ، أبحر على السـفينة الانجليزية « مانيس » فى يوم ٢٤ ابريل سـنة ١٨٧٨ الى القسطنطينية ، وعندما عادت السفينة الى « لويستوفت » وضع كونراد قدميه لأول مرة على أرض بريطانية ولم يكن يعرف من اللغة الانجليزية شيئا • وبعد عيد ميلاده العشرين قرر ، كما يقول فى مذكراته أن يكون بحارا انجليزيا اذا قدر له أن يظل يعمل على السفن وكان الأمر « اختيارا متعمدا » وفى عام ١٨٨٠ اجتاز بنجاح امتحانا ليكون رئيسا للبحارة وبعد عامين أى بعد التحاقه بالبحرية الانجليزية بعشر سنوات أصبح قائدا للسفينة « أوتاجو » من يناير سنة ١٨٨٨ الى مارس سنة ١٨٨٩ • ولا يعرف بالتحديد الوقت الذى بدأ فيه كونراد الكتابة ، ولكننا نعرف انه عندما بدأ قصته الاولى « طيش الماير » فى عام ١٨٨٩ كان لازال يعمل فى السفن ولم يكن كاتبا متفرغا • ويقول كونراد فى مذكراته :

« ان فكرة كتاب له معالم محددة كانت خارج نطاق تفكيرى كلية عندما بدأت فى الكتابة • ولم تكن حرفة الأدب ضمن الحرف والآمال التى يخلقها الانسـان ويتخيلها من آن لآخر فى أحـلامه وفى لحظات سكونه » •

وعندما بدأ الكتابة فى قصته الأولى كان يعمل على سفينة كنغولية وكان لهذه الرحلة الى افريقيا أثرها فى قصته « قلب الظلام » كما عملت على سرعة نضج أفكاره وتعميق نظرته كما انها جعلته يحترف الكتابة ويترك البحرية • فقد ضعفت صحته على اثر مرضه بحمى الملاريا وعندما استعاد صحته عاد الى السـفينة « تورينز » حتى عام ١٨٩٣ • وقابل « جالزورذى » على ظهر السفينة وتوطدت بينهما أواصر الصـداقة • وعلى ظهر هذه السفينة ، وفى آخر رحلة له ، عرض مخطوط قصته الأولى على أحد خريجى جامعة كمبردج وهو و•هـ• جيكس الذى شجعه وطلب منه أن يتمها ، وعندما ترك كونراد السفينة « تورينز » هذه المرة لم يعد للبحر مرة أخرى • وانتهى من القصة وسلم مخطوطها الى دار نشر « فيشر انوين » فى ٤ يوليـو سنة ١٨٩٤ وكان ادوارد جارنيت كاتبا شابا يعمل فى هذه الدار • وقرأ جارنيت المخطوط وأعجب بالقصة أيما اعجاب وقبلت القصة ونشرت • وعلى اثر تشجيع جارنيت له قام بكتابة قصته الثانية واستمر فى الكتابة بانتظام ، ولم يمض عام بعد ذلك الا وأخرج كتابا • واستمر كونراد يكتب لمدة تسعة وعشرين عاما – من عام ١٨٩٥ حتى وفاته عام ١٩٢٤ • وأخرج خمسة وثلاثين كتابا فى القصص والمقالات والمسرح والرسائل• ومن أهم قصصه « طيش الماير » ١٨٩٥ – طـريد الجـزر ١٨٩٦ – لورد جيم ١٩٠٠ – الورثة ١٩٠١ – نوسترومو ١٩٠٤ – المخبر السرى ١٩٠٧ – تحت عيون غربية ١٩١١ – مصادفة ١٩١٤ – النصر ١٩١٥ – الخط الوهمى ١٩١٧ – السهم الذهبى ١٩١٩ – النجدة ١٩٢٠ – طبيعة الجريمة ١٩٢٤ • ومن كتبه الاخرى : مرآة البحر ١٩٠٦ بعض الذكريات ١٩١٢ ونشرت تحت عنوان « سجل شخصى » •

وبعد نجاحه وشهرته ظل فى معزل عن معاصريه وعن التيارات والحركات الأدبية المختلفة • وكان من بين أصدقائه القليلين هـ•ج•ويلز وهنرى جيمس • وظل كونراد بعيدا عن أعمال فـرويد وعن النظريات العلمية الحديثة ، ولم يقرأ شيئا عن جيمس جويس أو فيرجينيا وولف أو د• هـ• لورنس ومن بين فحول القصة الحديثة لم يكن يعلم شيئا الا عن اندريه جيد وبروست • وبالرغم من عزلته واغترابه النسـبى استطاع أن يبلور ويصهر فى بوتقة نفسه تجاربه ودراساته عن القصة الفكتورية حتى جعل منها نوعا قويا

فريدا فى الادب الانجليزى الحديث • وفى بدء حياته الادبية كانت القصة بالنسبة له وعاء يضم تجاربه الماضية وكانت مقدرته تكمن فى سيطرته على مادته سيطرة تامة وفى قدرته على بلورة القيم الخلقية من قوة الارادة كما كان يحقق « رؤية » القيمة الخلقية من زوايا مختلفة حتى تتجسد الفكرة الرئيسية أمامنا • ويعمد كونراد الى اشراك القارئ معه فى المسئولية عن طريق العرض الدرامى لمواقفه وشخوصه وبهذا التكنيك ينتمى الى الأدب الحديث بصلة قوية فهو لا « يصف » بل « يقدم » •

٣ ـ أعماله وفنه القصصى :

يختلف أسلوب كونراد فى كتابة القصة اختلافا كبيرا عن أسلوب معاصريه أمثال جالزوردى و ه•ج• ويلز وآرنولد بينيت وتدور حوادث معظم قصصه اما فى جزر الهند الغربية أو على ظهر السفن فى عرض البحر • وقد قرظته فيرجينيا وولف فى مقال لها عن القصة الحديثة واعتبرته كاتبا يستحق منا التقدير دون قيد أو شرط لأنه لم يكن كاتبا « ماديا » مثل بينيت أو ويلز بل كان مثل جيمس جويس يكتب بروح شاعرية فائقة • فلم يكن كونراد يهتم بالتقدم العلمى كثيرا ولم تجتذبه النظريات الفلسفية الحديثة أو علم النفس أو الثراء المادى ، وكان كثيرا ما يتحسر على أيام السفن الشراعية الجميلة • ويقدم لنا كونراد فى معظم قصصه الصراع بين الانسان والطبيعة الثائرة ويبين لنا مدى الغموض والأسرار التى تكتنف الروح الانسانية •

ان ما تتميز به قصص كونراد هو قدرته على خلق مواقف معينة يضع فيها شخوصه ازاء محنة معينة بحيث لا نستطيع أن نطبق عليها قوانين اجتماعية أو خلقية • فالعالم الذى تصوره قصصه بعيد كل البعد عن المجتمع الفكتورى العتيق بتقاليده البالية ، وبعيد كل البعد عن أى مجتمع آخر • ويتحدث الينا كونراد أحيانا فى قصصه كما لو ان المجتمع الذى يعنيه هو المجتمع الصغير الميكروكوزمى الذى نجده ممثلا على ظهر سفينة فى وسط المحيط • ويذكرنا فى هذا الشأن بقصة هيرمان ميلفيل « موبى ديك » أو الحوت الابيض• وتنقلنا قصص كونراد الجيدة من أحسن ما كتب فى القرن التاسع عشر الى أروع قصص القرن العشرين • واذا اعتبرناه كاتبا مجددا تجريبيا فيجب علينا أن نعترف أنه توصل الى هذا التجديد فى فن كتابة القصة بطريقة لا شعورية • وقد استمد طرقه فى التعبير الأدبى من كتاب مختلفى المشارب أمثال لورنس ستيرن وريتشاردسون وديكنز ودوستوفسكى وفلوبير وهنرى جيمس وأضاف الى أساليبهم فى كتابة القصة فنه « الكونرادى » الخاص به وبعد نظره وثرائه اللغوى • فقد كان يؤمن ايمانا عميقا بأن القصة وسيلة جادة فى التعبير تفوق فى امكانياتها الشعر والمسرحية • ولهذا كان لديه رغبة صادقة فى انعاش القصة الفكتورية وامدادها بدماء جديدة تبعث فيها الحيوية ، ومن ثم فقد نجح فى خلق جو جديد موضوعى فى عالم القصة الحديثة • واذا حكمنا على كونراد بعد قراءة قصتيه الأولتين « طيش الماير » ، « طريد الجزر » فاننا سنجد أنفسنا مضطرين الى اعتباره كاتبا فكتوريا لأنه يتبع الاسلوب الفكتورى فى السرد المباشر والوصف • وسنجد انه كان مشغولا بأساليب كتاب القصة فى نهاية القرن • وتصور القصتان أصدق تصوير فترة متعبة ، فترة تراجع وتخاذل وأحلام وتكاسل ، ففى القصتين جو غريب عاطفى بدائى يزخر بمناظر الغابات والمستنقعات التى يعيش فيها آدميون لم يصلهم من أساليب الحضارة الا القليل • وتتكون خلفية هاتين القصتين من صور واتجاهات ومواقف ووجهات نظر متداخلة • وتتغير هذه المادة الخام لقصتيه الأولتين فيما بعد فى قصصه التالية وتبدو لنا فى قوالب جديدة بعد أن تم لكونراد أقلمتها فى المناظر العاصفة فى « قلب الظلام » و « لورد جيم » ، « نوسترومو » ، « المخبر السرى » •

ولم ينجح كونراد فى قصصه الأولى كما نجح فى قصصه الأخيرة ، وفشل فى أن يحول المنظر الدرامى الى موقف مأسوى • ولكنه عندما بدأ فى كتابة مقدمة قصته الثالثة كان على ثقة من نفسه وكان يدرك أنه على أبواب فتح جديد فى عالم القصة • والمقدمة والقصة توحيان بأنه كان قد بدأ يهتم بالرمزية والايحاء الرمزى فى طريقة تشكيل القصة • فحوادث قصته « زنجى على السفينة نرجس » تدور على ظهر سفينة فى عرض البحر ، أى فى عالم خاص مقفل بعيد عن عالمنا • واستطاع كونراد أن يخلق عالما صغيرا يرمز الى العالم الكبير الخارجى بمواقفه المتعددة وأن يبرز الحيرة التى تواجه مجموعة من الرجال عندما يتسلط الخوف عليهم وتبدأ الخرافات فى زعزعة ثقتهم بأنفسهم • وكان اهتمام كونراد فى ذلك الوقت يدور حول

العلاقات بين الفرد والمجتمع والدور الذى يلعبه الفرد فى صراعه مع المجتمع • فالزنجى « جيمس ويت » بطل القصة ومحورها يرمز الى القوانين أو المطالب الأخلاقية التى يفرضها النـاس فى أوقات الشـدة على الآخرين •

ولقد كتب كونراد هذه القصة بعد أن كان قد سيطر على اللغة الانجليزية سيطرة تامة وتمكن من تكنيك فريد خاص به • وتتميز القصة بقدرته على خلق الأجواء المناسبة لمواقفه المميزة فهى قصة أجـواء وليست قصة درامية تتميز بالحركة • وأعجب بها كونراد بعد الانتهاء منها وقال حينئذ : « ان هذه الصفحات قد ترفعنى أو تسقطنى » • واذا كانت هذه القصة أقل من قصصه التالية فى مستواها الفنى الا انها تعتبر دراسة فريدة فى نوعها استطاع كونراد أن يضمنها عصارة تجاربه على ظهر السفن وبهذا أصبحت قصـة لا يمكن لأى قصصى آخر أن يكتبها سوى كونراد •

وليس للقصة حبكة بالمعنى التقليدى فهى تشبه « العجوز والبحر » لهيمنجواى وتقدم لنا القصة وصفا دقيقا لرحلة بحرية على ظهر سفينة شراعية من بومباى الى لندن عبر المحيط الهندى وحول رأس الرجاء الصالح ثم شمالا الى انجلترا • والجزء الأكبر منها ترجمة ذاتية ، فقد قام كونراد برحلة مماثلة على ظهر سفينة اسمها « نرجس » •

وأحداث القصة ـ اذا جاز لنا أن نطلق على ما يجـــول بخواطر الشخوص أحداثا ـ هى أحـداث سيكلوجية ، الدراما الانسانية فى حياة أفراد وضعتهم الأقدار وجها لوجه أمام المحيط فى أبشع صـورة وأقساها • وأطراف القصة ومحاورها الرئيسية التى يدور حولها الصراع النفسى هم بحارة هذه السفينة وأهمهم رجل انجليزى سوقى محرك للفتن والاضطرابات ورجل آخر زنجى مسلول يحتضر • ويحلل كونراد أثر هذين الشخصين تحليلا دقيقا ويبين أثرهما على باقى أفراد طاقم السفينة ، وذلك الطاقم الذى بدأ يتفكك من جراء فقد أفراده روحهم المعنوية بسبب القسوة فى المعـاملة والتعب والاجهـاد والخوف • ونظرا لعدم تأكدهم من مرض الزنجى ، وهل هو مريض حقا أم يتصنع المرض لكى يتهرب من العمل ، يبدأ الشك فى التسرب الى نفوسهم ويسمم الجو المحيط بهم •

ويقول كونراد عن الزنجى : « لقـد خلب لبنا ، ولم يدع الشك يمـوت فينا وطغت شخصيته على السفينة • لقد داس على احترامنا لأنفسنا وتقديسنا لها لأنه كان يتآكل باستمرار وبسرعة • وكان يثبت لنا يوميا حاجتنا الى الشجاعة الخلقية • لقد أفسد لنا حياتنا » • وينتهز « دونكن » الشرير الفرصة ، فقد كان ذلك الشخص الذى يعرف كل شىء عن حقوقه ولكنه لا يعرف شيئا عن الشجاعة والمثابرة والايمان وقوة الاحتمال أو حتى عن الاخلاص الذى يربط أفراد طاقم السفينة بعضهم ببعض • ويستغل « دونكن » هـذه البعثرة فى صفوف البحارة ويضعف ايمانهم بالسلطة والقيادة بوجه عام • وأثناء العاصفة الطويلة عند رأس الرجاء الصالح ، تلك العاصفة التى كادت أن تقضى على السفينة ، يتخلى عن مسئولياته وذلك عن طريق تظاهره بالعطف على الزنجى المريض ويثير العصيان فى السفينة • وقد أبدع كونراد فى وصفه للعاصفة وصفا دقيقا قويا يثير فى نفوسنا الرعب من البحر وقسوته وهذا الوصف يذكرنا بقصته « الاعصار » • وأخيرا ترسو السفينة ويتفرق رجالها كل لحاله : « وأى بحار يغادر السفينة ، كأى رجل آخر ، يغادرها **الى الأبد ، ولم أقابل أحدهم أبدا مرة أخرى • ولكن ، أحيانا ، يجلب تيار الربيع الذكريات بقوة ويثير سطح ذلك النهر الغامض • وحينئذ تنساق امامى سفينة فوق مياه مجرى مجهول ـ شبح سفينة طاقمها من الأشباح • يمرون امامى ويشيرون الى من خلال البرد الكثيف • الم نعتصر ، سويا وعلى صفحة البحر الخالد ، معنى من حياتنا الآثمة ؟ وداعا ، أيها الاخوة ! لقد كنتم مجموعة طيبة • طيبة كأى مجموعة طيبة اخرى كانت تطوى بقبضات أيديها قلع السفينة الأمامى المتطاير بصيحات عالية » •**

وتهتم هذه القصة بالصراع النفسى بوجه عام ويزيد من حدة هذا الصراع والتوتر فى نفوس رجال السفينة جو المحيط العاصف ومحنة الزنجى المريض • واستطاع كونراد أن يجسد هذا الصراع ويجعلنا « نرى » كل شىء • ونظرا لشاعرية أسلوب القصة تظل عالقة بالذهن وتثير فينا شتى الأحاسيس لتركيبها الملحمى ، فهى بحق ملحمة البحر الخالدة لكونراد ، تمجد نضال الانســان مع عوامل الطبيعة الجبارة ،

فالبحر فيها شخصية حية تستعبد قلوب الرجال وتعذب أجسادهم ٠ ويبدو أن كونراد قد أفرغ تجاربه فى مدى عشرين عاما فى البحر فى هذه القصة التى تشبه الحلم أو الكابوس أو الرؤية كما هو واضح من الفقرة المترجمة من خاتمتها ٠

ويمضى الوقت ، ويسيطر كونراد على فنه القصصى ويتمكن منه ، وتبدأ حبكات قصصه فى التعقيد وتتداخل الحوادث والمواقف والشخصيات ٠ ولكنه ظل حريصا على أن يبقى هيكل كل قصة واقعيا يرتكز على حدث حقيقى أو ملاحظة دقيقة أو تجربة واقعية اشترك هو فيها أو حصل على تقرير أو رواية عنها من شاهد عيان ٠ وما ان يتلقف ذهن كونراد هذه المعلومات حتى يبدأ خياله فى اجترارها ، وتأخذ التضمينات النفسية فى الظهور وتخرج لنا شخوصه فى النهاية عارية من كل ادعاء ٠

وفى قصته « قلب الظلام » يعود كونراد الى مشكلة مماثلة ولكن بطريقة أخرى ، ويبرز الصراع بين الوهم والخداع وبين الحقيقة والواقع ٠ وتصور القصة ما يمكن أن تكون عليه الحياة عندما يفقد الانسان احساسه بالمسئولية ٠ وتعتمد القصة على تراكم الصور وتواليها فى غير نظام زمنى ولكنها جميعها تلقى ضوءا على الفكرة الرئيسية اذا ما جمعت وصنفت ٠ والفكرة المحورية هى فساد خلق الفرد ، وقد ساعد



التقابل فى المناظر والتباين فى الشخوص كونراد على المقارنة وعلى سرد أكثر من تجربة واحدة ومن زوايا مختلفة • ويمكن قراءة القصة وتفسيرها على مستويات كثيرة : على المستوى النفسى وذلك عندما ينضج « مارلو » ، شخصيتها الرئيسية ، ويدرك ان الشر حقيقى فى العالم ، أو على المستوى القصصى واعتبار القصة سردا عاديا مباشرا لرحلة مارلو الى الكونغو وتجاربه هناك ، أو على المستوى السياسى وفيه يوحى الينا كونراد ، بسخرية لاذعة ، بأن الشهرة كثيرا ما تعتمد على أكاذيب ، وعلى المستوى التاريخى حين يهاجم الاستعمار على أنه قوة آثمة شريرة تنخر فى عظام المواطنين •

لورد جيم ١٩٠٠ :

ان فى هذه القصة نقط ضعف فنية لأنه بدأها كقصة قصيرة تعالج حادثة السفينة « باتنا » ثم أضاف اليها فيما بعد تركيبا زمنيا معقدا على غرار تكنيك تقابل الألحان فى الموسيقى أو « الفيوج » حتى تضخمت وتعقدت وأصبحت استكشافا لمشاكل عميقة كالخطيئة وخداع النفس والكبرياء ومعظم القوانين الخلقية الغامضة• وهذا التفرع بما فيه من خصوبة يكشف لنا عن أعماق بعيدة فى نفس كونراد وعن الفنون الجديدة فى كتابة القصة • وجو القصة جو مكفهر قاتم غامض وتعتبر قراءتها من أشق الأمور على القارىء العادى الذى تعود على طريقة السرد المباشر فى تسلسل زمنى منطقى ، فأحداثها لا تجرى على نسق واحد أو سرعة واحدة بل تتحرك الى الأمام وترتد الى الخلف فى سرعة تتطلب من القارىء أن يكون على قسط كبير من القدرة على التركيز • ولا يأتى الغموض من ناحية الشكل والتكنيك فحسب بل من ناحية موضوعها ، فمارلو الذى يقص علينا الجزء الاكبر منها ومن قصة لورد جيم يوحى الينا ، من كثرة أسئلته وتردده ، بعدم وضوح الأمور له ، فالموقف الرئيسى ذاته غير واضح المعالم •

ولورد جيم بحار ممتاز ولكنه رجل رومانتيكى مهذب مثقف سمح لنفسه بأن يخدعه قبطان السفينة وبحارتها ويقنعوه على ترك السفينة بعد أن أدخلوا فى روعه انها غارقة لا محالة • وكان من نتيجة هذا القرار الذى اتخذه أن ألغيت رخصته كضابط بحرى بعد محاكمته • وتعتبر شخصية جيم غاية فى التعقيد فقد كان يعتقد فى قرارة نفسه بأن ما قام به كان له ما يبرره وفى هذا نوع من خداع النفس • ولكنه يراودنا سؤال آخر : هل كان فى بقائه لمواجهة المحكمة نوعا من الطيبة فى خلقه أم نوعا من الرومانتيكية البطولية ، وهل يختلف جيم فعلا عن قبطان السفينة وأفراد طاقمها ؟ وهل هو يواجه الواقع بمثوله للمحاكمة فعلا أم يهرب منه ؟ والقصة بعد كل هذا ليست دراسة لشخصية رومانتيكية تحاول أن تصلح خطأ ارتكبته فى الماضى عن طريق الشجاعة والتضحية ولا هى دراسة لرجل ضعيف يمنعه كبرياؤه من الاعتراف بضعفه ، ولكنها توحى الينا بالاتجاهين فى تفسيرها •

وتشبه شخصية جيم الى حد ما شخصية هاملت ويلاحقه فساد الخلق فى أقنعته المختلفة وهو يحاول الهرب بعيدا عن ماضيه المؤلم •

ويتكون عمود القصة الفقرى من ثلاث قرارات تزداد فى الأهمية بمرور الوقت ، وهى القرارات التى يجب أن يتخذها جيم فى حياته ، ويبدو لنا فشله فى هذه الأزمات فى احباط كل محاولة له لكى يصحح النتائج المترتبة على قرار سابق • فهو شاب صاحب دوافع نبيلة وله عقل موغل فى المثالية ، شاب يراوده حلم يراوغه دائما • ولعدم قدرته على اتخاذ قرارات حاسمة فى الأوقات المناسبة نراه يرتكب خطأ تلو الآخر فى الحكم على الأشياء وهكذا تتطور شخصيته خلال ثلاث مراحل متتابعة ، تتميز كل مرحلة منها بضرورة الوصول الى قرار حاسم •

وأول هذه المراحل هى مرحلة الدراسة لأن عدم اتخاذه لقرار حاسم انساب الى عقله الباطن وأخذ هذا الشعور بالاثم ينمو ويترعرع مع تشعب تجاربه واتساع رقعتها فيما بعد حتى أصبح عاملا مدمرا لشخصيته• فاتته فرصة اظهار بطولته بينما هرع زملاؤه لتلبية النداء ولكى يبرر تصرفه نراه يتحدث عن هذه الأزمة بنوع من الرومانتيكية الخيالية • وثانى هذه المواقف هو تركه للسفينة « باتنا » تحت تأثير طاقم السفينة الذى عمل على تحطيم روحه المعنوية وتفلت منه الفرصة الثانية لكى يثبت بطولته • وعندما يقفز الى قارب النجاة يدرك فجأة أنه يقفز الى جحيم أبدى أو يعيش كابوسا مزعجا لن يفيق منه طوال حياته • ونجد جيم فى المرحلة الثالثة وهى تبعد عن المرحلتين الأولتين فى الزمان والمكان ، ولكن هذه المرحلة الثالثة كانت

قد تكيفت بالمرحلتين السابقتين وتعتبر امتدادا طبيعيا لهما · وأخيرا عندما يترك « براون » يهـرب من « باتوسان » كان جيم يعلم جيدا ان القرار الحاسم لا يمكن أن يتخذه الا انسان متكامل الشخصية لا يكون نهبا لأفكار تتسلط على عقله أو مرتعا لدوافع متنافرة تحبط قراراته · وأصبح جيم يقاسى من الشـعور بالضعف لأنه كان يدرك انه شخص موصوم لا يحق له أن يحكم على الآخرين حتى ولو كانوا من المجرمين أمثال « براون » · ويقول براون لجيم فى القصة : « دعنا نسلم بأن كلا منا رجل ميت ، ودعنا نتناقش على هذا الأحساس بقوله : « كان يجرى بينهما خلال صراعهما اشارات خفية الى أصلهما الواحد ، افتراض وجود تجربة مشتركة بينهما ، ايحاء سقيم باحساسهما بالذنب ، احساس مبهم مشترك » ·

ومن هذه السلسلة من القرارات الفاشلة ينسج كونراد حوادث قصته ومواقفها الدرامية ، ومن تشعبها وتفرعها تزداد دائرة التعقيدات اتساعا طول الوقت وتتشابك الحوادث والشخوص · ويرتبط بين هـــذه المواقف المختلفة ويؤلف بينها نوع من التركيب الموسيقى لشكل القصة فاحيانا تتابع المناظروالمواقف وأحيانا تتواكب زمانيا ومكانيا · وقد حرص كونراد على أن يعكس أثر التجارب والقرارات الماضية وردود أفعالها واختلاطها بالمواقف الحاضرة · وتشبه هذه القصة فى تركيبها قصة الدوس هكسلى « ضرير فى غـزة » كما تشبه طريقته فى استعمال تجارب الماضى طريقة علماء النفس التحليلى للذكريات والتجارب الماضية كعامل فعال فى تكييف انفعالاتنا وردود أفعالنا فى الوقت الحاضر ·

وربما تسهل عملية تتبع السرد فى القصة اذا أدركنا التشابه بين تركيب القصة وتركيب الفيوج فى الموسيقى لأن كونراد يلتقط بعض المواقف التى تبدو متنافرة أو ينتقى أجزاء من تسلسلات ثم يعمل على تنغيمها فى الصفحات التالية عن طريق التكرار والتداخل حتى تتضح معالم الفيوج بأكملها فى نهاية القصة· وهذا النوع من السرد ، سواء فى هذه القصة أو فى قصة « تقابل الألحان » لألدوس هكسلى ، يحاول أن يقلد تعدد النغمات فى الموسيقى أو تعدد الأصوات التى يقابل الواحد منها الآخر · فمثلا ، عندما نكون قد وصلنا الى منتصف الجزء الاول من القصة يكون كونراد قد قام بتقديم خمس نغمات أو خمسة أصوات ، لم يصل واحد منها الى نهاية تطوره :

أولا : نرى مارلو وهو يسرد القصة ويعلق عليها لمستمعيه ·

ثانيا : منظر لبدء الحوار بين جيم ومارلو ·

ثالثا : قصة السفينة « باتنا » من وجهة نظر جيم ·

رابعا : الفترة التى تمر بين مادار فى قاعة المحكمة من سرد لوقائع معينة والحوادث الحقيقية التى دارت على ظهر السفينة · بتب

خامسا : كونراد فى خلفية القصة وهو يحرك « مارلو » ·

واذا قمنا بعمل مقارنة مبسطة بين التسلسل الزمنى الميكانيكى للحوادث فى جانب وبين طريقة عرض كونراد للتسلسل فى جانب آخر ، فسنرى كيف تمكن كونراد من مزج نغماته :

الترتيب الزمنى للحوادث

١ ـ رحلة السفينة « باتنا » ·
٢ ـ اصطدامها بحطام السفينة ·
٣ ـ جيم يترك السفينة ·
٤ ـ المحاكمة ·
٥ ـ احساس جيم بالهزيمة ·
٦ ـ تدخل مارلو فى حياة جيم ·
٧ ـ جيم يعمل كاتبا فى أحد الموانى ·

طريقة العرض فى القصة

٧ ـ جيم يعمل كاتبا فى أحد الموانى
١ ـ رحلة السفينة « باتنا » ·
٢ ـ اصطدامها بحطام السفينة ·
٤ ـ المحاكمة ·



٦ ـ تدخل مارلو فى حياة جيم ٠
٥ ـ احساس جيم بالهزيمة ٠
٣ ـ ترك السفينة « باتنا » ٠

وقد ذهب كونراد الى أبعد من ذلك ، فلم يترك كل منظر من هذه المناظر كما هو بل تركه معلقا ريثما يتم له العمل فى المنظر الآخر (تشبه هذه الحيلة البارعة ما قام به جيمس جويس فى الفصل العاشر من قصته « عليس ») فبؤرة هذه العاصفة هى المحاكمة (رقم ٤) ومنها تتفرع الحوادث وتتشعب وتتـداخل وتترابط ولهذا نجدها فى منتصف الترتيب الزمنى للحوادث وفى طريقة العرض فى القصة ٠

ونتساءل : ما الذى كان يرمى اليه كونراد من هذه البلبلة ومن هذا السرد الذى يقفز من موقف لآخر دون مقدمات ويجعل قارئ القصة يبذل فى تتبع حوادثها جهدا شاقا ؟ لقد أراد كونراد ، عن طريق عرض شخصياته من زوايا مختلفة ، ان يعطى للقارئ فكرة عن سيولة الشخصية وتغيرها المستمر ٠ وقد تبدو المواقف جامدة ، والانتقال من منظر الى آخر بسرعة وكأنه تمزيق لنسيج القصة ، ولكننا نرى التلاحق والحركة اذا استعرضنا حوادثها كما فى الشريط السينمائى ٠ وعندئذ ستبدو الشخوص فى حركة مستمرة وهذا هو ما أراد كونراد ان يعرضه علينا : حياة الشخوص فى حركاتها ٠ والحياة عنده تعنى الامساك بسيولة الفرد فى تلك اللحظات والمواقف الخارجية التى تظهر فيها شخصيته وما بداخله ٠ وكان كونراد يفتقر فى فنه الى « تيار الوعى » أو المونولوج الداخلى كما نراه فى قصص فيرجينيا وولف أو جيمس جويس ولهذا استعاض عنه بالتركيز على الفرد من خارجه ورصد حركاته وتصرفاته فى مواقف معينة حتى تمكن من الوصـول الى أعماقه ٠ فهـو اذن يعمل من الخارج الى الداخل ، فكل منظر وكل موقف وكل شخص من شخوص القصة يعطينا شيئا عن حالة جيم النفسية ٠ فانتحار « برايرلى » مثلا يوحى الينا بفشل جيم ، وخيانة « براون » توحى الينا بتخلى جيم عن السفينة « باتنا » ، واحساس الضابط الفرنسى بقيمة الشرف هو حلم جيم ، واخلاص « جيويل » ، (جوهرة) كما يوحى اسمها ، يقابله ماضى جيم الملوث ، أما القبطان الألمانى للسفينة باتنا فهو الحقيقة فى أقسى صـورها ويرمز الى الخوف الدفين فى نفس جيم واحساسه بالاحباط ٠ واذا كان قبطان السفينة يمثل الواقع المؤلم فان مارلو يمثل الواقع الباسم ، فموقفه يقـابل حب جيم للمغامرة ٠ وعندما يعيش جيم فى أحلامه وخياله يجذبه مارلو الى الواقع بقسوة فى بعض الاحيان، ويذكره بماضيه ٠

ويقاسى جيم فى القصة لأنه لا يستطيع ان يواجه الواقع وفى ذلك المنظر بين شتاين ومارلو ، يقارن شتاين بين الانسان والفراشة ٠ فالفراشة تقبل الواقع وتعيش فيه ، أما الانسان فيحاول أن يصبح اما قديسا أو شيطانا ٠ فهو يحاول دائما أن يرى نفسه فى صورة لا يستطيع أن يحققها ٠ والسؤال ، كما فى هاملت : حياة أم ممات ، تلك مشكلة المشكلات ؟ أو كيف نعيش ؟ والجواب هـو أن نتبع الحلم الذى يحطمنا فى النهاية ونرضخ للواقع ونظل كما نحن لأن فى هذا الاستسلام للواقع خلاصنا ٠ ويعتقد كونراد ان الانسان مخلوق محدود لما يشعر به من نقص فى عالم لا يستطيع أن يفهمه ويؤمن بأن القسوة والدمار أشياء ضرورية لحياة الانسان ، وان الامل الوحيد للخلاص من دمار النفس هو تلك الأحلام والأوهام التى يحمى بها الفرد نفسه من الواقع المؤلم ٠ وكما يقول روبرت بن وارين فى مقالة عن « نوسترومو » :

« ان آخر حكمة هى ان يدرك الانسان ان قيمه ، ولو أنها مجرد أوهام ، ضرورية كضرورة الوهم ٠ وهذا الوهم غالى الثمن ، وهو من صنع انسانيته ، وهو فى النهاية حقيقته الوحيدة ٠ »

ونجد فى « شتاين » (والاسم مشتق من كلمة « صخرة » فى اللغة الانجليزية) رجل كونراد المثالى الذى يستطيع أن يكون مرشدا للآخرين عن طريق حكمته وامكانياته التى لا نهاية لها ٠ فهو يجمع بين القدرة على التأمل والقدرة على العمل الايجابى والحركة ولهذا فهو يمثل ، فى نظر كونراد ، ما يجب أن يكون عليه انسان القرن العشرين أو الرجل المتكامل الشخصية ٠

ولقد أحاط كونراد بطل قصته بمجموعة من الرواة يحدثنا كل واحد منهم بطريقته الخاصة ومن زاويته عن جيم ، وعن طريق تجميع أطراف القصة وأجزائها المختلفة تمكن كونراد من خلق شخصية تتمتع

بقسط كبير من الواقعية • وحتى لو أردنا أن نبسط فنه المعقد فى السرد فلن نتمكن من تبسيط الشكل دون أن نتدخل فى المحتوى • فالثلاثة أبواب الاولى فى القصة يقوم بسردها كونراد ثم يحدثنا فى الباب الرابع عن جيم لفترة قصيرة ثم يقدم لنا مارلو على انه الشخص الذى يعرف قصة جيم • وفى الفصل الخامس يحل مارلو محل كونراد ويستمر فى روايته حتى الباب الخامس والثلاثين ونكون قد انتهينا من قراءة ثلثى القصة تقريبا • ويبدأ الباب السادس والثلاثون بطريقة جديدة فى السرد ، بخطاب يرسله مارلو بعد عامين وفيه يقص علينا ما تبقى من قصة جيم ، ويقوم الشخص الذى تسلم الخطاب بعملية السرد • وفى الباب السابع والثلاثين يصرح مارلو بأن مصدر المعلومات التى فى الخطاب هو « براون » • وينتهى الخطاب وتبدأ قصة مارلو عما حدث فى الباب الثامن والثلاثين • وهذا الفصل الذى يبدأ بتعليق مارلو : « ان القصة كلها تبدأ برجل اسمه « براون » يستمر حتى تنتهى القصة بموت جيم •

وتحل الغابة محل البحر فى « لورد جيم » ، فهى ترمز الى ذلك المستودع الذى تنمو فيه البدائية والكسل والى صراع الانسان مع عوامل الطبيعة • فالغابة التى تحيط بجيم فى « باتوسان » ليست جنة عدن فهى مملوءة بجذوع الأشجار الميتة وبالاغراء القاتل وبالأزهار التى تستعمل فى الجنازات ولها رائحة تشبه رائحة المنزل المنكوب ويكتنفها سكون رهيب وكأن الارض قد أصبحت قبرا كبيرا واحدا •

ولم ينجح كونراد فى أن يجعل من جيم بطلا مأسويا لأن جيم لا يواجه واقعه بل يهرب منه دائما ، وآخر صورة لدينا عنه هى الفقرة التى يصف فيها مارلو آخر مقابلة له مع جيم وفيها نقرأ :

« **كان أبيض اللون** من قمة رأسه الى أخمص قدمه وظل ظاهرا فى ظلام **الليل الحالك خلفه والبحر عند قدميه والفرصة قريبة** منه بجانبه ـ ولكنها خافية • **وماذا** نقول ؟ هل ما **زالت خافية** ؟ **لست أدرى** • **لقد كان هذا الهيكل الابيض** يبدو لى فى **سكون الشاطىء والبحر** وكأنه يقف فى **قلب لغز عميق** • **وكان الشفق يخبو من السماء** فوق رأسه ، **واختفى الساحل الرملى** من تحت قدميه **أما هو فقد تضاءل حتى أصبح أكبر قليلا من الطفل** ، ثم مجرد ذرة ، نقطة بيضاء صغيرة تشد الى **نفسها كل الضوء الذى خلفه عالم مظلم ••• وفجأة ، ضاع منى** » •

وهكذا يظل جيم بطلا رومانتيكيا تفشل رومانتيكيته فى أن تلحق بواقعيته ، أما واقعه فلا يحقق له ما يصبو اليه خياله وظل هذا القصور بين الحلم والواقع يلازمه طوال حياته •

نوسترومو :

تعتبر قصة « نوسترومو » قصة مغامرات غريبة وجريئة فى استغلالها للاضطرابات الثورية فى جمهورية كوستاجوانا الخيالية في أمريكا الجنوبية • ويستغل كونراد هـذه الخلفية لقصته التى تهتم فى الحقيقة بالصراع بين المثالية الخلقية والاهتمام المادى أحسن استغلال • وحبكة القصة سهلة الى حد ما ولكنها تكشف عن اغتراب الفرد وعزلته وخاصة اذا ما تشابكت مصالحه وغاياته مع مصالح وغايات آخرين • ولهذا تتسع رقعة المواقف من جراء استغلال كونراد لمادته السياسية والتاريخية والنفسية •

وكان هدف كونراد حتى الآن أن يعزل ما يريد وصفه أو تقديمه ثم يقوم بتحليله تحليلا دقيقا ويبقى طول الوقت بعيدا عنه • وعندما نصل الى « نوسترومو » يكون كونراد قد تعلم الشىء الكثير • فالقصـة تعتبر خلاصة للتجربة الانسانية وتتميز بقوة انطباعاتها مما يجعلنا نقول عنه كما قال هنرى جيمس : « انه واحد من هؤلاء الذين لا يفوتهم شىء » • والقصـة ، مع كل ذلك تنتمى فى بعض أجـزائها الى العصر الفكتورى ، وقد أشار اليها كونراد بقوله انها « مجهود جرىء » ، فهى تجربة رائدة وطموحة فى ميـدان الأدب الانجليزى •

ونستطيع أن نستعرض القصة من وجهة نظر واحدة ونقول انها محاولة للكشف بلا هوادة عن اثر المصالح والاهتمامات المادية السيىء على نفوس الأفراد (فعبارة « المصالح المادية » تتردد فى القصة باستمرار)، وكيف يمكن لهذه المصالح المادية أن تفسـد المجتمع • ولكن وجهة نظـر كهذه لا تفسر ما فى القصة من تضمينات تفسيرا كاملا • صحيح ان منجم الفضة يتسلط على تشارلز جولد ويفرق بينه وبين زوجته ويستحوذ

على اهتمامه كله ، وصحيح ان الفضة تفسد خلق نوسترومو الأمين المخلص ، وان الفضة هى ما يسعى اليها المغامرون من أهل البلد والاجانب الجشعين ، وصحيح ان المصالح المادية وما تتطلبه من استغلال سياسى تفسد فعلا ، ولكن المصالح المادية ، من جانب آخر ، تكشف عن مكنون الافراد وتصرفاتهم • فحكومة «رايبيرا» التى يعضدها رأس المال الاجنبى ومصالح الدول الاستعمارية نراها فى النهاية على انها رمز للاستبداد والظلم •

وقد يرى بعض النقاد القصة على انها قصة سياسية ، ولكنها لا تبشر بأيديولوجية معينة ولا تعتبر نوعا من الدعاية • وتنتهى القصة بمنجم الفضة الذى يعتبر رمزا للرأسمالية المستغلة والمصالح المادية والامبريالية الاقتصادية ، ويظل المنجم يسخر من العلاقات الانسانية ويسحقها ويسلب الحياة اليومية الانسانية أعز ما تملك ، وكأن كونراد يوحى الينا بأن نظاما آخر من الممكن أن يحل محل هذا النظام الفاسد المستغل • والانسان لا يستطيع أن يعيش فى معزل عن مجتمعه ولا بد له من أن « ينتمى » ، واذا لم يكن المجتمع ملائما فلن يكون الاغتراب حلا • وعندما يجد « ديكود » نفسه وحيدا على جزيرة مهجورة ومعه حمله الثقيل من الفضة التى استولى عليها هو ونوسترومو يدرك أن وحدته لا تطاق : « وبعد ثلاثة أيام كان ينتظر خلالها أن يرى وجه رجل ، وجد ديكود نفسه يشك فى وجوده كفرد » وينتحر ديكود • وقد وضع كونراد ديكود فى القصة لأنه كان فى حاجة الى صوته كراو ، يلاحظ ويسجل ، ولكن عندما وجد كونراد انه لا شىء هناك يستحق التسجيل دفعه الى الانتحار لأنه لم يستطع أن يجعل ديكود يواجه العدم الذى كان يراه فى دخيلة نفسه •

وفى « نوسترومو » ، كما فى «لورد جيم» نجد أن التسلسل الزمنى يتحكم فى سير الحوادث • وطريقة كونراد فى السر هنا طريقة جديدة ، فنوسترومو نفسه شخصية مركبة ، بمعنى أنه شخصية رسمها المؤلف من الخارج وبذلك خلق شخصية منفصلة تماما عن جسد صاحبها • فنحن نسمع عن المسمى نوسترومو بطريقة جزئية متقطعة ، وهذه الأشلاء من شخصيته تتجمع رويدا رويدا ومن زوايا مختلفة وتتآلف حتى تتكشف لنا شخصية كاملة فى النهاية • وعن طريق الزمن الدائرى لا الزمن الطولى أو الخطى يقفذ كونراد من حاضر قصته الى أزمنة ماضية مختلفة وبهذا تمكن من احاطة شخوصه بتعليقات وحوادث ومواقف بؤرتها تلك الشخوص • ويوضح لنا أسلوب كونراد جزءا من فلسفته واحساسه بالتاريخ أثناء صنعه ، ذلك الاحساس بالتاريخ أثناء تكوينه وجريانه ، وهو احساس يدخل فى طريقة عرضه لأشخاص قصته ويشبه الى حد ما ، كما بينا ، طريقة تيار الوعى • فالتاريخ اذن « يصنع » ، وهذا ما يضمنه كونراد فى قصته ، وكل فرد له وجهة نظر يسهم بنصيبه فى صنع التاريخ سواء نطق بوجهة نظره أم لا ، وكل وجهة نظر تعكس رأيا ، وكل رأى يحمل فى طياته « فعلا » أو « رد فعل » أو نوعا من السلبية • وبوضع وجهات نظر مختلفة جنبا الى جنب ، وعن طريق التباين بين وجهة نظر وأخرى ، وعن طريق جعل كل راو أو سارد فى القصة مشتركا فى خلق القصة وتكوين حوادثها والتأثير فيها ، تمكن كونراد من اعطائنا فكرة عما يعنيه بكلمة « التاريخ » • فالتاريخ فى نظره اذن هو هذا السيل المتنافر من الحوادث الزمنية والمكانية ومجموع ما نفعله أو نفكر فيه كأفراد فى أماكن متفرقة من العالم ونتاج لحوادث متفرقة متضاربة ، وبالتالى مجموع ما نقوم به كأمم • ولهذا فلكل فرد أهميته فى هذه السلسلة المترابطة من الحوادث • وقد استطاع كونراد عن طريق عرض قصته من وجهات نظر مختلفة وعلى ألسنة عديد من الشخوص والرواة ومن زوايا زمنية مختلفة أن يتحكم فى مجرى الحوادث وأن يخلق عالما صغيرا فى حالة سيولة وتغير مستمر • وعندما جعل شخصياته تلعب دور الراوى ضمن لنفسه عديدا من الروايات والقصص لها وهى مجتمعة أثر أكبر وأقوى من الأثر الذى قد تخلفه كل واحدة منها على حدة • وهذا النوع من السرد معروف عند اندريه جيد والدوس هكسلى وجيمس جويس وفيرجينيا وولف • ومن بين رواة قصة « نوسترومو » نجد أولا ، كونراد نفسه وثانيا ، ما يقصه علينا كابتن ميتشل وثالثا ، ديكود فى خطابه الطويل ورابعا ، آراء الدكتور مونيجام وخامسا ، تلخيص كابتن ميتشل للثورة وأخيرا نوسترومو نفسه •

وتأتى الينا القصة حتى الجزء الذى نقرأ فيه عن منجم الفضة على لسان المؤلف وعلى ألسنة رواة آخرين بطريقة الاسترجاع أو الارتداد • وفى هذه المتاهة التى يختلط فيها الماضى بالحاضر وفى طريقة السرد

التى لا تكف عن اللف والدوران تبدو لنا صورة المنجم المحورية دائما وكأنها بؤرة ترتد اليها كل المواقف وتدور حولها حبكة القصة . ويشبه منجم الفضة فى القصة « العاج » الذى نراه فى « قلب الظلام » أو فشل جيم فى « لورد جيم » . وقد حرص كونراد على ابراز مغزى الفضة والمنجم فى قصته فى خطاب بعث به الى صديقه ارنست :

« ان الفضة هى محور الحوادث المادية والخلقية ، وتؤثر فى حياة كل فرد فى القصة . وليس هناك ادنى شك فى أن هذا هو ما قصدت متعمدا . وقد توصلت الى هذه الفكرة عندما اطلقت على الجزء الأول فى القصة : « فضة المنجم » وفيه قمت بسرد حكاية ذلك الكنز الغريب فوق « ازيورا » وهى حكاية لا دخل لها اطلاقا بحوادث القصة . وكلمة « فضة » تظهر فى بداية القصة الحقيقية وقد حرصت على ذكرها فى آخر فقرة فى « نوسترومو » ، تلك الفقرة التى ربما كانت أحسن مما هى عليه بدون هذه العبارة التى تحتوى على الكلمة الرئيسية » .

وشخوص نوسترومو شخوص غريبة متنافرة كثيرة العدد (قارن قصة « موبى ديك » أو الحوت الابيض لهيرمان ميلفيل) ومن جنسيات مختلفة ـ أمريكيين وانجليز واسبانيين وايطاليين وفرنسيين . وتتحدد ملامح كل شخصية وطبيعتها وتصرفاتها بالموقف الذى تتخذه حيال منجم الفضة . ويصف كونراد المنجم فى بدء قصته على انه يمثل طريقة فى الحياة ويجب أن تكون القدرة على تشغيله رمزا للنجاح عن طريق المثابرة والجد فى العمل مهما كانت النتائج (قارن « زوربا اليونانى ») .

وفى الوقت نفسه يعتبر المنجم محورا يستغله كونراد لتحليل الدوافع النفسية والخلقية والسياسية كما يعتبر رمزا لكل فكرة رئيسية فى أعمال كونراد مجتمعة . والمنجم هو الرمز الذى يظهر بعناد واصرار فى القصة من أولها حتى آخر فقرة منها ويتضخم معنى الرمز ويتسع ويتشعب حتى يشمل معانى كثيرة تتضخم بدورها وتتشعب حتى تصبح القصة أشبه بالمتاهة وهى تبسط نفسها أمامنا .

وتتسلل فكرة الكنز الى القصة فى الفقرة الثالثة فى الاسطورة التى تقول ان الانجلو أمريكيين قد ضحوا بحياتهم وهم يبحثون عن « أكوام من الذهب البراق » وهذه الاشارة المقتضبة للكارثة تعتبر نذيرا لقصة منجم الفضة الرئيسية . ويصبح المنجم وفضته ، وقد قال عنه كونراد فى مقدمته للقصة انه لا مفر منه فى هذا العالم ، المحك الأخير لمثل الانسان وقدرته على مواجهة الواقع والحياة . فالمنجم رمز للتقدم بالنسبة لتشالرز جولد الذى لولا هذا المنجم لفقد احساسه بالحياة والوجود . وتكون النتيجة ان تفقد مسز جولد عائلها . والمنجم ما هو الا تسلية لهولرويد ، الأمريكى الذى يمول المشروع ، وسببا فى نجاح مارتن ديكود فى الفوز بحب انتونيا ، ووسيلة للشهرة فيما يختص بنوسترومو . ويظل المنجم من زاوية أخرى مصدرا للطمع والسلطة فى أيدى الساسة المحترفين ، وأخيرا وبطريقة متناقضة ، مصدرا للتجديد والحياة بالنسبة للدكتور مونيجام . ويرمز المنجم أيضا الى كل فشل واحباط فردى ولهذا يعمل الرمز على مستويات عديدة ، فهو علة ومعلول ، دافع ونتيجة ، وهو تصوير رمزى للعصاب الفردى أيضا . فهو يمثل الوسيلة التى تمكن الفرد من الحصول على السلطة المادية والثروة وبالتالى يقوى احساس الفرد بنفسه ويشجع على الاثرة ويدر فوائده بطرق عديدة . واذا كان كورتز ، فى « قلب الظلام » قد احتفظ لنفسه « برأس » مصنوعة من العاج فاننا نرى جولد (ولا يخفى الايحاء الرمزى فى اسمه « ذهب ») فى « نوسترومو » يحتفظ بقلب مصنوع من الفضة . والفضة معدن يوحى بالشدة والصلابة والاخلاص والبطولة والروحانية .

ونرى المنجم ، من الناحية النفسية ، يتسلل الى أعماق بعيدة فى نفوس معظم شخصيات القصة ويصل الى ما تحت شعورهم .

ونراهم جميعا وقد أحاطت بهم ظروف تدفعهم الى مطامع مادية تجعلهم يفقدون السيطرة على أنفسهم ما عدا مسز جولد . فبينما تهتم جميع الشخوص بالمنجم من الناحية المادية نراها تهتم به من الناحية الانسانية ، وبالعواطف التى تتعارض مع المنجم وفوائده . والفضة الى جانب ذلك كله قوة سياسية واقتصادية ضخمة ، من يسيطر على المنجم وعلى الفضة يسيطر على جمهورية « كوستاجوانا » . وفى علاقته بالمنجم يظهر جولد ، بالرغم من ماديته الواضحة ، كرجل مثالى ، بينما تبدو الزوجة على النقيض من زوجها . وفلسفتها فى الحياة تتعارض مع فلسفة زوجها التى تقول « انى أستغل ما أراه » وكأنه يعتقد أن الفضة

فى استطاعتها أن تخلق فردوسا أرضيا ينعم فيه الجميع بالسعادة • ومن الناحية النفسية كان اعتقاده « ضرورة نفسية » لأنه ، بدون منجمه ، لن يصبح شيئا ، ومن هنا نشأت ضرورة اقناع نفسه بالعمل فى المنجم • وهذه الضرورة ما هى الا رغبة ملحة فى الانتماء الى شيء حقيقى ثمين أكبر من الفرد ذاته وأقوى وحرصا منه على اثبات ما يعتقد أنه صواب فى نفسه وفى التشبث بها قضاء على المخاوف التى قد تزحف الى نفسه من آن لآخر •

وتختلف علاقة نوسترومو بالمنجم اختلافا كبيرا عن علاقة جولد به ، فعلاقة نوسترومو بالمنجم علاقة معقدة • فقد كان المنجم بمثابة مصدر رزق لجولد وطريقة فى الحياة ، أما بالنسبة لنوسترومو فهو وسيلة واحدة من عديد من الوسائل التى تمكنه من الشهرة • فهو لا يهتم باستغلال المنجم والاستمرار فى الحصول على الفضة منه ، وشخصيته شخصية مرنة ليس لها جذور ولهذا يختلف عن باقى الشخصيات فى القصة باستثناء ديكود • ويطفو نوسترومو وديكود فوق الأحداث والمواقف وليس لهما حدودا معينة • ولأن المنجم لا يتسلط عليهما بنفس القوة التى يتسلط بها على جولد ، يستطيعان أن يتشكلا بالأحداث أكثر منه أو من أى شخصية أخرى فى القصة •

أما علاقة الدكتور مونيجام بالمنجم فهى علاقة بسيطة ولو أنه من شخصيات كونراد المهمة فى القصة ، وفى اخلاصه للمنجم يعتبر أنانيا الى حد ما فهو يستطيع أن يكفر عن ذنوبه فى الماضى بطريقة واحدة وهى انقاذ المنجم من قرصنة « سوتيلو » ، وتظل دوافعه واضحة وبسيطة • واذا كان له أن يحيا حياة نفسية سعيدة فعليه أن ينتمى الى المجهود الذى لا بد أن يبذل لانقاذ الفضة • ولكن ماضيه يطارده ويبدو ضعفه فى كل عمل يقوم به ويحس دائما بما يطلق عليه كونراد « الاحساس الساحق بالضعف الانسانى » •

وقد سيطرت الفضة على ديكود بطريقة جعلته يكتب وينشر ما لا يؤمن به • فقد أفسدت الفضة احساسه باللامبالاة لأنه لم يستطع أن يخدع نفسه كالآخرين • وتعقدت علاقاته بالمنجم ووجد انه من أشق الأمور على نفسه أن يخفى دوافعه واهتماماته بالمنجم • فالمنجم فى اعتقاده ما هو الا مهزلة ، ولكن من أجل انتونيا وجد نفسه مضطرا الى التصرف بطريقة لا يؤمن بها هو • واذا كان ديكود يهزأ من المثاليين ويضحك من الواقعيين ، فانه يعترف بضعفه هو الآخر ويعلم أن ما يقوم به دوافعه حبه لانتونيا •

ولم يكتف كونراد بتقديم العلاقة بين أشخاص القصة والمنجم فحسب بل ربط بين كل شخصية وأخرى وجعل الفضة تدخل فى هذه الصراعات وتتحكم فيها بطرق كثيرة • وأهم علاقة هى العلاقة بين ديكود ونوسترومو • فديكود شخص يقاسى من الضياع والفوضى النفسية وينكر حتى وجوده وقيمة احساساته الذاتية ، ونوسترومو شخص أنانى لا يهمه من وجود الآخرين سوى فائدتهم فى زيادة احساسه بقدرته وقيمته • ونرى ديكود ، بعد أن اعترف باخلاصه وحبه لانتونيا ، يشك فى قدرته على الاحساس وفى صدق عواطفه وينتحر وهو يسخر من نفسه ومن اخلاصه تماما كما سيحدث لنوسترومو فيما بعد عندما يسخر من شهرته • ويعلق كونراد على هذا الموقف المعقد بقوله : « وعندما آمن ديكور بذكائه فقط ، كان لاشعوريا يجعل من العواطف واجبات » • وبطريقة مماثلة ، آمن نوسترومو بعواطفه بشدة وعندما وجد ان العواطف قد خذلته بدأ يستسلم للفساد فى نفسه • وعندما أحس نوسترومو بالوحدة التى يخلفها الخزى والعار وجد نفسه نهبا لنفس المخاوف التى كانت سببا فى تحطيم ديكود • وهكذا سقط الرجلان فريسة للفضة التى تجتذب ضحاياها اليها بسرعة كما تحطمهم بسرعة معنويا وجسديا • واذا كانت الفضة قد ربطت بينهما فى الحياة فاننا نراها تربط بينهما فى الموت أيضا • ويموت نوسترومو فى نفس المكان الذى مات فيه ديكود ولنفس السبب • ويبقى فى النهاية جولد ومونيجام لينعما بالفضة ولكنهما يقفان بمفردهما ، ويقاسيان من الماضى الذى يلاحقهما بلا هوادة ويسيران بين حطامه ، ذلك الماضى الذى سيصحو ، كما يعتقد مونيجام ، ويجعل من المستقبل جحيما •

ومن ناحية أخرى يمكننا اعتبار ديكود رمزا للفكر ونوسترومو رمزا للعمل ، وعندما يحاول نوسترومو أن يتخلص من نزعته الانبساطية أو ديكود أن يتخلى عن نزعته الذهنية فانهما يحطمان أنفسهما • والمعانى التى تتضمنها القصة أعمق من هذا العرض السريع لها بكثير فقد كان كونراد يؤمن بوجود الشر فى العالم وبالنتائج المترتبة عليه ، وكان يؤمن بأن هذا الشر ، مثله مثل الخير فى العالم ، لا يمكن تعليله • فاذا كانت الفضة شيئا مفسدا شريرا فهى فى الوقت نفسه شيء نافع يجلب الخير والسعادة • والسبب فى فساد

نوستروموا يرجع الى انه كان محاطا بأشخاص فاسدين ، ويجب علينا ألا نلوم أحدا فى القصة لكونه شريرا، فالشر فى هذا العالم جزء من الحياة نفسها ، تلك الحياة التى حاول كونراد أن يمسك بها فى القصة ٠

٤ ـ خاتمة :

لقد استطاع كونراد أن يخلق فى قصصه جوا من الغموض والحيرة والترقب لا عن طريق الوصف الجذاب فحسب بل عن طريق الايحاء الخفى وقوته ٠ ولا يسعنا الا ان نقول ان فلسفة كونراد يشوبها شىء من تشاؤم القرن التاسع عشر ، ذلك التشاؤم الذى يميز قصص توماس هاردى ٠ ولكن كونراد لا يلقى اللوم على الكون فى مصير الانسان ، حيث ان الكون ذاته عاجزا مثل الانسان عن مقاومة هذا المصير أو تحدى قوانين الطبيعة الحديدية التى لا مفر منها ٠ فالقدر يلعب دوره فى حياة الناس وفى تفكيرهم وفى عقولهم وينعكس على العالم الذى تخلقه عقول الناس ٠ وربما كان هناك آلهة ولكن ارادتها بعيدة عن أعيننا وكل ما تطلبه الآلهة منا هو الاستسلام والخضوع لارادتها ٠ وهذا الرأى يجعله مهتما بنواحى الضعف فى الانسان أكثر من اهتمامه بنواحى القوة فيه ٠ ومن الغريب اننا لا نجد فى قصصه « أبطالا » بالمعنى الشائع للكلمة ، تلك الشخوص التى تتغلب على ضعفها بشجاعتها وصبرها ومثابرتها وتحاول أن تطوع الحوادث لارادتها ٠ وعندما أمعن كونراد النظر فيما حوله ، يبدو انه لم يلحظ سوى الجبن والفساد والحيرة والشر ٠ وكونراد لا يحاول أن يعطى تعريفا للشر ، ويراه فى أبسط صوره ، على أنه شىء موجود فى العالم الطبيعى ذاته وخاصة فى البحر :

« هناك أوجه كثيرة لخطر العواصف والمغامرات ، ومن آن لآخر يطفو على سطح الحقائق هدفها المشؤوم وظلمه ـ ذلك الاحساس الذى لا يمكننا تعريفه والذى يفرض نفسه على عقل الانسان وقلبه وهو ان هـذه التعقيدات فى الحوادث أو هذه الضراوة فى الطبيعة تاتى اليه بغرض الايذاء وبقوة لا يستطيع السيطرة عليها ، بقسوة لا يمكن كبح جماحها ، تاتى اليه وهى تنوى أن تنتزع منه الأمل والخوف ، والألم والاجهاد ، واشتياقه للراحة : وهى تنوى أن تسحق ، تدمر ، تلاشى كل ما سمعه وعرفه واحبه وتمتع به وكرهه ، كل ماهو ضرورى وثمين ـ أشعة الشمس الدافئة والذكريات والمستقبل ـ وهذا يعنى انها سوف تمحو كل كل هذا العالم الثمين برمته بعيدا عن نظره عن طريق ذلك الحدث البسيط المفجع الذى يسلبه حيـــاته ـ الموت » ٠

ونرى أشـــخاص قصصه تخدع أنفسها بآمال زائفة او تجهل طبيعتها وفى النهاية اما أن يرضخوا لضعفهم السطحى أو يستسلموا لتلك القوى المدمرة التى تكمن فى الطبيعة ذاتها ٠

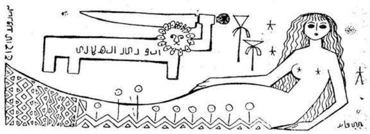
وكل قصص كونراد مأسوية مفجعة لأن عقله كان متسلط عليـــه احساس عميق بالأسف والحسرة ، فأجمل الأشياء وأحسنها تموت دون أن تحقق شيئا ، وأنبل الغايات والآمال لا تتحقق ، وفى كل مكان كان يرى الانسان ، بالرغم من رغبته الصادقة فى الحصول على السعادة ، يخلق لنفسه ولغيره مواقفا من الألم والبؤس والشقاء ٠ فهناك جو خانق حزين يرفرف على كتبه دائما ، فالناس فى غربة ومعظمهم فريسة للخداع والحيرة وقليل منهم ، وفى النادر ، من يستطيعون أن يخترقوا هذه الحواجز السميكة من الأنانية والجهـل ويتحرروا من اغترابهم لينعموا بالعطف والحب والفهم والصداقة ٠

وكان كونراد ينتقى ضحاياه من الناس العاديين الذين تحطمهم الأقدار ويحلو له تصويرهم كقطيع من الذئاب ينهش بعضها البعض ٠ وتعمل معظم شخوصه تحت ظروف عصيبة غير عادية ويدفعه حب استطلاعه الى ملاحظة عملية التآكل الذهنى والخلقى والى مراقبة شخوصه وهى تحاول أن تتغلب على خـــداع النفس وضعفها ٠ وعالم كونراد ليس بالعالم المتمدين المنظم الذى استطاع الانسان أن يتغلب على ضراوة الطبيعة فيه ، ولكنها الحياة الأولية التى يواجه فيها الانسان الطبيعة الثائرة ، تلك الحياة التى تجعل أصلب الناس عودا يتكسر تحت ضغط قسوتها ٠ واذا كان لكونراد القدرة على وصف الطبيعة بروائحها القوية وأسرارها الغامضة وقوتها على اجتذاب ضحاياها اليها ، فقد كان له أيضا القدرة على وصف ذلك الاحساس الغامض الصوفى الذى يوقظ فى الناس الشعور بضرورة التماسك والتضامن والحرص على هذا الرباط الذى يؤلف بينهم وبالتالى يربط الجنس البشرى بالعالم المتطور ٠ وكتب يقول :

ان من يقراون كتبى يدركون ما أومن به وهو ان العالم ، العالم الزمنى ، يرتكز على بعض الأفكار البسيطة جدا ، وهى بسيطة للغاية ، حتى انها تبدو قديمة قدم الجبال ٠ والعالم يرتكز على وجه الخصوص ، على فكرة الاخلاص ٠ ولم يحرك مشاعرى سوى الصداقة والاخلاص بين انسان وآخر » ٠

مِن أقاصيص الأولين

عرض : د. محمد أحمد خلف الله



— ١ —

قال صاحب شرطة المأمون :

دخلت يوما مجلس أمير المؤمنين ببغداد ، وبين يديه رجل مكبل بالحديد ، فلما رآنى ، قال لى : يا عباس !

قلت : لبيك يا أمير المؤمنين !

قال : خذ هذا اليك ، واحتفظ به ، وبكر به الى فى غد !

فدعوت جماعة فحملوه ، ولم يقدر أن يتحرك ! فقلت فى نفسى : مع هذه الوصية التى أوصانى بها أمير المؤمنين من الاحتفاظ به يجب أن يكون معى فى بيتى ، فأمرتهم فتركوه فى مجلس لى فى دارى • ثم أخذت أسأله عن قضيته وعن حاله ، ومن أين ؟

فقال : أنا من دمشق ، فقلت : جزى الله دمشق وأهلها خيرا ! فمن أنت من أهلها ؟ قال : وعمن تسأل ؟ قلت : أتعرف فلانا ؟ قال : ومن أين تعرف ذلك الرجل ؟ فقلت : وقعت لى معه قضية • فقال : ما كنت بالذى اعرفك خبره ، حتى تعرفنى قضيتك معه !

فقال : كنت مع بعض الولاة بدمشق ، فبغى أهلها ، وخرجوا علينا حتى ان الوالى تدلى فى زنبيل من قصر الحجاج ، وهرب هو وأصحابه ، وهربت فى جملة القوم •

فبينما أنا هارب فى بعض الدروب اذا بجماعة يعدون خلفى ، فما زلت أعدو أمامهم ، حتى فتهم ، فمررت بهذا الرجل الذى ذكرته لك ، وهو جالس على باب داره ، فقلت : أغثنى أغاثك الله ! قال : لا بأس عليك ! ادخل الدار ، فدخلت ، فقالت زوجته : ادخل تلك المقصورة فدخلتها ، ووقف الرجل على باب الدار ، فما شعرت الا وقد دخل ، والرجال معه ، يقولون : هو والله عندك !

فقال : دونكم الدار ، فتشوها ، ففتشوها حتى لم يبق سوى تلك المقصورة ، وامرأته فيها ، فقالوا : هو هنا ! فصاحت بهم المرأة ونهرتهم ، فانصرفوا •

وخرج الرجل وجلس على باب داره ساعة ، وأنا قائم أرجف ، ما تحملنى رجلاى من شدة الخوف ، فقالت المرأة : اجلس لا بأس عليك ! فجلست فلم ألبث حتى دخل الرجل فقال : لا تخف ، قد صرف الله عنك شرهم ، وصرت الى الأمن والدعة •

فقلت له : جزاك الله خيرا ! ثم ما زال يعاشرنى أحسن معاشرة وأجملها ، وأفرد لى مكانا فى داره ، ولم يفتر عن تفقد أحوالى •

فاقمت عنده اربعة أشهر فى أرغد عيش وأهنئه الى أن سكنت الفتنة وهدأت وزال أثرها ، فقلت : أتاذن لى فى الخروج حتى أتفقد حال غلمانى ، فلعلى أقف منهم على خبر ، فأخذ على المواثيق بالرجوع اليه •

فخرجت فطلبت غلمانى ، فلم أر لهم أثرا ، فرجعت اليه وأعلمته الخبر ، وهو مع هذا كله لايعرفنى ولا يسألنى ، ولا يعرف اسمى ، ولا يخاطبنى الا بالكنية •

ثم قال : علام تعزم ؟ فقلت : عزمت على التوجه الى بغداد ، فقال : القافلة بعد ثلاثة أيام ، وهأنذا قد أعلمتك !

فقلت له : انك تفضلت على هـذه المدة ، ولك على عهد ألا أنسى لك هذا الفضـل ، ولأكافئنك ما استطعت •

ثم دعا غلاما له أسود ، وقال له : أسرج الفرس ، ثم جهز آلة السفر ، فقلت فى نفسى : أظن أنه يريد أن يخرج الى ضيعة أو ناحية من النواحى ، فأقاموا يومهم ذلك فى كد وتعب •

ولما حان يوم خروج القافلة جاءنى السحر ، وقال لى : قم ، فان القافلة تخرج الساعة ، وأكره أن تنفرد عنها ، فقلت فى نفسى : كيف أصـنع ، وليس معى ما أتزود به ، ولا ما أكترى به ! ثم قمت ؟ فاذا هو وامرأته يحملان أفخر الملابس ، وخفين جـديدين ، وآلة السفر • ثم جاءنى بسيف ومنطقة ، فشهدهما ، وسطى ، ثم قدم بغلا فحمل عليه صندوقين وفوقهما فرش ، وقدم الى الفرس ، وقال : اركب ، وهذا الغلام الاسود يخدمك ، ويسوس مركوبك •

وأقبل هو وامرأته يعتذران الى من التقصير فى أمرى ، وركب معى يشيعنى ، وانصرفت الى بغداد وأنا أتوقع خبره ، لأفى بعهدى له فى مجازاته ومكافأته ، واشتغلت مع أمير المؤمنين ، فلم أتفرغ أن أرسل اليه من يكشف خبره ، فلهذا أسأل عنه !

فلما سمع الرجل الحديث قال : لقد أمكنك الله من الوفاء له ، ومكافأته على فعله ، ومجازاته على صنيعه بلا كلفة عليك ، ولا مئونة تلزمك •

فقلت : وكيف ذلك ؟ قال : أنا ذلك ، وانما الضر الذى أنا فيه غير عليك حالى ، وما كنت تعرفه منى •

فما تمالكت أن قمت وقبلت رأسه ، ثم قلت له : فما الذى أصارك الى ما أرى ؟ فقـال : هاجت بدمشق فتنة مثل الفتنة التى كانت فى أيامك ، فنسبت الى ، وبعث أمير المـؤمنين بجيـوش ، فأصلحوا البلد ، وأخذت أنا ، وضربت الى أن أشرفت على الموت ! وقيدت وبعث بى الى أمير المؤمنين ، وأمرى عنده عظيم وخطبى لديه جسيم ، وهو قاتلى لا محالة !

وقد أخرجت من عند أهلى بلا وصية ، وقد تبعنى من غلمانى من ينصرف الى أهلى بخبرى ، وهـو نازل عند فلان ، فان رأيت أن تجعل من مكافأتك لى أن ترسل من يحضره حتى أوصيه بما أريد ؟ فان أنت فعلت ذلك فقد جاوزت حد المكافأة ، وقمت لى بوفاء عهدك ! قلت : يصنع الله خيرا •

ثم أحضر العباس حدادا فى الليل فك قيوده ، وأزال ما كان فيه من الأنكال ، وأدخله حمام داره ، وألبسه من الثياب ما احتاج اليه ، ثم سير من أحضر اليه غلامه •

فلما رآه جعل يبكى ويوصيه ، فاستدعى العباس نائبه ، وقال : على بالأفراس والهدايا ، ثم أمره أن يشيعه الى حد الأنبار !

فقال له : ان ذنبى عند أمير المؤمنين عظيم ، وخطبى جسيم ، وان أنت احتججت بأنى هربت بعث فى طلبى كل من على بابه ، فأرد وأقتل •

فقال العباس : انج بنفسك ودعنى أدبر أمرى ! فقال : والله لا أبرح بغداد حتى أعلم ما يكون من خبرك ! فان احتجت الى حضورى حضرت •

فقال العباس : ان كان الامر على ما تقول ، فتكن فى موضع كذا ، فان أنا سلمت فى غداة غد أعلمتك، وان أنا قتلت فقد وقيتك بنفسى كما وقيتنى !

ثم تفرغ العباس لنفسه ، وتحنط وجهز له كفنا •

قال العباس : فلم أفرغ من صلاة الصبح الا ورسل المأمون فى طلبى ، وهم يقولون : هات الرجل معك وقم •

المنفى

قصة : حسن محسب



••• صرخ بصوت مشروخ :

ـ لا تتركونى هكذا •• ان الانتظار يمزقنى !•• ولهث صوته •• ولمعت حبات العرق على جبهته ، وصمت لحظة •• لكن التوتر كان يغلى فى أعماقه الى أبعد حد •••

ـ يبدو أنهم أصيبوا بالصمم •• لقد خرسوا جميعا !•••

وبعد فترة وجيزة رفع حسام رأسه عن الاوراق المكدسة أمامه فوق المكتب المصنوع من الصاج •• وترك القلم يسقط من يده ، ومسح حبات العرق الباردة من فوق جبهته •• ومن ثم أراح يديه أمامه فوق الاوراق •• وانسابت من أعماقه تنهيدة حارة طويلة !•

وأشعل سيجارته •• وبدأ ينظر حوله ••

عبد الفتاح أقرب زملائه اليه •••

« كان عبد الفتاح آخر من يفقدون أعصابهم •• كان يجتر أشياء كثيرة ، وضحكاته تجلجل فى القاعة الفسيحة •• وهى ضحكات تظنها للوهلة الاولى جوفاء •• كالطبـــل ، لكنها كانت تنتهى دائما بنغمة حزينة ، كثيفة الحزن •• وها هو •• أخيرا •• يحملها من أمامه ، تلك القطعة الخشبية المكتوب عليهــا بخط دقيق وجميل كلمة •• « الصبر » ••!

ترى أين وضعها ؟ •• تلك القطعة النادرة ، التى أهداها له أحد أصدقائه المخلصين ! •••

بحث عنها حسام بنظراته ، ووجدها أخيرا هناك •• مركونة وسط الدشت فوق دولاب عبد الفتاح•• خلف رأسه تماما !••

عبد الفتاح دمياطى •• ما زال يحتفظ بلهجته الدمياطية •• ودائما يذكر أيامه الأولى ، بشوق شديد•• انه لا يكف عن ذكر الأرز والشبار المشوى •• والجرى والتنطيط فى أزقة قريته وحواريها ••

وعادت ابتسامة حسام تتقلص على شفتيه المضمومتين على سيجارة تحترق فى سرعة •••

« عبد الفتاح يهرب كثيرا هذه الأيام من المدينة الى القرية ويعود بعد يومين ليتحـــدث كثيرا عن الصيادين والسمك •• وأيام الطفولة •• وضحكاته تبدو أكثر شفافية فى الأيام الأولى بعد عودته من القرية •• وأبدا لم يتحدث عبد الفتاح عن قطعة الخشب التى ركنها خلفه وسط الدشت •• لم يذكرها، ولكنه كان يصرخ كثيرا •• صراخه أصبح أكثر من ضحكاته هذه الأيام •• لكن الزملاء فى القاعة الفسيحة ما زالوا يحبونه !••

منصور الخطاط ما زال يلح فى طلبه •• انه يريد من عبد الفتاح أكلة أرز وشبار •• وأخيرا •• حدث هذا أمس •• قال منصور أنه سيحصل على أجازة ليذهب مع عبـــد الفتاح الى دمياط ليأكل أرزا وشبارا ••

وساعتها ابتسم عبد الفتاح ، وضحك منصور •• انهما يعلمان أن الحصول على أجازة أمر صعب ، لأن الأحداث لا تترك فرصة لأحد •• والكارثة قد تبدأ الآن •• أو فى أية لحظة •• طالما مياه الكاريبى تغلى عند كوبا !•••

وعاد حسام يتابع نظراته •• فى رحلتها القلقة المتوترة •• وعند سهير وقفت عيناه •• رآها تخلع نظارتها الطبية لتمسحها بأصابعها الرقيقة ، ثم تركتها فوق أوراقها وتنظر الى عبد الفتاح وثمة كلمات تطل من نظراتها ••

وابتسم حسام •• ابتسامة ماتت قبل أن تظهر على شفتيه المضمومتين على سيجارته المحترقة ••

« لا أحد يجهل قصة سهير مع عبد الفتاح •• لقد انتزعته من اغراء شوشو ممثلة السينما المثيرة ، لكنها لم تستطع الاحتفاظ به لأكثر من شهر واحد••وفشل مشروع الزواج، الذى بدا أنهما يستعدان له!••

وعادت سهير تعبث بنظارتها ، ثم وضعتها على عينيها فى سرعة •• ودفنت رأسها فى الاوراق أمامها••

« انها لا تكتب شيئا •• القلم يتحرك فى يدها بسرعة وقلق ، لكنها •• لكنها لا تكتب شيئا •• أنا واثق من هذا •• فقد عشت معهم خمسة أعوام داخل هذه القاعة الفسيحة ! •• »

وعاد حسام يزحف بنظراته الى عبد الستار •• انه ما زال بجسمه الضخم جالسا فى مقعـــده ••

انى لأشك فى أنه يغادر هذا المقعد ٠٠ وهو دائما هكذا ٠٠ يأكل ٠٠ لا يكف عن التهـام الطعـام ٠٠ الساندوتش فى يسراه ٠٠ والقلم فى يمناه ٠٠ وبوزه فى الورق ٠٠ لا يكف عن الأكل والكتابة الا اذا أراد أن يفرغ أنفه فى ورقة من أوراق الدشت المكدسة على مكتبه ٠٠ وصوته به لدغة تأكل حرف الراء دائما ٠٠ ومع ذلك فهو يغنى من حين لحين أغنية ٠٠ « يا جاغة الوادى » ٠٠

لقد أراد ذات يوم أن يكون مطربا ٠٠ لكن التجربة الأولى أرغمته على الاكتفاء بأن يكون محررا فى هذه الجريدة المسائية ٠٠٠

وانتهت السيجارة ٠٠ فأشعل حسام غيرها ٠٠ وقبل أن يطفىء عود الثقاب جاءه صوت عبد الفتاح :

ـ فيم تفكر ؟!٠٠

٠٠٠ سؤال سخيف ٠٠ همس بها حسام لنفسه ٠٠٠

ـ أتعرف أنت ؟!٠٠

وابتسم عبد الفتاح ، ثم ضحك بصوت مجلجل !

وانتهى الحديث عند هذا الحد ٠٠ انه مجرد سؤال ، وعبد الفتـاح لا ينتظر اجابة ٠٠ فسرعان ما يتردد ٠٠ أو يستغرق فى الكتابة ٠٠ وهو يصيح من آن لآخر ٠٠ شبار ٠٠ الشبار !٠٠

ونفث حسام الدخان من أنفه الطويل ٠٠ وراح يرقبه وهو ينساب فى خيط رفيع ممدود ٠٠٠

وعادت عيناه الى أوراقه ٠٠٠ نظر اليها وقرأ الأسطر التى كتبها فى رأس الورقة ٠٠٠

« خذونى الى الصليب ٠٠ لا تتركونى هكذا ٠٠ ان الانتظار يمزقنى !٠٠٠

٠٠٠ ويبدو أنهم أصيبوا بالصمم ٠٠ لقد خرسوا جميعا ! ٠٠٠ »

وشرد حسام لحظة ٠٠ ثم قال لعبد الفتاح :

ـ لن أكتب لك اليوم أيضا ٠٠ اننى متعب !٠٠

ولم يعلق عبد الفتاح بشىء ، غير ضحكة عريضة ٠٠ كان يعرف أن هذا يحدث دائما من حسـام بعد أن عاد ٠٠ وكانت لديه دائما قصة أخرى ، أو موضوع أدبى ليملأ الصفحة المخصصة له !٠٠

ـ حسام ٠٠٠ لو سمحت !٠٠٠

كانت سهير ٠٠ فنظر اليها ٠٠ ورآها تعيد مسح نظارتها بأصابعها ، وثمة ابتسامة مذبوحة علـى شفتيها ٠٠٠

ونهض حسام ٠٠ وذهب اليها ٠٠٠

وقبل أن يجلس بجوارها ، سمع صوت عبد الفتاح يجلجل :

ـ شبار ٠٠٠ الشبار !٠٠٠

وامتقع وجه سهير ٠٠٠

ـ أتذهب معى الى السينما ؟!٠٠

ولم يجب ٠٠ كان يشعر بنظرات عبد الفتاح تلسع ظهره ٠٠ فاستدار ٠٠ لكنه وجد عبد الفتـاح منهمكا فى الكتابة !٠٠

وعاد ينظر الى سهير ٠٠٠

ـ هيا بنا !٠٠

وأغلقت سهير حقيبتها ٠٠ وعدلت من وضع النظارة على عينيها ، ونهضت ٠٠ فقام حسام ٠٠ وسار معها ٠٠ وقبل أن يبتعدا عن القاعة سمعا معا :

ـ شبار ٠٠٠ الشبار !٠٠٠

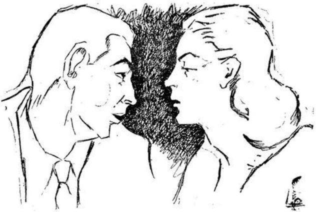
ثم طاردتهما ضحكة مجلجلة طويلة !٠٠

وسارا معا فى الشارع المزدحم بالسيارات ٠٠ وسألته :

ـ أية سينما ؟٠٠

ـ أقرب سينما !٠٠

وبعد لحظات ، كانا جالسين فى مقعديهما ٠٠ والظلام يلف الصالة ٠٠ وثمة أحداث تجرى أمامهما ٠٠ على شاشة العرض ٠٠٠



وفشل حسام فى تركيز ذهنه المشتت ·· فاشعل سيجارته !·· وبعد لحظة لفت نظره ما يحدث فى مقعدين أمامه ·· كان شابا مثله فى حوالى الخامسة والعشرين ·· وكان مشغولا بفتاته التى تميل برأسها على كتفه ·· ورآهما يتبادلان قبلة سريعة !·· وتنبه حسام على ضجة حادة ·· ونظر الى الشاشة ليرى مذبحة ·· نساء وأطفالا وعجائز وشبانا ·· والطائرات تحصد بلا رحمة ·· والشابان أمامه مشغولان بحبهما ·· وسهير بجواره تشعل سيجارة ·· وسمعها تتنفس بصعوبة :

ـ أعصابى لم تعد تحتمل هذا الكابوس ···

ـ الحرب ما زالت مادة دسمة للسينما ·· لكن ···

وأشار الى العاشقين أمامهما ·· وأضاف :

ـ مهما يكن ·· فهو شىء جميل وطيب ·· رغم أنه يحدث فى الظلام !···

ومرت لحظـــات ·· ونظرات حسام مشدودة الى الشاشة تتابع امرأة مصابة بعدة جراح ·· ومع ذلك فقد كان ما يشغلها هو وليدها الذى صرعته رصاصة ·· كانت تحمل جثته وتجرى ·· فى تعثر وفزع·· لا تريد أن تتوقف ولا تريد أن تترك الجثة ·· والطائرات مثل الغربان ···

وسمع بكاء سهير ··· فامتدت يده تربت على يدها ·· وقبل أن يسحب يده ، أطبقت عليهـــا بأصابعها وهمست :

ـ دعها !··

لكن النور أضىء ·· فتركت يده ·· وقاما ليخرجا !··

وأمام السينما توقفا لحظات ···

ونظرت سهير الى ساعتها :

ـ ما زال هناك وقت طويل !···

ثم أضافت بعد صمت متوتر ···

ـ دعنا نسير قليلا ··!

وسار معها حسام ، وهو لا يكف عن التدخين ···

« خـــذونى الى الصليب ·· ألا تسمعون ·· شبار ·· الشبار ·· انى أتعذب ·· الانتظار يمزقنى ··· و··· تصلب القلم فى يدى ! »

ـ فيم تفكر ؟!···

اللعنة على كل شيء ••• هل خلت اللغات من غير هاتين الكلمتين الباردتين ؟•• فيم تفكر •• فيم تفكر ؟•• كل من يريد الهرب من نفسه يلقى بها فى وجه جاره •• يقذف زميله بهما ؟•• وهو بالتأكيد لا يطلب اجابته ، بل ربما هو يسأل نفسه : فيم تفكر ؟•• هذا أكيد •• لكن •• علام التأكيد •• وليس هناك شيء مؤكد حاليا •• نعم •• الأشياء كلها تقريبا تقريبية •• الآن •• والا •• فالى أين تأخذنى سهير •• انها تفر من نفسها وأنا •• مجرد وسيلة •• مجرد شيء بجوارها !•••

ـ فيم تفكر ؟!

كاد يصرخ فيها ••• لكنه أشعل سيجارة أخرى وراح يخرج دخانها من أنفه الطويل •••

ـ الى أين ؟!••

سألها ، وهما واقفين عند اشارة المرور •••

ـ لا أعرف !•••

قالت سهير : الى أى مكان •• هل تريد العودة ؟•••

ـ لست متعجلا الى هذا الحد !•••

وأضيء النور الأخضر فعبرا مع المارة •••

وأخيرا سألها :

ـ لما لا تأتين معى ؟•••

ونظرت اليه :

ـ أننى أعيش وحدى !••

وأحنت رأسها •••

ـ لا تسيء الظن !•• لا أعرف •• انه مجرد اقتراح سخيف •• لكن المكان قد يعجبك !•••

وركبا الأتوبيس •• وطال المشوار •• ونظرت اليه •• لكنه كان مشغولا بالنظر الى عناوين الجريدة المسائية فى يد أحد الركاب ، وابتسم حسام فى مرارة •• وهو يرى توقيع منصور الخطاط هناك ، متقوقعا تحت المانشيت العريض « الاسطول الامريكى يحاصر كوبا » •••

وخرج الأتوبيس من المدينة •• وسار وسط الحقول •••

وتنفست سهير •• سمعها حسام تتنفس بتوتر أقل •••

ـ ما أجمل هذه الحقول •• هل تسكن فى حلوان ؟•••

ـ أنا أكره المدن •• انها تزيد عذابى ! ••

وفى منتصف الطريق الى حلوان •• هبطا من الأتوبيس •••

وحدقت سهير فى الحقول •• وبعض البيوت الريفية •• وسألته :

ـ هل تعيش هنا ؟!••

ـ نعم !••

ومشيا على جسر يفصل بين حقل قصب وحقل برسيم ثم سارا قليلا وسط أكوام السباخ ، ومالا خلف شجرة جميز •• ودخلا من باب أحدث صوتا عند فتحه •• وابتسمت سهير كالطفلة ، عندما رأت زيرا وقلة فى الصالة الصغيرة •••

ـ هل يعجبك ؟•••

واتسعت ابتسامة سهير ، ودخلا حجرة صغيرة •• وجلست على حافة الفراش ••

واعتذر حسام :

ـ ليست هنا مقاعد •• السرير وهذه الحصيرة كما ترين ولمبة غاز نمرة ١٠ •• ومرآة صغيرة •• والنافذة تصلح قاعدتها كمكتبة !•••

وخلعت سهير نظارتها ، فبدت أكثر جمالا •••

ـ لماذا تضعين نظارة على عينيك ؟!••

وابتسمت ، وهى تسوى خصلات شعرها الذهبى :
ـ هنا لا يحتاج الانسان الى شىء غير طبيعته !٠٠٠
وضحكت ، وقد شعرت برغبة ملحة فى أن تضحك بصوت عال ٠٠ ثم قامت وأخذت تتمشى فى الغرفة ٠٠ ثم خلعت حذاءها ، وجلست على الحصيرة ٠٠ ومددت ساقيها وأغمضت عينيها ٠٠٠
ـ رغم أن الحجرة ضيقة ٠٠ والسرير يشبه أسرة المستشفيات الا أننى للمرة الأولى أشعر بأننى أتنفس ٠٠ ياه !!٠٠ كأن شيئا ثقيلا انزاح من فوق صدرى !٠٠٠
ونهضت فى سرعة ، ونظرت من النافذة ٠٠ فرأت ريفية تحمل بلاصا تسير على الجسر ، ومن خلفها كانت الشمس ترتفع بين سعف نخلتين ، ترتفعان فى رأس الحقل ٠٠٠
وخرج حسام ، وما لبث أن عاد بحزمة قصب ، راحا يمصان عيدانه بلذة ٠٠
وانزعجت سهير عندما هبطت كرة شراب عليهما من النافذة فضحك حسام ، وتناول الكرة وأعادها لصاحبها بعد أن حياه ٠٠ وقال :
ـ انه محمود ٠٠ طفل لطيف تعود أن يلعب معى الكرة الشراب منذ جئت الى هنا !٠٠
وضحكت سهير ٠٠٠
ـ شىء غريب ٠٠ لكنه لطيف ٠٠ لطيف جدا ٠٠٠
ودق الباب ٠٠ وسمعا صوتا :
ـ يا ساتر !٠٠٠
وهتف حسام :
ـ ادخلى يا هناء ٠٠٠
ودخلت فتاة ريفية جميلة ، ترتدى ثوبا من البافتة لونه فاقع والمنديل بأويه مائل على حاجبها ٠٠٠ وتورد وجه الفتاة عندما رأت سهير ، وهمست تحييها ٠٠٠
وقال حسام :
ـ هناء ٠٠ تأتينى كل يوم بالماء من حنفية الحكومة !٠٠٠
وسألته هناء :
ـ أتريد شيئا يا سيدى من السوق ؟!٠٠
وضحك حسام :
ـ طعام لهذه الضيفة ٠٠٠
وخرجت هناء لتشترى طعام الغذاء ٠٠
وقالت سهير :
ـ انها جميلة جدا يا حسام !٠٠
فابتسم :
ـ كل النساء هنا جميلات ٠٠ جدا !٠٠٠
ـ لكن ٠٠ الريف له تقاليده وعاداته ٠٠ ووجود شاب مثلك هنا ٠٠٠
فضحك حسام وقاطعها :
ـ أعرف ما يذهب اليه ظنك ٠٠ لا ٠٠ أنهم يرحبون بى ٠٠ وقد لا تصدقين لكنها الحقيقة ٠٠ ان ما أراه هنا يبدو غريبا ٠٠ ربما شاذا ٠٠ لكنه الواقع الذى تعيشه هذه القرية الصغيرة ٠٠ انها قرية لا تعرف الزواج ٠٠٠!
واتسعت نظرات سهير ٠٠٠
ـ غير معقول ٠٠ أننى أرى هنا أطفالا كثيرين !٠٠
ـ أتسمعين عن شىء اسمه « الهبه » ٠٠ ان المرأة هنا تهب نفسها لمن يحبها ٠٠ وهكذا تتكون الأسر التى توجد فى هذه القرية !٠٠ ولا مشاكل هنا ٠٠ عندما تمل الزوجة الحياة مع زوجها تتركه بارادتها وتذهب الى الرجل الذى تريده ٠٠ وتهبه نفسها ٠٠ لهذا ٠٠ فلا خيانات زوجية هنا ٠٠ أتصدقين؟!٠٠
ـ اننى لا أصدق !٠٠

قالت سهير : ان هذا انحلال أكيد .. كيف يعيش الأطفال .. انهم أيتام بلا شك !...

ـ لا .. ان هذه الحرية فى اختيار الزوجة والزوج .. حرية الفرد فى تحديد حياته واختيارها .. يعطى له فرصة التفكير بهدوء ولهذا قل أن تجدى زوجة تمل عشرة زوجها أو تفكر فى خيانته !...

ـ وكيف تعودوا هذه العادة الغريبة .. هل هم أعراب ؟!

ـ لا .. انهم نازحون .. كل منهم جاء من بلدة بعيدة .. وهذه القرية تجمع شتاتهم .. انهم هم الذين اختاروا مكانها هنا وجعلوا منها بيوتا تأويهم .. وكلهم عمال .. الرجال والأولاد وبعض النساء .. يعملون فى المصانع المختلفة التى تملأ هذه المنطقة .. ولا وقت لديهم لأى شىء آخر غير العمل طول النهار .. والنوم طول الليل .. فهذه القرية لا توجد بها مقاهى أو ملاهى للسهر .. والجلوس تحت شجرة على شاطىء النيل هو الشىء الممتع الذى يمارسه الجميع هنا فى أيام الاجازات ...

ودخلت هناء تحمل الطعام ، ووضعته أمامها .. ثم أحضرت القلة وجعلتها بجوارهما..ثم انصرفت ، وهى تنظر الى سهير نظرة كشفت مشاعرها القلقة ...

نظرت سهير الى حسام ، وثمة سؤال على شفتيها ، فابتسم قائلا :

ـ لا .. لم تهبنى احداهن نفسها بعد ! ..

ضحكا .. فى صخب .. وبدآ فى تناول الغذاء .. وقال حسام :

ـ الجبن القديم .. والخبز الجاف .. والجرجير .. والطماطم .. وجبــة دسمة .. وان كانت جافة !...

وضحكت سهير وفمها ملىء بالطعام :

ـ انها لذيذة !...

وخيم عليهما الصمت لحظة .. عند ما سمعا صوت ناى يأتى من بعيد ، صافيا .. رقيقا ...

ـ حلم .. أليس كذلك !...

ـ لكنه واقع .. لقد مللت الحياة فى القاهرة .. بل اننى كرهت الذهاب الى العمــل كل صباح لأننى عندما أدخل المدينة أشعر بأننى أدخل مكانا مغلقا مليئا بأشياء غير طيبة ...

ـ لكن .. كيف جئت الى هنا ؟!...

ـ لا أدرى .. لقد بحثت عن مكان أنفى نفسى فيه .. ومنذ أسبوعين جئت الى حلوان لأعد موضوعا عن زيارة وفد أدباء أجانب للمنطقة .. وبهرتنى الطبيعة الهادئة هنا .. فأوصيت أحد العمال بالبحث لى عن مسكن .. وها أنت ترين هذا المنزل البسيط الذى نفيت نفسى فيه ...!

ـ ولماذا تسميه منفى !...

ـ لا أسميه منفى .. بمعنى منفى .. ولكنى فى الواقع كنت أرغب فى نفى نفسى بعيدا .. كنت أبحث عن مكان أدفن فيه كل أحزانى .. لا تتصورى يا سهير كم أتعذب هناك .. دائما يصرخ الملل فى أعماقى : « خذونى الى الصليب .. اننى كرهت الزيف والكذب والخداع .. الكل هناك تائه فى دوامة بغيضة .. لماذا ؟!...

هذا هو السؤال الذى أبحث عن جواب له ، وسأظل أبحث الى أن أعرف .. أريد أن أعرف أصل هذا العذاب الذى يميت الخير فى النفوس المدهوسة فى المدينة ..

ان القاعة الفسيحة فى الجريدة ، تشبه الى حد كبير قبرا كبيرا .. قبرا مليئا بالجثث ، وهـــذا الشعور الكريه لا يفارقنى .. لماذا ؟! لماذا ؟!...

وتقلصت شفتى حسام .. ولكنه صمت عندما أسكت سهير بيديه .. وقربت وجهها من وجهه ...

ونظر حسام الى عينيها الزرقاوين طويلا .. وبعد برهة جذب خصلة من شعرها .. الذهبى ، فألقت برأسها على صدره وتعلقت بعنقه ...

وارتفع فى أذنيه صوت يجلجل ضاحكا :

ـ شبار .. الشبار !!...

ـ ربما !..

ـ ألا تصدقنى ؟!

ـ لا ليس هذا ٠٠ اننى فقط حائر مع نفسى !
واستدار حسام قليلا ، حتى استراح على ظهره ، وحدق فى السقف ٠٠ فى عروق الخشب والسده ٠٠ وأشعل سيجاره وراح ينفث دخانها فى بطء شديد ٠٠٠
كانت ذراعه ما تزال تحت رأس سهير ٠٠ كانت ذراعه ممدودة والخدر يسرى فيها لكنه لم يسحبها، لأن سهير كانت تعبث فى شعره الاسود بأناملها ٠٠ وامتلأ فمه بالدخان ٠٠٠
ـ كان شعرك الذهبى يعجبنى ٠٠ وعيناك الزرقاوين ٠٠ كنت أتساءل لماذا ٠٠ لماذا تضعين عليهما هذه النظارة ؟!٠٠٠
وتأوهت سهير :
ـ هل تصدقنى ؟!٠٠٠
ـ أرجو !٠٠٠
قالها حسام وهو يبتلع دخان سيجارته ٠٠٠
ـ لقد عذبتنى عيناى كثيرا ٠٠ وجذبت الى الكثيرين من زملائى فى الجامعة !
وصمتت سهير ، ثم استدارت حتى أراحت رأسها على صدره ٠٠٠
ـ كنت أرتاح الى رؤياك دائما ٠٠ رغم أن الحديث بيننا لم يكن يمتد كثيرا ٠٠ كان يعجبنى صمتك ٠٠ وكذلك ٠٠ ما حدث لك فى العام الذى غبته عنا كان يحيرنى غموضه !٠٠٠
وجذب حسام خصلة من شعرها الذهبى فى عنف ، حتى أصبحت عيناه فى عينيها تماما ٠٠٠
ـ المساء يقترب ٠٠٠
ـ حقا !٠٠٠
ونظرا معا الى النافذة المصنوع نصفها الأعلى من زجاج عليه كثير من التراب !٠٠٠
ثم نهضا فى صمت ، وصوت الناى يأتى من بعيد ٠٠ مليئا بالحنان ٠٠ وضحكت سهير :
ـ أتعرف ٠٠ انها المرة الأولى التى أتعرى فيها هكذا أمام رجل ! ٠٠٠
ـ على أى حال ٠٠ اننا هنا ولسنا فى المدينة ٠٠ اننا فى أحضان الطبيعة ٠٠٠
وقاطعه صوت دقات خجلة على باب المنزل ٠٠٠
ـ ادخلى يا هناء !٠٠٠
وفزعت سهير :
ـ دعها تنتظر حتى أرتدى ثيابى !٠٠٠
وضحك حسام ٠٠٠
ـ ما زلت تخجلين ؟!٠٠٠
وكانت سهير ما زالت مرتبكة فى ارتداء ثيابها المتعددة ٠٠ وقبل أن تحتج أو تقول شيئا ، كانت هناء تقول لها :
ـ مساء الخير يا ست سهير !٠٠
ثم وضعت على الحصير اناء به لبن ٠٠٠
وقام حسام قائلا :
ـ تعودت هنا أن أشرب بعض اللبن فى المساء !٠٠٠
ما رأيك يا سهير ؟!
ولمعت الدموع فى عينيها ، وهى تحس بنظرات هناء تلسع جسدها الشبه عارى ٠٠ وأغاظها أكثر أن تسمع ضحكات حسام ٠٠٠
ـ انه تصرف غير لائق بالمرة !!٠٠٠
وضحك حسام :
ـ أتذكرين الشابين اللذين كانا يتبادلان الحب فى صالة السينما ؟!٠٠٠
وصمت ، وأشعل سيجارة :
ـ ان أبناء المدينة كلهم يكرهون الوضوح ٠٠ خاصة فى الحب ٠٠ أليس هذا غريبا٠٠لكن العواطف السيئة الاخرى يتبادلونها بصراحة ٠٠ أما الحب ، ففى الظلام دائما ٠٠ من خلف ظهور الآخرين ؟!٠٠٠

ـ الى هذا الحد يا حسام ؟!

ـ الى أكثر من هذا ٠٠ فقد ضجت أحشاء المدينة بالعفن !٠٠٠

وضحك بصوت مدو ٠٠٠

ـ ما رأيك أنت يا هناء ؟!

فابتسمت ، وأسبلت رموشها على عينيها العسليتين فى حياء :

ـ لا أعرف يا سيدى !

وبعد لحظة كانت هناء مستغرقة فى التحديق الى سهير التى كانت تشد ثوبها القصير على ساقيها٠٠٠

ـ كوب من اللبن !

ـ لا ٠٠٠ لا أريد !

ـ وعلام الغضب يا سهير ؟!

ـ لا شىء ٠٠ أريد الخروج الآن ؟!

ـ دع السيجارة لحظة يا سيدى ٠٠ وخذ ٠٠ كوب اللبن !٠٠٠

قالتها هناء فى ود كبير ٠٠٠

وتناول حسام كوب اللبن من هناء ٠٠ وراح يشربه بسرعة :

ـ جربى يا سهير ٠٠ ان المشاكل لا مكان لها هنا ٠٠ جربى أن تمارسى حياتك بأعصاب مرتخية قليلا ٠٠ ان المدينة تحرق أعصابنا بما فيه الكفاية ٠٠٠

ـ انك أنت الذى تمزق أعصابى !٠٠٠

ـ أتريد ماء ساخنا يا سيدى ؟! أتريدين ماء ساخنا يا سيدتى ؟٠٠

ـ ماذا ؟٠٠٠

ـ واحمر وجه سهير ، وكادت تفترسها ٠٠٠

ـ هناء تعرف أن المرأة لا بد وأن تستحم بعد القيام من الفراش !٠٠

ـ كفى يا حسام ٠٠ انها مهزلة ٠٠ ماذا تقصد من كل هذا ؟٠٠؟

ـ فكرى قليلا ٠٠ وسترين أنه لا غرابة فى أى شىء !٠٠

هناء لا تزال خاما ٠٠ لا تعرف غير الكلمات المباشرة ٠٠ انها تذكرنى بالصورة التى حاولت كثيرا أن أرسمها فى خيالى لأمنا حواء الخالدة !٠٠

ـ هكذا ؟! ٠٠٠

وامتدت يد هناء بكوب اللبن الى سهير ٠٠٠

ودون أن ترفع عينيها تناولت الكوب ٠٠٠

وأشعل حسام سيجاره ٠٠٠

ـ اجلسى يا هناء ٠٠٠

ـ اننى لا أفهم شيئا مما يدور هنا ٠٠ ما هذا ٠٠ هل نحن فى عالم آخر ؟٠٠٠

ـ نعم ٠٠ فى الجانب الآخر النقى من العالم على وجه الدقة !٠٠٠

ـ كلام فارغ !٠٠

ـ رأيك هذا جزء من طبيعتك ٠٠ انك لن تفهمى شيئا الا بعد أن ينكسر فيك كل شىء مصطنع ٠٠ ان العودة الى الواقع ليست أمرا سهلا الى هذا الحد !٠٠

نعم ٠٠ قد تستطيعين وضع نظارة على عينيك الزرقاوين ٠٠ وقد تتفننين فى اشعال لهب الغرائز فى أعماق زملائك كلهم ، وقد تنجحين فى أخذ عبد الفتاح من ٠٠ نجمة السينما شوشو ٠٠ لكنك أبدا لن تفلحى فى الاحتفاظ بشىء من كل هذا على الاطلاق ٠٠ انها حياة أقرب الى التبادل التجارى ٠٠ حيـــاة

لا يتسرب فيها أى شيء ثمين فى أعماقك .. والدليل ... انك ما زلت تعبدين شيئا واحدا هو أن تمنحى نفسك لى .. أو لغيرى .. لكن سرا .. وبعيدا عن الآخرين .. لماذا ؟.. سؤال يجب أن تحـاولى أن تناقشيه على الأقل ...!

وبكت سهير ...

فابتسم حسام فى مرارة :

ـ قد أبدو مخبولا الآن فى نظرك .. لكن .. هذا هو الذى عشته .. وعرفته ....

وسقط كوب اللبن من يد سهير .. وبلل ثوبها ...

فركعت هناء ، وأخذت تنظف الثوب بطرحتها السوداء ...

وانساب صوت الناى حاملا رائحة ليل القرية الملىء بالغموض ...

واقترب حسام من النافذة ...

ـ لا أعرف لماذا دعوتينى الى السينما .. لا أعرف لماذا دعوتك الى المجىء معى ؟...

كنا .. كنا قبـــل حدوث هذه الأشياء نجهل أشياء كثيرة .. أنت على الأقل لم يكن فى امكانك تصور حياتى هذه .. وكان يكفى أن ...

ـ أين الكبريت يا سيدى ؟!

وأشعلت لمبة الغاز .. فأضيئت الحجرة بنور باهت ...

واستدار حسام :

ـ على أية حال .. كان لا بد من مجيئك معى .. لا أدرى لماذا ؟.. ان النوم لم يكن هو الهدف .. لأن هناء ...

ـ هناء ...

اقترب صوت سهير من حد الصراخ :

ـ هل ؟!...

ـ انها دائما تدفىء لى بعض الماء .. كل مساء .. لتغسل لى جسدى .. وفى هـــذا ما يفوق لذة النوم !.. انه يذكرنى بأيامى الأولى .. يوم كانت أمى تغسل لى وجهى براحتيها الخشنتين .. آه .. الشباب .. الشباب .. وهل هناك أروع من تلك الأيام ! ...

ـ اننى لا أصدق .. انسان مثلك يخرج من وجوده المثقف هكذا .. لا بد أن شيئا رهيبا قد حدث .. شيئا مروعا ..!

وضحك حسام .. لكن ضحكاته كانت مزيجا من الألم والسخرية :

ـ خمنى يا سهير ؟!

قالها ، وهو يعبث فى منديل هناء الذى يميل فوق حاجبها .. ثم فكه وراح يداعب شعرها الاسود الملفوف فى ضفيرتين طويلتين :

ـ خمنى ..!

ـ لا أستطيع .. أنك صدمت فى .. تجربة حب مثلا !...

ـ مثلا !

وضحك حسام وأصابعه تجذب شعر هناء :

ـ أهذا هو الشىء المروع فى نظرك !

ـ أعتقد ...

وصرخ :

ـ سهير .. كفى .. اننى أتعذب اذا عدت الى الماضى..لننس كل شىء .. لندع الماضى ملكا للنسيان .. لنحيا لحظتنا هذه .. نحياها بكل ما فيها من معقول ولا معقول !...

وصمت لحظة .. لكن الاضطراب كان يهز يديه .. وشفتيه ..

ـ ما رأيك يا سهير؟!..

فنظرت اليه ...

ـ تقضين الليلة هنا ؟!

فنهضت واقفة ...

ـ لا .. لا أستطيع .. أبى أمى .. أخى .. ماذا أقول لهم ؟!..

وضحك ضحكة مخنوقة :

ـ حسنا .. هيا بنا اذن !...

وقبل أن يخرجا استدار :

ـ انتظرينى يا هناء .. سأعود بعد قليل ...

وسار أمام سهير على الجسر الضيق الذى يفصل حقل القصب عن حقل البرسيم .. وبعد دقائق صعدا الى الطريق واتجها الى موقف الأتوبيس ..

ـ هل أراك غدا ؟!..

ـ كالعادة .. قرب الظهر ...

وعادت تسأله :

ـ هل أنت غاضب منى ؟..

ـ لا ...

ـ سأحضر غدا اذا دعوتنى ؟..

ـ اذن ...

وتوقف الاتوبيس أمامهما .. فركبت بعد ما تلامست أصابعهما .. وابتعدت السيارة .. لم يعد يرى منها غير النور الاحمر الخلفى .. لكنه ما لبث أن اختفى فى .. الظلام ... وسار حسام .. خطوات بطيئة .. ونقيق الضفادع وصرير صراصير الليل .. يختلطان فى أذنيه .. ومر به بعض العمال عائدين من مصانعهم .. وبعضهم كان يركب دراجات ...

وانحدر حسام الى الجسر الضيق .. وأخيرا دخل بيته .. كانت هناء تجلس على حافة الفراش .. وقد جعلت ثوبها الى أعلى .. وراحت تنظر الى فخذيها فى الضوء الشاحب .. وجلس حسام بجوارها ، فسألته :

ـ صديقتك ؟..

ـ انها زميلة فى العمل ...

ـ أمى سألت عنك ؟..

ـ هى جميلة جدا ...

ـ أنت أجمل يا هناء .. أجمل بكثير ..

وضحكت الفتاة ، وهزت رأسها فى نشوة ...

ـ تدعو لك دائما ...

ـ كيف حالها ؟...

ـ قلبها طيب ...

ـ . . . . .

ـ وعبد المولى ؟...

ـ قطيعه ...

ـ لا تظلميه .. انه يحبك !..

ـ يحبنى أنا .. كذب .. انه يحب خضرة بنت مسعود .. ذهب معها يوم الجمعة الى حلوان .. ودخلا السينما !..

ـ لأنك لا تهتمين به ...

ـ هل كرهتنى يا سيدى ؟...

ـ لا طبعا ٠٠ لكن عبد المولى ٠٠ لطيف ٠٠ و ٠٠٠

وضحك حسام ٠٠٠

وارتفع صوت فى أعماقه يحدثه :

ـ لن تهرب ٠٠ عبثا تحاول هذا ٠٠ سهير ٠٠ لماذا جئت بها الى هنا ؟!٠٠٠

ـ اننى ما قصدت ؟ ٠٠٠

ـ بل ما زلت غبيا ٠٠ وتكرر المأساة ٠٠ ربما بتفاصيل أكثر ٠٠ الا أن النتيجة واحدة ٠٠ من قبل كانت الراقصة قدرية ٠٠ وليلى ٠٠ وسلوى ٠٠ وسوسو ٠٠ البداية تختلف ٠٠ لكن القصة بنفس التفاصيل ٠٠٠

ـ والعمل ؟٠٠ العمل ٠٠ العمل ؟٠٠٠

وارتفع صوت الناى ٠٠ ونبح كلب ٠٠ بعيد ٠٠ وماءت قطة ٠٠ وارتفع مواؤها ٠٠ ثم صار هامسا ساخنا وانسابت أصابع هناء بين قميصه وظهره ٠٠ وراحت تدلكه ونظر الى فخذيها ٠٠٠

وأغمض عينيه ٠٠ وارتمت هناء على صدره ٠٠ وصوتها يمزقه :

ـ لقد رأيت كل شىء ٠٠ لقد نامت على صدرك هكذا ٠٠!!

ـ كيف !٠٠٠

ـ لم تكن النافذة مغلقة تماما !!٠٠

وصمت حسام ٠٠ وانتابه احساس كل يوم ٠٠ انه يصاب بالدوار مع هناء ٠٠ و ٠٠ وتداخل الصدى فى رأسه ٠٠

« وارتفع بكاء طفلة صغيرة ٠٠ ورقصت قدرية رقصة العار ٠٠٠ »



« فتجمدت شفتيه فوق شفتى هناء ‥ وانطفأت اللمبة بهبة ريح جاءت من النافذة ‥ وازدحمت الرؤية أمام عينيه ‥ سوسو ‥ وكلماتها الكثيرة عن التقدمية ‥ وعصام ‥ وكأس الخمر ‥ ورسالة مكتوبة بخط ردىء …

« لست ابنى ‥ أمك وأخواتك ـ لا يريدون رؤيتك » …

هل تذهب معى للسينما ‥ « تعالى معى ‥ اننى أسكن وحدى ‥ والأم تجرى بجروحها لا تريد أن تترك جثة طفلها والطائرات كالغربان ‥ وشاشة السينما تمتد ‥ تطول ‥ تزداد عمقا ‥ والوجوه كثيرة ‥ وسلوى ‥ بنت الأربعة عشر ربيعا ‥ تبصق ‥ وأمها ‥ والفراش ولابد أن شيئا رهيبا قد حدث لك ‥ ربما ‥ قدريه صممت على أن ترقص الى النهاية ‥ والطفلة ‥ بكت كثيرا ‥ من هو أبوها ‥ سلوى قالتها رغم ما حدث ‥ لن أنسى ‥! سأحضر غدا لو دعوتنى ‥ قالتها ومضت ‥ وعبد المولى ذهب الى السينما مع خضرة ‥ شبار ‥ الشبار ‥ »

واختفى صوت الناى ‥ وارتفع نباح الكلب وسط الحقل …

ـ هناء ! …

ارتفع صوت حسام ‥ وهو ينظر الى عينيها …

كانت تبكى ‥ وعثر على صوته أخيرا …

ـ اتركينى الآن ‥ اذهبى …

وقامت هناء بتكاسل ‥ وخرجت …

ارتمى حسام على فراشه ‥ ودفن وجهه فى الوسادة ‥ والرياح تعبث بالنافذة ‥ والظلام يلف كل شىء ‥ وصوت الناى لا أثر له الآن ‥ وعويل الطفلة ما زال يدق رأسه فى رتابة …

ـ كان يجب ألا أحضر سهير ؟!‥

و ‥ هكذا يا حسام ‥ هكذا ؟؟!…

صوت سلوى الطيبة ‥ وأراد أن يضمها الى صدره ‥ لكن أمها كانت عارية فى الفراش ‥ وبصقت !‥ واختفت سلوى ‥ وشاشة السينما عريضة ‥ عميقة كالبئر ‥ وقدرية ترقص للسكارى ‥ وسوسو ‥ وكلمات قذرة معادة تنساب من فمها ‥ وليلى ‥ وليلة مظلمة كشفت حقيقتها ‥

لكن ‥ هناء لا تريد عبد المولى ‥!!

ألا ترحمونى ‥ ألا تأخذونى الى الصليب ‥ وتوقف القلم ‥ تحول الى قضبان حديدية ‥ فى نافذة زنزانة مظلمة ‥ وارتفعت دقات على الباب ‥

ولم يستطع حسام أن يتحرك ‥ ولا حتى استطاع أن يعثر على صوته …

وملأت أنفه رائحة غريبة ‥ وتنبهت حواسه قليلا ‥ وفتح عينيه ‥ لقد عادت هناء ‥ وفى يدها اناء بها نار ‥ ودخان كثيف يتصاعد منه …

ـ ما هذا ؟‥

ولم تجبه هناء ‥ لأن صوته لم يخرج من شفتيه ‥ و ‥ استمرت هناء تتجول فى الحجرة ، وهى تتمتم بكلمات مبهمة ‥ وحدث نفسه …

ـ كانت أمى تقول مثل هذه الكلمات ‥ آه ‥ آ ‥

وجذبته هناء باصرار …

ـ قم ‥ أمى قالت لا بد أن تخطو فوق النار سبع مرات ‥ هيا ‥ قم !‥

وذابت على شفتيه ابتسامة بلهاء ‥ وهمس :

ـ بخور ‥ حسنا …

فى اليوم التالى ، دخل حسام صالة التحرير ٠٠ بخطواته المضطربة وكان أول شىء سمعه ، هو ضحكة عبد الفتاح ذات الضجيج

الشبار ٠٠ الشبار ٠٠

وقبل أن يجلس الى مكتبه ، جاءه الساعى ليخبره أن مدير التحرير يطلبه ٠٠٠

وتمدد التشاؤم فى أعماقه ٠٠ وهمس لنفسه وهو يشعل سيجارة :

ـ ربما كان من مصلحتى أن ينتهى كل شىء الآن !٠٠

وقال عبد الفتاح :

ـ لقد قالوا كلاما كثيرا أمس ٠٠ أنهم يرونك عبثا يا حسام ٠٠ ومن رأيى أن تكتب ٠٠ لا بد٠ أن تكتب ٠٠ لأن عملك هنا هو أن تكتب !٠٠

واحتلأ حلق حسام بالدخان ٠٠ وأخذ طريقه الى مكتب مدير التحرير ٠٠٠

ووقف فى صمت مثقل بالملل ٠٠ وراح يرقب صلعة الرجل الرابض خلف مكتبه ، يصطنع ابتسامة شاحبة بلهاء ٠٠٠

ـ هل أنت مريض ٠٠ لا أصدق هذا ٠٠ فانت ٠٠٠

ـ لندخل فى الموضوع !٠٠٠

ـ حسنا !٠٠٠

واعتدل الرجل فى مقعده ، وابتلع ابتسامة ٠٠ وارتفع صوته :

ـ هذا هو الشهر الثانى ٠٠ ولم تكتب شيئا ٠٠ وهذه مسألة يجب أن نضع لها حد !٠٠

ـ حسنا !٠٠٠

قاطعه حسام :

ـ ولن أكتب !٠٠٠

واستدار حسام وخرج ٠٠ وكلمات لها عواء الذئاب تنهش ظهره :

ـ الجريدة يعنى عمل ٠٠ يعنى كتابة ٠٠ اما أن تكتب ٠٠ واما أن ٠٠

وأخذ حسام حقيبته من فوق مكتبه ٠٠ واستدار ليخرج ٠٠ ولكن صمته جعل عبد الفتاح يكف عن ضحكاته ويسأله :

ـ هل اتفقتم ؟٠٠٠ ستكتب اذن يا حسام ٠٠ اننا يجب أن نكتب ٠٠ أنا أكتب وعبد الستار يكتب ٠٠ ومنصور كذلك ٠٠٠

وارتفع صوت ، منصور :

ـ المانشيت الجديد ٠٠ الاسطول الامريكى يصر على تفتيش السفن الروسية ٠٠ قد يحدث الانفجار٠٠ وربما حدث فعلا !٠٠٠

وكف عبد الستار عن التهام الساندوتش ٠٠ وقال ولدغته تأكل منه الحروف :

ـ ارض ضميرك يا حسام ٠٠ واكتب !٠٠٠

وضحك حسام بصوت مرتفع ٠٠ ثم ابتعد ٠٠

ـ وداعا !٠٠٠

واهتزت يد منصور الخطاط ٠٠ وتعرج القلم فى يده ٠٠ وقبل أن يقول أحدهم كان حسام يهبط الدرجات الى الطريق ٠٠٠

وقابلته سهير فهللت :

ـ هالو حسام ٠٠ الى أين ؟!

ـ الى البيت !

ـ هل حدث شىء !

ولم يجبها حسام ، واستمر فى طريقه .. وحاولت سهير أن تخرجه عن صـمته ، لكنها فشلت ، فجذبته من يده بعنف :

ـ حسام .. لماذا لا تتكلم ؟...

ـ لأننى أريد أن أستريح !...

وتركها ومضى فى طريقه ...

« عبد الستار .. قال « ارض ضميرك؟ .. حسنا يا عبد الستار سأحاول أن أرضيه ...

ومرة أخرى وجد حسام نفسه فى بيته .. فى الحجرة المطلة على حقل القصب وحقل البرسيم ... ورقد فى فراشه ...

كان يحاول أن يعثر على بداية مريحة لأفكاره المتداخلة فى رأسه ...

ودخلت هناء .. وسؤال يطل من عينيها العسليتين ...

ـ عبد المولى سيتزوج خضرة الليلة !...

وابتسم حسام برغمه .. وجذبها حتى جلست بجواره على الفراش ، ونظر اليها طويلا ...

ـ هناء .. اسمعينى جيدا .. أنت الوحيدة التى تجعلنى قريبا من نفسى ...

ونظرت اليه هناء .. كان واضحا أنها لن تستوعب كل ما يقوله ...

ـ هناء .. هل حكت لك جدتك بعض الحواديت وأنت صغيرة ...

ـ وأنا صغيرة كنت عفريتة .. كنت أضرب الأولاد وأسرق لعبهم وأخفيها .. وكانت أمى تضربنى كثيرا ...!

ولمعت عيناها :

ـ وقالت لى جدتى مرة أن الشاطر حسن جاء على حصان أبيض وفى يده السيف وخطف ست الحسن والجمال .. وهو يغنى ...!

ولمعت الدموع :

ـ والليلة .. سيتزوج عبد المولى .. لكن خضرة .. ليست ست الحسن والجمال ...

وابتسم حسام فى رثاء .. ثم أشعل سيجارة ...

ـ هل أحكى لك قصة يا هناء ...

ـ عبد المولى .. جازاه الله .. كان يحكى لى قصصا وروايات كثيرا .. لكنه الآن يحب خضرة ...

ـ هناء ...

ـ نعم يا سيدى .. هل تريد طعاما ؟...

ـ لا لن آكل .. لقد تعودت أن تقدمى لى الطعام دائما .. أما الآن .. فانى أريد فقط أن تنصتى.. انصتى واسمعينى .. ان أحدا لم ينصت لى منذ فترة طويلة .. طويلة .. وقد حان الوقت لأن أقول كل شىء .. لأن أقنعهم .. بموقفى .. ولكن لأننى لا بد وأن أتكلم .. والا حـــدث انفجار فى .. رأسى !...

هناء .. هل لك أخوات .. حسنا .. أنا لى خمس أخوات .. نعم .. جميلات وطيبات مثلك تماما .. بل ان احداهن تركها خطيبها وتزوج غيرها مثلك ..!

ـ سيدى .. انك تبكى !...

وأغمض حسام عينيه :

ـ منذ خمسة أعوام كاملة لم أبك .. وبقيت أحتفظ بدموعى هنا ... فى صدرى .. الذى تورم .. خمس ســـنوات كاملة ، وأنا .. لا أبكى .. ولا أتكلم .. وأحس بأن أنفى ملء بالماء .. احســـاس بالاختناق ...

وصمت حســـام لحظة .. ثم نهض ووقف أمام هناء التى كانت تجلس على حافة الفراش .. وهى لا تدرك شيئا ...

وقف برهة ، ثم انساب صوته ممزقا :

ـ ليتكم أيها السادة تركتم لى فرصة الكلام ٠٠ ليتكم ٠٠ اننى أخطات كثيرا ٠٠ لكن خطأكم كان أكثر لأنكم لم تسمعونى والآن ٠٠ جاء دورى ٠٠ جاء دور الانسان الغامض لكى يتحدث ٠٠ لكى يعرى نفسه أمامكم ٠٠ ولكن ٠٠ بأيهم أبدأ ٠٠ ان القائمة طويلة ٠٠ لكننى سأتكلم ٠٠ مهما كان العـــدد كبيرا ولا يهمنى بعد ذلك ان كنتم تنصتون أم لا ٠٠ فأنا أعرف أنكم غرباء عنى رغم كل ما حدث ٠٠ وأعرف أنه لا شيء يهمكم غير متابعة أخبار الحرب التى قد تندلع بسبب كوريا ، أو بسبب توحيد ألمانيا ٠٠ أو بسبب الحدود بين الهند والصين ٠٠ أو بسبب كشمير ٠٠ ان هذه أشياء لا تهمنى الآن ٠٠ لأنه عنـــدى ما يشغلنى عندى بذور تنمو لتحدث انفجارا داخل نفسى أنا ٠٠ وهذه هى البداية ٠٠ لقـــد كان مدير التحرير طبيعيا مع نفسه ٠٠ مع ظروف عمله عندما رأى أننى أصبحت عبئا على جريدته ٠٠ كذلك ٠٠ بنفس الدرجة كان أبى على حق أيضا من وجهة نظره ونظر القرية عندما أرسل يقول : لا تأتى الينـــا ٠٠ أمك وأخوتك لا يريدانك !٠٠٠

كل هذه الاشياء تبدو كمنطقية ، لأنها من وجهة نظركم ٠٠ وهذا حسن ٠٠ لكن ٠٠ وجهة نظرى أنا ٠٠ كلمتى أنا ٠٠ كلمة المتهم ٠٠ أليس لها أهمية ٠٠!

تكلمى أنت يا هناء ٠٠ أجيبينى ٠٠ أليس لرأيى أهمية ٠٠ ان المشكلة مشكلتى أنا ٠٠ لذلك يجب أن أتكلم ٠٠ لقد عشت خمس سنوات يا هناء وأنا صامت ٠٠ ألم يكن فى هذا ما يكفى من العذاب ؟؟!٠٠

وصمت حسام فجأة ٠٠ وراح ينظر الى هناء ٠٠ ولم تدرك ماذا تقول الا انها همست أخيرا :

ـ هل أحضر لك أمى ؟٠٠ انها تقول لا بد من عمل حجاب لك ٠٠٠

وقال حسام :

ـ أمك طيبة يا هناء ٠٠ وكذلك أمى ٠٠ لقد كانت دائما تصنع الأحجبة عند المشايخ لى ٠٠ وتملأ حجرتى بالبخور والتعاويذ وأنا صغير ٠٠ وأنا ابنها الوحيد ٠٠ والابن الوحيد بين البنات ، له أهمية كبيرة ٠٠ لكن أمى وأبى أضاء أنوارا حمراء على كثير من الطريق أمامى ٠٠ وجعلاها غامضة ٠٠ وكان على أن أكتشف هذا الغموض وحدى ٠٠٠

كان ذلك وأنا فى العشرين ٠٠ ولم أكن قد عرفت النســاء بعد ٠٠ فدائما كانت « عيب » و « حرام » هما النور الاحمر والحارس الشديد ٠٠

وجئت الى القاهرة ٠٠ دخلت الجامعة ٠٠ وكان لا بد أن أجد ثمنا للطعـــام والمسكن ٠٠ والتفاصيل كثيرة ٠٠ يا هناء ٠٠ لكنى استطعت أن أجد مكانا متواضعا فى هذه الجريدة المسائية ٠٠٠

كنت خاما ٠٠ ومع سنواتى العشرين ، حمل ثقيل من البراءة والسذاجة ٠٠٠

وكانت التجربة الأولى ٠٠ مع الراقصة قدرية ٠٠ وكانت فتاة جميلة تعمل راقصة من الدرجة الثالثة فى أحد أندية الليل ٠٠٠

وذات مساء كنت معها فى فراش واحد ٠٠ وصدقت دموعها ٠٠ وبشهامة ريفيـــة ٠٠ تزوجتها ٠٠ وعرف أبى ٠٠ واعتبرنى هو وأمى ميتا ٠٠ ولبست أمى ثياب الحداد ٠٠ وجاءتنى الرســـالة الوحيـدة من أبى :

ـ « لا أنت ابنى ٠٠ ولا أعرفك ٠٠ أمك وأخواتك لا يريدون رؤيتك » ٠٠!

ومن ناحية أخرى ٠٠ يا هناء ٠٠ كانت زوجتى الأولى ٠٠ تمزق كرامتى كزوج كل ليلة ٠٠ على موائد زبائن الملهى ٠٠ وفى أكثر من فراش ٠٠٠

وحاولت أن أنقذ ما يمكن انقاذه من كرامتى ٠٠ لكنها أصرت على أن ترقص ٠٠ لانها تحب ذلك ٠٠ وطلقتها ٠٠ ولكنها كانت قد جاءت لى بـ ٠٠ بنت ٠٠ طفلة صغيرة ٠٠ الله يعلم من هو أبوها ٠٠!

هكذا يا هناء ٠٠ بدأت المشكلة ٠٠٠

أتدرين ماذا قال لى زملائى فى الجريدة ؟٠٠٠

عبد الفتاح ضحك ضحكاته العريضة ٠٠ وقال ٠٠ « ولا يهمك ٠٠ هذه تجربة بسيطة !٠٠

لكنها ذهبت الى المحاكم ٠٠ وطالبت بنفقة ٠٠ لـ ٠٠ ابنتى ! ٠٠

وهنا يجب أن أقول لك يا هناء شيئا :

أننى لا أدرى كيف ولماذا ٠٠ تتكرر أحداث معينة فى حياتى بنفس التفاصيل نعم ٠٠ لماذا ؟ ٠٠٠ فانه لم يمر على حادث الراقصة بضعة أشهر ، حتى كنت غارقا فى تجربة أخرى مع فتاة أخرى !٠٠ لماذا لم أكف عن حبهن ؟!

أتعرفين يا هناء ؟!

الذى أعرفه أننى أريد أمى دائما بجوارى ٠٠ أريد حنانها الذى امتصه عمرى عشرين عاما !٠٠٠

وهكذا اندفعت الى الفتاة الاخرى سلوى كانت فى الرابعة عشرة من عمرها ٠٠ صغيرة ٠٠ جميلة ٠٠

لكن التجربة هنا تأخذ طابعا آخر ٠٠ لأن أمها كانت مطلقة وكانت فى الخامسة والثلاثين ٠٠ ولا أدرى كيف استسلمت لاغرائها ، ولكنى أذكر الآن ، أننى أحببت أمومتها ٠٠ وكنت أشكو لها مشاكلى النفسية والمادية ٠٠ التى تواجهنى كطالب منتسب للجامعة وكانسان يشق طريقه بصعوبة فى الجريدة ٠٠ ولا أدرى كيف حدث ما حدث بعد ذلك ٠٠ فقد رأتنى ٠٠ ابنتها ٠٠ سلوى ٠٠ فى فراش أمها ٠٠ وبصقت !

وخرجت من التجربة بجرح جديد فى مشاعرى !٠٠

وحاولت أن أجد نفسى ٠٠ سافرت الى القرية ٠٠ لكن أبى رفض أن يمد لى يده ٠٠ وبكت أمى ٠٠ وبكت اخوتى ٠٠ وقالها أبى أخيرا :

« لقد أسأت الى أخواتك ٠٠ ان أحدا لا يشرفه الزواج منهن لأنك أخوهن !! وعدت الى القاهرة ٠٠ ومشاعرى كلها ممزقة !٠٠

وكان الاحساس الوحيـــد الذى تبقى لى ، هو أنى غريب ٠٠ فانطلقت أبحث عن امرأة٠٠ تربطنى بأصلى كانسان !٠٠٠

وكانت فاطمة ٠٠ أو فيفى ٠٠ أو ليلى ٠٠ لا أذكر ٠٠ فقد كان لها أكثر من اسم ٠٠ كانت زميلة بالجامعة ٠٠ وجذبنى اليها تحررها ٠٠ وفى كل لقاء كانت تؤكد لى أنها تحبنى ٠٠ وأننى أول حب لها٠٠ وصدقتها ٠٠ وذات يوم جاءت تزورنى فى الجريدة ورآها عبد الفتاح ٠٠ فانطلقت ضحكاته العريضـــة وصاح :

الشبار ٠٠ الشبار ٠٠

هكذا تصدعت نظرتى الى النساء؟!

وفى العام الماضى ، وصلتنى رسالة كانت ذات أثر كبير فى حياتى ٠٠ الرسالة عبارة عن كلمات عادية ٠٠ لكن سطرا واحدا فيها أضاء أمامى أملا جديدا فى أن أعثر على شىء جاء يعيد الاتزان الى حيـــاتى المضطربة !٠٠٠

وهذا السطر يقول : « ٠٠٠ وكاتب مثلك يجب أن يساهم بأفكاره معنا فى بلورة أفكارنا التقدمية »

والتقيت بعد ذلك بعصام زميل الدراسة ٠٠ وكاتب الرسالة التى جاءتنى بالبريد ٠٠ ومن اللقـــاء الأول عرفت أن عصام ينتمى الى خلية والخلية بدورها تنتمى الى منظمة تعمل تحت الارض !٠٠٠

وكانت رغبتى فى خلق توازن حياتى ، يدفعنى الى الارتماء فى أحضان هذه الخلية ٠٠٠

وفى البداية ، كان احساسى بأهميتى يشجعنى على التمادى فى الانحراف ٠٠ الفكرى ٠٠٠

وبدأت أتعاطى أفكارهم على مائدة تملأها زجاجات الشراب ٠٠ وكان يجلس بجوارى دائما عصام ٠٠ واحدى الفتيات الجميلات ٠٠ واسمها « سوسو » ٠٠٠

بالتدريج بدأت أتلقى التعاليم على يد سوسو وحدها ٠٠ ولم يعد عصام يحضر اجتماعنا الا قليلا ، وبدأت جاذبية سوسو تأتى ثمارها ٠٠ فقد صرح لى ذات يوم :

ــ ما هذا ٠٠ هل جننت ٠٠ لن أنشر هذا المقال !٠٠

وكانت مشادة ٠٠ انتهت الى مكتب رئيس التحرير ، الذى قذف بالمقال فى وجهى قائلا :

ــ لولا أننى أعرفك جيدا لجعلتهم يقذفون بك الى السجن !٠٠٠

وبدأت أعيد النظر فى الأفكار التى سمموا بها رأسى ٠٠ وحدث نقاش حاد بينى وبين عصام ٠٠ أنهاه بأن ترك سوسو معى لتحاول اقناعى ٠٠٠

ومع سوسو دار حديث طويل ⋅⋅ قالت :

ــ ان اتجاهك الفكرى مشوه من البداية ⋅⋅ لذلك فأمامى وقت طويل لكى أجعلك تؤمن فعلا بدعوتنا القيمة ؟⋅⋅⋅

فضحكت وقلت :

ــ الحقيقة أننى لم أعرف هذه التنظيمات من قبل ⋅⋅ اللهم الا اذا اعتبرنا الاسبوع الذى قضيته مع جماعة دينية شيئا مذكورا ؟⋅⋅ فصاحت سوسو :

ــ هل كنت اخوانيا ⋅⋅⋅

فضحكت مرة أخرى :

ــ لقد قال لى أحدهم لا تدخل السينما ⋅⋅ لأن هذا رجس من عمل الشيطان ⋅⋅ فدخلتها ⋅⋅ وكانت النتيجة خطبة رنانة فى تفاهة عقلى وضعف ايمانى ⋅⋅ وقد فضلت السينما على سماع خطبهم !⋅⋅⋅

وضحكت سوسو ، ثم مالت على كتفى وتبادلنا قبلة !⋅⋅⋅

وقالت :

ــ هيا اذن لنتفاهم !⋅⋅⋅

وكان الفراش هو المكان الذى تفضله سوسو مندوبة المنظمة ، لتلقننى فيه التعاليم وذات يوم قلت لسوسو :

ــ لقد أحببتك وأريد أن أتزوجك ! ⋅⋅⋅

وكانت المرة الأولى التى تكف فيها سوسو عن الحديث عن التعاليم التقدميــة ⋅⋅ وتم الزواج ⋅⋅ واحتفل بنا عصام وزملاؤه احتفالا يرضى غرورى !⋅⋅⋅

بعد ذلك انكشف أمر الخلية ، وتم اعتقالنا جميعا عدا سوسو ⋅⋅!

وحكم على بالسجن عاما ⋅⋅ وبعد انتهاء المدة خرجت لأجد سوسو قد تركت البيت ⋅⋅ بل أنهـا احتفلت بخروجى على طريقتها الخاصة ⋅⋅ اذ جاءتنى وطلبت الطلاق !⋅⋅⋅

وعدت الى عملى بالجريدة ⋅⋅ عدت كانسان مشوه ⋅⋅ تحولت الارض كلها من حولى دمارا ⋅⋅ وبقايا⋅⋅

وصمت حسام ⋅⋅ ونظر الى هناء نظرة طويلة !⋅⋅⋅

ــ لقد جئت الى هنا هربا من ⋅⋅ نفسى ⋅⋅ ومنهم أيضا ⋅⋅ انهم جميعا هناك أعداء ⋅⋅ لا أحد منهم يحس بوجودى ⋅⋅ لا أحد ⋅⋅ وسأترك العمل ⋅⋅ بل اننى تركته ⋅⋅ سأعمل هنا ⋅⋅ فى الارض فى المصنع ⋅⋅ سأعمل أى عمل ⋅⋅ ولن أعود اليهم ⋅⋅⋅

وقالت هناء فى أسى :

ــ هل تشتغل فى المصانع مثل عبد المولى ؟!

وقبل أن يجيبها حسام ⋅⋅ فتح الباب ⋅⋅⋅

⋅⋅⋅ ودخلت سهير ⋅⋅⋅ فنهض حسام وقد تكدرت ملامحه ، ونظر اليها طويلا ، وهى واقفة عنـد الباب بجسدها الممتلىء وشعرها الذهبى وعينيها الزرقاوين ⋅⋅⋅

ــ لماذا جئت ؟!⋅⋅⋅

وابتسمت سهير ، وتقدمت حتى أصبحت أمام حسام تماما ⋅⋅ وأمسكت بيديه ⋅⋅⋅

ولم يشعر حسام بشىء بعدئذ ⋅⋅ حتى أن هناء خرجت دون أن يدرى بها ⋅⋅⋅

ــ اننى أحبك يا حسام ⋅⋅⋅

ــ لماذا ؟⋅⋅⋅

ــ لا أعرف ⋅⋅ ليس هناك سبب واضح !⋅⋅⋅

ــ وأنا أيضا أحبك يا سهير ⋅⋅ وفى نفس الوقت لا أريدك معى ⋅⋅⋅

ــ هكذا ⋅⋅⋅

ــ أنك تحركين فى أعماقى أشياء لا أريدها أن تتحرك ⋅⋅ ويجب أن تبتعدى عنى ⋅⋅⋅

ــ لكنك فى حاجة الى ⋅⋅⋅

ـ من قال هذا ؟...

ـ عبد الفتاح أخبرنى : أنك فصلت من عملك !...

ـ وضحك حسام وراح يحدثها وعيناه فى سقف الحجرة تتابعان ذبابة تحاول التخلص من خيوط العنكبوت ...

ـ لا أدرى لماذا يسيطر على ذهنى خاطر غريب ...

ـ ما هو يا حسام ؟...

ـ يخيل الى أن المسيح لو عاد الآن الى العالم ورأى ما يحدث لنا لفر هاربا !..

ـ الى هذا الحد ...

ـ زمان .. جاء المسيح .. وراح يدعو الناس ، للحب .. للخير .. للسلام .. فعلقوه على صليب حتى مات .. واليوم ، الأشياء الطيبة تفر تختفى ...

واستدار حسام ، وفاجأ سهير بسؤال :

ـ هل هناك شيء جدير بالاحترام ؟...

وفكرت سهير لحظة .. ثم قالت :

ـ حسام .. أنت متعب .. ولا بد أن تستريح !..

ـ لقد جئت الى هنا لأستريح ، لكنك جئت ، وجعلت هناء تفر !..

ـ هناء .. هناء .. انك تفكر فيها بشكل غريب !...

ـ نعم .. انها ترمز الى الشيء المفقود .. الى أمى التى حرمت منها .. انها عطوفة .. أتعرفين .. لا أنك تجهلين أشياء كثيرة أنك مثلهم ..

ـ اننى لا أفهمك .. ولكنى أحبك .. أحبك .. وهذا هو الشيء الوحيد الذى أستطيع تأكيده الآن ...!

ـ وأنا فقدت القدرة لى أن أحبك .. كل ما عندى لك هو الجانب القذر من الحب .. وهذا شيء تعودته !...

وصمتت سهير ...

وأشعل حسام سيجاره :

ـ نعم .. قد تشكلت طبيعتى هناك .. وسطكم فى المدينة بهذا الشكل المشوه .. وصدقينى .. اننى أرغب فى أن أجد شيئا .. أومن به شيئا أحترمه ..

وصمت حسام .. تجمدت مشاعره لحظة .. عندما دوت صرخات مذكورة غير بعيدة عن البيت ...

وانكمشت سهير ، وخيل اليها أن الظلام يمتلئ بالأشباح ، وارتفع نباح الكلاب ، وخرج حسام ليرى ما حدث ...

وغير بعيد كانت هناك فتاة تجرى والنيران تشتعل فى ثيابها وشعرها ، والخوف يمنع الجميع من الاقتراب منها .. وقبل أن يجد حسام القدرة على الحركة كانت الفتاة قد سقطت شعلة من النار ... وبجوارها تجمع الناس ...

واقترب حسام من المكان ... واهتزت أعماقه بعنف ...

لقد انتحرت هناء !...

واستدار يعود .. فرأى عبد المولى خطيبها ، يندفع وسط الناس وهو يصرخ فى ألم ...

وبخطوات ضعيفة عاد حسام الى البيت ، وجلس مذهولا على حافة الفراش ... وسهير بجواره مضطربة ...

بعد لحظة صرخ :

ـ مات الخير .. احترق الأمل .. هرب الحب والسلام .. الآن فقط بدت الحقيقة .. وعلق المسيح على الصليب !..

ونهض حسام واقفا ، وواجه سهير بعنف :

ـ لقد احرقت نفسها ٠٠ لماذا ؟٠٠ لا أحد يعلم ٠٠ لكنني قد أكون مذنباً مثل عبد المولى الذى تركها وأحب خضرة ٠٠ انني أيضا نسيتها عندما جئت أنت يا سهير ٠٠ كل منا تلوث أصابعه بقع الدم ٠٠ الكل ملوث ٠٠ لا شيء نظيف ٠٠ سهير ٠٠ أتسمعين ٠٠ لقد احترقت وجف النبع الطيب ٠٠ وارتفع نباح الكلاب ٠٠ وعبد الفتاح ما زال يصرخ : الشبار ٠٠ الشبار ٠٠ وعبد الستار لن يكف عن التهام الساندوتش ٠٠ وأنت ستظلين تبحثين عن زوج ٠٠ وأمى تبكي وأبى يقول : أننى طالع نحس ٠٠ وابنتى ؟٠٠ ليست ابنتى ؟٠٠ وسوسو ٠٠ أسلمتنى الى الشيطان ٠٠ ماذا تبقى لا شيء ٠٠ حتى الصلب ٠٠ لم يعد عليه مكان لى ٠٠

وصمت حسام لحظة ٠٠ وقد اتسعت عيناه مدهشة ٠٠ عندما رأى عبد الفتاح وعبد الستار ومنصور الخطاط ٠٠ رآهم الثلاثة أمامه ٠٠٠

ووقف يتبادل معهم النظرات البلهاء ٠٠٠

قال عبد الفتاح وهو يضع لفافة على السرير :

ـ عرفنا العنوان من سهير ٠٠٠

وقال عبد الستار :

ـ لقد جئنا لنراك ٠٠ فأنت زميلنا !٠٠٠

وقال منصور :

جئنا نسهر عندك الليلة ٠٠ اننا نحتفل بانتهاء الأزمة ٠٠ لقد كتبت اليوم المانشيت الذى أراح أعصابى وجعلنى آمل فى الحصول على اجازة لآكل أرزا وشبارا عند عبد الفتاح ٠٠٠

وجلس الثلاثة بجوار سهير ٠٠ وأخرج عبد الفتاح زجاجة خمر من اللفافة وسأل عبد الستار ، عن طعام ٠٠ وبحث منصور عن أكواب ، وأشعلت سهير اللمبة بعود ثقاب ٠٠٠

وخيم الصمت لحظة على الغرفة ٠٠ وهم يرون حسام واقفا أمامهم ونظروا الى سهير التى انزوت خلف حسام ٠٠٠

همس عبد الستار :

ـ ماذا حدث ٠٠٠

وقال منصور :

ـ هل جئنا فى وقت غير مناسب ؟٠٠

وقال عبد الفتاح :

ـ الشبار ٠٠ الشبار ٠٠

ثم رفع الزجاجة وراح يعب منها بلا توقف ٠٠٠

وقال منصور :

ـ لن تقع الحرب يا حسام بسبب كوبا ٠٠ لقد أشرق أمل جديد ٠٠٠

وقال عبد الستار :

لقد تحدثنا مع مدير التحرير ٠٠ ووافق على أن تعود ٠٠ بشرط أن تكتب ولا بد أن تكتب ٠٠٠

وأنزل عبد الفتاح الزجاجة من فمه ٠٠ وهمس :

ـ آه ٠٠ لذيذة ٠٠ هل أكلتم شبار ٠٠ ولعبتم لعبة الاستغماية انها لعبة أنظف من عسكر وحرامية كثيرا ٠٠ أتعرفون ٠٠

ونهض منتشيا ، واقترب من حسام ، وخبط على كتفه وقال :

ـ أتريد موضوعا تكتب فيه ٠٠ هاك موضوعا ٠٠ عظيما ٠٠ اكتب ٠٠ اننى أدعو خروشوف وكنيدى

الى لعبة ٠٠ لعبة النجار عاوز مسمار والمسمار عند الحداد ٠٠ والحداد عاوز بيضه ٠٠ والبيضة عند الفرخة ٠٠ هاها ٠٠ أليس موضوعا عظيما ٠٠ وسيكتب له منصور عنوانا بخط جميل ٠٠ البيضه والفرخة ٠٠ ها ٠٠ أليس كذلك يا سهير ٠٠ الفرخة والديك ٠٠ وأيهما وجد أولا ٠٠ الانســــان أم مشـــاكله ٠٠ هه ٠٠ ما رأيكم يا سادة فى الشبار ٠٠ أليس لذيذا !٠٠٠

وضحك عبد الفتاح ضحكة ممزوجة بالبكاء ٠٠٠

وأحنى حسام رأسه لأول مرة منذ دخلوا ٠٠ وهمس :

ـ لقد انهزم الخير كثيرا ٠٠ وماتت هناء منذ لحظة ٠٠ رفعت نفسها الى السماء ٠٠ واخذت مكانها الى جواره ٠٠ ويبدو أن المسيح سعيد الآن ٠٠ وربما كان غير سعيد ٠٠ لا أدرى ٠٠ فالأمور كلها نسبية !٠٠

وهمست سهير :

ـ حسام !٠٠٠

واندفعت هبة من الرياح من النافذة ، وجاء معها صوت ناى حزين ٠٠ لكنه كان خافتا ٠٠ وكانه يأتى من أغوار سحيقة وهمس حسام بصوت تملاه المرارة :

ـ لقد زاد عمق البئر ٠٠ وانقطع الحبل ٠٠ حبل الدلو ٠٠ ولا أمل فان أروى ظمئى ٠٠ لماذا ٠٠؟ انها مجموعة متناقضات وجدت أرضا خصيبة لها فى نفوسنا لكن الذى أريد أن أعرفه حقا يا اخوانى هو : هل يصر أبى وأمى على انكارى حقا ؟!

لقد بحثت كثيرا عن جواب لسؤالى ٠٠ ولم أجد جوابا عند الراقصة ٠٠ ولم أجد جوابا شافيا ٠٠ عند سلوى ٠٠ ولم أجد جوابا شافيا عند عصام وسوسو ٠٠ وأفكارهما التقدمية ٠٠ وهناء ٠٠ ذهبت هناء قبل أن تجيب ٠٠ بل لعلها أجابت وأنا لا أعرف ٠٠٠!

ورفع حسام رأسه ، وضم قبضتيه قليلا :

ـ والآن أيها السادة ٠٠ لقد انتهيت ٠٠ قلت كل ما عندى ٠٠ وان يجب أن أقول كل هذا ٠٠ قبل الآن بخمس سنوات لكن ٠٠ ترى ٠٠ هل تغير الوضع ٠٠

ورفع عبد الفتاح الزجاجة الى شفتى حسام ٠٠ وقال :

ـ اشرب ٠٠ بعضه ينعشك قليلا ٠٠٠!

وقال حسام :

ـ لقد أفقت بما فيه الكفاية يا صديقى !٠٠٠

واتجه الى الباب ٠٠٠

ـ الى أين يا حسام ٠٠٠

ـ حسام ٠٠٠

وهمس :

ـ لقد عشت كثيرا وأنا أشعر بأن أنفى مليئة بالماء ٠٠ عشت فى حالة اختناق ٠٠ والآن ٠٠ سأذهب اليه ٠٠ انها محاولة أخيرة ٠٠ علنى ٠٠

واندفع حسام من الباب ٠٠ الى الجسر ٠٠ الضيق الذى يفصل بين حقل القصب وحقل البرسيم ٠٠ وصعد قليلا حتى وصل الى الطريق ٠٠٠

ولحقت به سهير عند موقف الاتوبيس ٠٠ لكنه ركب قبل أن تحدثه ٠٠٠

وهناك فى الميدان الواسع ٠٠ كانت الضجة تملأ الفراغ ٠٠ وحسام يسير ببطء وسط الزحام ٠٠ وهو صامت ٠٠ وترامت الى أذنيه أناشيد المنشدين والذاكرين فى سرادق قريب ٠٠ وسمع صوت مطرب شعبى يهلل له السامعون باصرار والحاح ٠٠ ورأى فتاة صغيرة ترقص فى زى البلياتشو على أنغام البيانولا ٠٠ وبجوارها رجل يمد يديه لالتقاط القروش ٠٠ ولمح شابا أشعث الشعر يطارد ريفيا ٠٠ وبعد لحظة ارتفع صراخ الريفى يندب نقوده ٠٠٠

وتصاعد دخان بخور ٠٠ وازداد الصخب ٠٠ فأحنى رأسه واقترب من المسجد ٠٠ وملأ أذنيه صوت يستغيث :

ـ يا سيدة زينب ٠٠ مدد !!٠٠٠

زمن بعيد

قصة : عبد الرحمن ابو عوف



غادر البص أمام محطة الجيزة وعيناه على ساعته ويده اليسرى قابضة على غليونه واستقبله الميدان المائع الشخصية بين المدينة والريف ، خليط من عربات البص والامنبوس وعربات السفر الصغيرة وانفجرت الاصوات الموتورة من كل ناحية : **بنى سويف على واحد ، البدرشين البدرشين الموز المغربى عندك شاى كشرى وولعه للبورى •**

وتهمل فى عبوره صحن الميدان وهو يمسح بعينيه عتمة المساء الوليد المناسبة من سماء فبراير الملبدة بالغيوم وما لبثت البرودة ان تسللت اليه فرفع ياقة البالطو وعبث فى جيبه وهو يعبر شريط القطار الى العمرانية ملتقطا علبة الكبريت وراح يشعل غليونه مستلهما الدفء بين اصابعه القابضة على العود المشتعل وأخذ يراقب غليونه فى نشوة وهو يزفر الدخان تراقص ظل الشعاع الشاحب للعود فوق الارض العائمة فى الظلام آخذا طريقه بجانب سور المحطة على مساره تراصت عربات نقل البضاعة الحمراء فى خطوط لا تنتهى راميا بنظره بعيدا خلال أعمدة النور المنتصبة على طول الطريق وشعر بحنين غريب مبهم وما أسرع ما انتابته احاسيس شتى متباينة مركبه وتذكر فجأة وجه المدير العام هذا الصباح الوجه المجهد يقطر طيبه وعينيه المتألقتين وحديثه المنفعل عن العمل والظروف وكيف يتفاعل معهما الانسان ،وما أقرب الشبه بين اخوه الكبير الاستاذ الجامعى وبين المدير العام كأنهما يفكران مما أكثر من مرة حدثه أخوه عن الحياة وعن العمل والظروف ايضا وها هو لا يجد فرقا بين اللغتين •

وفى هدوء الشارع الجانبى المترب المفروش بقاذورات مكدسه طريق العمرانية وأمام البيوت المهدمة الكالحة الجدران الفاغرة أبوابها القذرة المحطمة لافظة نساء شاحبات وأطفالا هزالا لا يميزهم عن الوحل سوى الحركة واصل سيره ومازال صوت المدير الهادىء الموحى يختلط بصوت الأخ الكبير المنغم الخطابى فى أذنيه •

صوت داخلى غريب كأنه يأتى من أعماقه فى كلمات غير مترابطة ورغم ذلك لها بقايا معان عليك يا رافت ان تفهم أن معادلة الحياه كما اراها هى ٦٠ ٪ عمل ، ٢٠ ٪ معرفة كيف تكسب الاصدقاء حولك وتوجيه طاقاتهم الى ما تريد دون أن يشعروا أنهم على ذلك ٢٠٪ حسن تقدير للفرصة وكيفية استغلالها •

ليسمع هذه النصائح اذن ولينس الصراع الهائل الذى القى بنفسه فيه ذات يوم بوعى وحماس وشعر بنفسه يتغير ويغير كل ما حوله طلبة الجامعة ادراكه لكل احوال بلاده حوله نعم لينس كل هذا ليخوض صراعا شاحبا ضيقا هزيلا فى بيئة العمل المحدوده •

وزفر الدخان فى سخط غير عابىء باحتراق حلقة من كثرة التدخين التى تعود عليها هذه الايام لدرجة الادمان وعادت خواطره تتسلل •

هل يستطيع الانسان ان يقتل فى نفسه شيئا غالبا بدا ينمو ويقوى شيئا قد علمك كيف تنفذ الى اعماق الاشياء خلف السطح الساكن شيئا يغريك بأن تقبض على كل الاسرار حولك ؟

شد ماتشعر بالغربة بين الموظفين وتجرب أكثرمن مرة ان تعايش تفاصيل حياتهم ، هذه الهموم الصغيرة والترقيات



والعلاقات والنقل وكل هذه المشاكل المألوفة غير انك تشعر بالغثيان وما اسرع ماينتابك السخط على هذا الحصار العفن ٠

واستيقظ من خواطره على قطار الصعيد الطويل يزحف فى بطء مغادرا محطة الجيزة ٠

المنيا ٠٠ وأخى اسماعيل هناك :
ليالى الصعيد الطويلة الباردة فى الشتاء والصمت يعانق النهر المستسلم عند أقدام الجبل العاتى ومكتبة اسماعيل والمناقشات بيننا دافئة صاخبة يولد خلالها شىء تتعلق به النفس ثمة احساس بعوده أشياء ضائعة من أنيه شعور غريب بالامتداد والتخطى ان يقرأ كل هذه الكتب ان يغوص ابعد وابعد فى هذا العالم السحرى من الكتب الحبيبة ٠

كل هذا تعلمته فى هذه الجلسات وفى ظل صداقتى لك **يااسماعيل** وكأنها امتداد لثمة صداقة دافئة بينك وبين أخونا الكبير ٠

وبدأ ينقب بعينه خلال الظلام الهائل أضواء الانوار الموزعة فى غير تناسق استقرت على البيت المتواضع ذى الطابع الفرعونى ٠

الهدوء والاصوات البعيدة لقطار الصعيد ، وذكريات الامس البعيد وخفقة القلب مازالت تطن فى الصدر والوجه المبتسم والعينين الحزينتين ، رائحة المنيا تعود والايام فى مقدمة الحياة دافئة محملة بالاحلام والمناقشات والاخطار ٠

وفى هذا البيت تعلمنا كيف نحفر القبر لنوارى فيه جثة الماضى ، بيتك يا يوسف ما أكثر ما احتضن احلامنا أيام الجامعة احلامنا التى كان يلذ لعصام ان يطلق عليها احلام بلادنا) عصام ويوسف واكواب الشاى وكل ما يحدث فى العالم وبلادنا يخضع للمناقشة والتحليل ودائما يسأل عصام **ما العمل نعم ما العمل ؟؟**

غير انك لاتعجبنى هذه الايام يايوسف فسرعان مافتر حماسك ولا انسى لك انزعاجك المزرى عندما غادرت الوطن عام ١٩٥١ وتركتنا اثار عصام واختلطت بعدما الامور ، وابتلعتك الوظيفة والروتين وبدأت تحلم بالزواج وتنظر نفس النظرة التى طالما احتقرناها معا للزواج من اسرة مدعمة تشد العريس ٠

مايجذبنى اليك هو الماضى فأنت جزء منه والحزين المكلوم قد يشعر بما يخفف الكوعة عندما يمر بمبنى أو طريق شهد أياما غالية ٠

الحياة على هذا الجانب متواضعة فى كل شىء فى البيوت والناس والتصرفات التواضع المألوف المتولد من الفقر اما الجانب الآخر المقابل من الجيزة قبل أن تتوه فى الريف فالعمارات نظيفة شاهقة ترفع فى كبرياء وشموخ والشوارع رحيبة تصطف على جانبيها الاشجار ٠

وبيده اليمنى أخذ يدق باليد المعلقة على الباب العفريت أيام الصبا والحارات ومعاكسات الجيران واليد المسلولة عندما احضرها اخوك طالب الطب والانزعاج الذى احدثته ليلتها فى البيت وتقيأت الاخت وحلمت ليلتها أحلاما رهيبة اليد تتحرك فى البيت وتخنق من فيه ونزول البسمات من الوجوه الصغيرة عندما تفاجأ باليد وما اسرع ماانفرج الباب

عن وجه فتاة صغيرة مبتسمة فى براءة طفولية محببة ومن خلفها وقف يوسف بقامته المنحنية الغليظة يرحب ويضحك ويتكلم فى سرعة .

ـ لازم الواحد يتصل بك بالتليفون حتى يراك اهلا اهلا رأفت ، ودخلا معا حجرة يوسف .

السرير الحديدى الابيض وكراسى الصالون الحمراء المنهكة القديمة ومكتب متآكل فوقه مجموعة من الكتب والمجلات مبعثرة فى غير نظام والحجرة عارية الا من نصف بساط مائع اللون .

كأن الحجرة ضاعت معالمها القديمة مع تغيرك يا يوسف وعبثا تحاول أن تسترجع الايام التى عاشت فى هذه الحجرة .

وفجأة تساءل رأفت وهو يجلس على المكتب مديرا عينه فى شبه فتور بالحجرة .

ـ كيف تطيق الحياة فى هذه الفوضى

وجاءت إجابة يوسف مصحوبة بضحكاته السريعة الموتورة .

ـ سوف اهرب يا صديقى من هذا الجو قريبا جدا فالحياة فى الاسره جحيم .

ثم سكت برهة ولمعت عيناه وعاد يتكلم فى جدية

ـ قد لاتعلم انى انتهيت من موضوعى وحددت موعد الخطوبة .

وبوغت رأفت محاولا اخفاء انفعاله

يوسف لم يعد يوسف بدأت اهتماماته تفقد روعتها الماضية وكل ما كان يقوله فى أيام الجامعة كأنه نساه ماذا عن الاسرة وحبها وأبوه الموظف الصغير وكلامه الكثير والتغير الذى سوف يدخله على حياتها وها هو لا يفكر الا فى صفاء .

الجمال والدرجة الاولى التى يتمتع بها أبوها والعربة والمنيل والحياه الراقية

وبعد صمت وامام الانتظار الذى يطل من وجه يوسف بعد أن القى بالخبر

لم يجد رأفت مفرا من الكلام

ـ أصارحك يا يوسف انك لم تعد تعجبنى

ـ أعلم ذلك انت غير راض عنى هذا ما الحه من زمن بعيد لكن ربما لم اعد أقدر على الحلم كالماضى قل لم تعد تقدر على الاستمرار

ـ لا بل غيرت خط السير قبل ان اتحول الى نموذج مسكين

نموذج مسكين انت يايوسف ولولا أنك رائحة الماضى وطعمه لما اهتممت بك

وتجنب رأفت قدر طاقته اثارة يوسف .

على كل مبروك واتمنى لك التوفيق من قلبى

ـ ارجو لك نفس المصير

ـ سأؤخر هذا اليوم على قدر ما استطيع

هو لايعرف عنى هذا الجانب فمنذ ان انتابه التحول لم أعد اعطيه كل مالدى من اهتمامات واخبار وهموم كالماضى جعلتها بالنسبة له منطقة من الظل

ـ وما هى بقية اخبارك بعد النقل من الصعيد

ـ البركة فى جهود ابو نسب تم

النقل بدون بدل واستلمت فى الوحدة الحسابية بالوزارة بعد ان اوشكت ان انسى ماتعلمته فى الكلية وسط ملفات المستخدمين الصفراء

ـ وماذا عن الاسره

ـ الكل يعارض انتظر انتظر حتى تكون لك ظهرا تستند اليه ها ها ها نصائح باليه يريدون ان يستهلكونى كفى ما ضاع

ـ ما الذى ضاع منك

ـ وشعر رأفت ان يوسف متحمسا مهتاجا فحول الحديث بلباقة مقلبا فى الكتب امامه

ـ ما الذى تقرأ فيه هذه الايام

ـ أعيد قراءة رواية القاهرة الجديدة

غريب ان يعاود قراءة القاهرة الجديدة لعله يقرأ عن الشىء الذى يشغله ربما تظن يايوسف انك ومحجوب عبد الدايم بطل الرواية صنوان نفس الاحلام نفس الطريق هل يعود كل شىء ويلعب نفس اللعبة وماذا عن ماضيه واستيقظ من خواطره على صوت يوسف يقول

وربما لا يعجبك رأى ان اعمال نجيب محفوظ الأولى أوضح وايسر وربما تكون اجدى من قصصه الاخيرة نعم لقد وجدت صعوبة فى قراءة اللص والكلاب ماذا يقصد

ثم هذه الضبابة التى فى قصصه القصيرة انها اشياء كالالغاز

حتى احكامه انتابتها الهزة وقد تجد ازمتك تلقى بظلها فى اللص والكلاب فتسخط عليها على أية حال من العبث ان أطيل الكلام معه

وفاجأه يوسف

ـ وانت يا رأفت اما زلت تواظب على حب الكتب

ليس بالقدر الماضى فالعمل كما تعلم ونوع الحياة الذى يتغير جعلا ساعات القراءة تتناقص غير انى اواظب قدر ما استطيع على معاشرتها فالقراءة عالم حبيب الى نفسى كما تعلم

ـ وماذا عن احلام الكتابة

يسميها أحلاما ، يسخر أم يشمت لا يعرف عن الصراع الذى أحمله فى صدرى وعقلى واولى به الا يعلم شيئا الآن وخلع رأفت نظارته وفرك عينيه المجهدتين قائلا فى صوت هادىء مرح

ـ ما زالت المعركة مستمرة

ـ قل ما زلت تحلم

ثم بعد صمت فاتر اعلن فى فرحة

ـ رأفت عندى لك مفاجأة

ورفع رأفت رأسه غير متوقع شيئا هاما متأملا وجه يوسف المستدير فى خطوط بارزة سمجه

فى حين قام يوسف الى المكتب وفتح الدرج واخرج زجاجة بنيه ودفعها قائلا:

ـ زجاجة روم معتقة تكفى بأن نحتفل بها بمناسبة هذا اللقاء

ـ وادعى رأفت الترحيب بالمفاجاة واضاف مقترحا

ـ ويا حبذا لو اتينا بزجاجتين من البيره

ـ وهو كذلك لقد أصبحت خبيرا وأنا أيضا قد تعلمت كثيرا فى الصعيد

آه الصعيد ولياليه الطويلة كالمرضى الحمر المرأة والاغراء الذى تحدثه المنضدة الخضراء

وسرعان ما حضرت البيرة وقام يوسف يرتب الجبنة الرومى والبيض ويقطع الخبز بينما انهمك رأفت يسكب الروم ويخلطه بالبيرة وشربا فى نهم كاس وكاسين وفجأة قام يوسف يدور فى الحجرة ويتكلم

ـ الصعيد ياعزيزى لم يتغير لعلك

تتذكر قصة البوسطجى ليحى حقى هذا الرجل فنان يا رأفت نفس الملل والليل الضائع وصقيع الوحـــدة وليس أمامك سوى الهروب فى الخمر أو النســــاء تنقض عليهم فى لـذة والشرف والعيب كلمات تسمعها هنا مضخمة فاذا اردت ان تعرف معنـــــاها اذهب الى الريف الحزين

فى البداية صـــممت ان انغمس فى القراءة غـــير انى وجدت نفسى منبــوذا وسط الموظفين فهم يجلسون على المقاهى الرئيسية ولا حديث لهم الا العلاوات والدرجات والغـير ورويد ارويدا وجدت نفسى أعيش معهم واتقن أحاديثـــــهم بل اتفوق عليهم الانسان العظيم يا رأفت هو الذى يعرف التوقيت الذى عليه فيه ان يغير طريقته فى السلوك

هل سمعت هذا انت لماذا لاتتـــكلم لماذا تكتفى بالنظر الى انظر اليه آه هذا الخليط من الروم والبيره سريعة المفعول الرأس بدأت تدور والنشوه تستيقظ فى الصدر والاحســـاس بالملل والرتابة يذوب وتتلاشى وكل شىء يبدو منسجما متناسقا جالبـــــا للسرور حتى انت يايوسف يا صديقالماضى والايام البخيلة وقال فى صوت متهدج

ـ انت تتجنى نعم تتجنى الصعيد جزء غالى من بلادنا وبلادنا يوســـف بدأت تتغير وتعود الينا وانت الذى ذهبت اليه مكرها فكان لابد ان تكرهه

أزمة بلادنا هذا لا بد ان تتغير النظرة الى الريف أنا اعلم ان المسألة معقدة وقد يكون السـبب الفراغ والبدائيـــة فهى لاتزال تطبع الحياة فى ريفنا وعقليـــة المديرين التى تعاقب الموظفين بالنقل الى الصعيد ولكنى احـلم بيوم يوم يذهب الموظف الكفء اليه وسوف يأتى هـــذا اليوم

عدنا الى الفلســــفة الم أقل لك انك مازلت تحلم

نعم وماذا هناك أروع من الاحلام كل الاعمال الجميلة بدأت احلاما تسبح فى فى رمادية وبالارادة اصبحت واقع وعندما تفقد البشرية القدرة على الحـــلم سوف تتوقف الحياة

برافوا برافوا برافوا كأس أخـــرى كأس أخرى

أما انا فأحلم احلاما متواضعة شقة نظيفة فى العجوزة ولمـــاذا لاتكون فى الزمالك فريجـــدير تليفون عربة ان اتسلق الدرجات بسرعة صاروخية لكن اللعنة اللعنة على الدرجات



يوسف هل تحب خطيبتك اقصــد مشروع خطوبتك ؟

وانهمرت ضحكات يوسف فى هستريه أحبها ها ها ها احتملها ماذا اجب أنا نعم وانت ما هو الحب ما هى السعادة انت مازلت عند موقف المتسائل جرب مرة الواقع لا تسأل يا عزيزى لا تسأل اسرع فى العمل وسوف تجد الاجابة

ولكن ولكن سؤال هام نعم أنا لاأحبها بل أحب أباها ها ها ها نعم احب أباها اكثر منها

وترنح وهو يسقط فى اعيــاء على الكرسى قائلا

اعطنى كأسا أخرى كأسا أخرى فقد بدت تفهمنى ها ها

غير ان رأفت تعود كيف يقف عنـد النقطة التى عندها ينفلت الوعى علمته السهرات والعربدة والليالى الصاخبة التى القى بنفسه فيها كيف يتحكم فى نفسه حتى فى هذه اللحظات

وبالرغم من احتجاج يوسف وضجيجه رفض أن يشرب ثانية كان يشعر بثقل فى رأسه وكل شيىء يهتز ويشمـــحب أمامه واوشك ان يشـــعر برغبة فى القيىء

هذا الروم الملعون يجثم على الصـدر والتنفس يبدوا متعزرا والصدر يضـيق والاحداث التى عشتها اليوم تمر سريعا فى رمادية حالمة فى ذهنه

وأعلن رغبته فى الخروج

وخلفه وقف يوسف يودعه ورأســه تتدلى فى تعب وذراعيه مفتوحه

ـ لابد أن نتقابل يا رأفت كعادتنـا القديمة ، نعم لا تظن انى تعفنت لاتتسرع فى حكمك على كعادتك دائمـا واندفع

رأفت الى الطريق الضائع فى الليل

واستقبله الهواء البارد الرطب فازداد نشوه واستكانة وتنفس فى عمق وحبك البالطو حوله ووضـــع يديه فى جيبه وسار يهتز قليلا ٠

محطة الجيزة راقدة فى ســكون والعربات مصطفة فى صــمت والانوار موزعة فى اطار غير منتظم والسماء تلثم اسطح العمــارات البعيده على الجانب الآخر وتضحك النجوم البيوت ساكنة مظلمة والقطط تنزوى فى الاركان تمـوء والكلاب فى تجمعات وســط الطريق المترب

والخواطر وتنثال فى سرعة ، يوسـف والايام الماضـية القراءات المهموســة والمناقشات والاحلام حول اكواب الشاى الدافئة والتجارب التى لاتنسى هل ضاع كل شيء ٠٠٠ وتاه فى الليل البهيـــم الى النهار

هل يوسف على حق ام انا الــذى لا يخطىء وما النهاية هل تعجبنى حياتى لماذا لا أحب هل مازلت أسأل كما يقول

ـ العمل والقراءة ومحاولات الكتـابة لا تبشر بالخير والحنين الى حب جديد ونفس الايام تتوالى على ايقاع رتيب المعبد قد فقد الاله والصليب أصـــبح بلا مسيح

وشرد بذهنه بعيدا بعيــدا اين انت يا عصام ما أحن قلبى اليك ولكلمـاتك وما ابعد نظرك ورايك الذى اعلنتـه فى يوسف ونحن معا فى بوفيه الكلية

ياجماعة يوسف لن ينضج بعد ولن اعطيه ثقتى الا بشروط دقيقة وصــاح كأنه يستنجد من مجهول ٠

ـ المنيره من فضلك

تأليف : وليم سارويان

ترجمة : حمدى الكنيسى

كنا نطل عليهم من نافذة الدور الثانى ــ حيث عيادة الدكتور دورجس ــ طبيب الأسنان .. ولم يكن من اليسير، معرفة ما يفعلونه ، حتى أخذ أصغرهم ــ الذى لم يكن سوى قزم ممتلىء ــ أخذ يقذف بجسده فى الهواء ، ويأتى بحركات بهلوانية ، فى الجانب الأيمن من الشارع .

وقالت « ايمى » : انظر يا مستر دورجس ؟

فأجاب الطبيب : ماذا يحدث ؟ .. قال ذلك ، ثم استدار بوجهه نحو « ايمى » ، فأغلق أخوها ــ هارى ــ فمه ، ثم صوب نحوها نظرة نابضة بالاحتقار ــ وقال :

الا يمكن أن تبتعدى عن النافذة بينما أنا معرض للموت ؟! كيف يمكن للدكتور أن يركز انتباهه فى عمل « داخل فمى » وأنت تنادينه كى يقف أمام النافذة ؟ .. ثم ماذا يجرى عندك بالله عليك ؟ !!

أجابت « ايمى » . انهم يقذفون بالرجل الصغير فى الهواء ؟

فرد عليها : قد تكون مشاجرة عائلية ، أو شيئا من هذا القبيل !! .. أنا لا أجد أى معنى لأن تحشرى أنفك فى شئون الناس » ..

ولكن « ايمى » قالت : « انها ليست مشاجرة .. فهم لا يضربونه ، أو يؤذونه .. بل ، يبدو أنه يحب ذلك .. فهو يهبط الى الأرض على قدميه كالقط .. ثم يقفز كلما لامس الأرض !! » .

.. ولم اك أعرف ــ أنا شخصيا ــ كيف أفسر ما أرى.. فلم اشهد أبدا أحدا فى مثل حيوية هؤلاء الثلاثة .. بل انهم يقومون بأعمال تفوق خيال البشر .. وكانت وجوههم سوداء .. وفى عيونهم شىء يسترعى نظرك حتى لو كنت تقف فى الدور الثانى ! .. بالاضافة الى أذرع قوية ، وأجساد رشيقة .. أقبل الدكتور نحو النافذة ، فى نفس الوقت الذى كان فيه الرجلان الآخران ــ الكبيران نسبيا ــ يمسكان بثالثهما ، ويطوحان به فى الهواء فى شقلبات مثيرة ، وكان



ينزل الى الأرض مكورا نفسه .. وبمجرد أن يلمسها بقدمه، يثب الى أعلى .. واسفل ، ثم يقفز عاليا فى الهواء وقد بدا عليه المرح .. والسعادة .. وبينما كان يفعل ذلك ، كان الرجلان الآخران يعملان دائرة حوله ، .. وفى هذه الأثناء كان الناس يتوافدون عليهم .. عبر الشارع ، ووقف الطبيب خلفى أنا وايمى ، قائلا : حسنا ماذا تعرفان عن ذلك ؟

.. وقبل أن يجيبه أحدنا ، صرخ « هارى » قائلا : « ماذا جرى يا دكتور ؟ هل ستنزع لى ضرسى أم ستقضى اليوم واقفا بجوار النافذة ؟! » .

فنادته « ايمى » : « تعال لتتفرج معنا يا هارى .. ان الناس يأتون من كل صوب .. » .

.. ونهض « هـــارى » من كرسى « العمليات » متجها نحو النافذة ، وفى تلك اللحظة كان الرجال الثلاثة يرقصون فى صف واحد ، ويتقافزون ، ثم توقفوا فجأة ، وبدأوا يحركون شفاههم ، .. وهنا تقدم الطبيب ، ودفعنا من طريقه ليفتح النافذة تماما ، وهو يقول :

يا الهى .. انهم يغنـــون !! .. هكذا .. فى شارع القطن ، وعبر شارع بيت القضاء ؟ ان مدينة « ريدلى » لم تشهد مثل ذلك من قبل !! ..

.. كانوا يغنون فعلا بأصوات عالية، ولم يكن لدى أحد ، أدنى فكرة عن اللغة التى يغنون بها !! وان كان قد بدا ان الأغنية مرحة وساخرة .. وحزينة .. فى الوقت نفسه ..

وقال « هارى » : حسنا .. ماذا تعرفون عنهم ؟ .. ومن هم هـــؤلاء الناس ؟

فقال الطبيب : ان كنت تسألنى .. فاننى قد قضيت هنا احـدى عشرة سنة ــ وهذه هى السنة الثانية عشرة لى هنا ، ولم تر عينى مثل هذا الشىء من قبــل !! .. استمع .. استمع اليهم !

وكان البهلوانات قد جمعوا حولهم أكثر من عشرين شخصا . وكنت أنا أعرف بعضهم ، خاصة « چيم هوكى » الذى كان صديقى الى أن تشاجرنا ذات مرة ، وكان يقف داخل الحلقة الملتفة حولهم ، وعيناه تحدقان فيهم ، وكان يبدو عليه الفزع ، ومثله كان الواقفون جميعهم ، ونحن أنفسنا كنا خائفين ، ولم أكن أعرف سر هذا الخوف ، ما لم يكن مصدره هؤلاء الرجال الذين أتوا لمدينة صغيرة مثل « ريدلى » من مكان قصى غريب ، أتوا ، وأخذوا يتشقلبون ويتقافزون ثم يغنون بلغة لم نفهمها !!. نعم اذا لم يكن خوفنا من هؤلاء .. فأنا لا أعرف سببا آخر سببا غير قفزاتهم فى الشارع الهادىء ، وغنائهم فى هذا الصباح .. !!

وقالت « ايمى » : اريــد ان انزل للشارع .

فرد هارى : لا .. لن تتركى هـذا المكان .

قالت : اننى أريد أن أراهم .

فقال : « ستبقين هنا .. أنا لا أريد أن أشغل نفسى بك وأنا لا أعرف من هم هؤلاء المخبولون ؟ » ... وتدخـل الطبيب قائلا : « حسنا .. ماذا تعرف عنهم ؟ .. اسمع يا هارى ؟ هل تفهم شيئا من غنائهم ؟ ولكن ايمى قاطعته قائلة : « ارجـوك يا هارى .. دعنى أنزل .. أرجوك .. » .

وامسكها ــ هــارى الذى كان فى الرابعة عشرة من عمره ــ أمسك أخته من ذراعها ثم هزها قائلا : انك محظوظة لوجودك هنا فى عيادة الدكتور ، فانت تمتعين نفسك بالنظر اليهم من اعلى وانت فى أمان من أى شىء ، فليس هذا وقت الجرى فى الشارع ، كما أننا لاندرى أى نوع من النــــاس هم » .... بدأت شفتا « ايمى » ترتجفان ، ثم احست بالخجل لذلك ، فابتعدت عن الشباك ، واخذت تبكى فى صوت مكتوم . وهنا صاح « هــارى » : « فلتذهبى الى أى مكان .. بحق السماء ماذا تريدين .. قولى لى ؟ »

ــ « انا لا اريد أى شىء .. لا أريد أى شىء » ! !

ــ « اذن كفى عن البكاء ، وتعالى الى النافذة لتتفرجى معنا ، فالنظر من هنا أحسن بكثير على أى حال !

قالت « ايمى » : « لا لن أحضر .. أنت دائما لا تريدنى أن أفعل أى شىء .. أى شىء .. أبدا .. »

وعادت تبكى بمــرارة وقـد تغضن وجهها ، .. بينما كان البهلوانات يلقون بأغنيتهم الثانية التى كانت أكثر حركة وحيوية .. وحزنا من الأغنية الأولى .. واحسست أنا بالرغبة فى النزول الى الشارع لأراهم عن اقرب ، رغم احساسى بنوع من الخوف مما يجرى . وكانت « ايمى » تقف بعيدا عنا ، وتبكى فى تأثر شـــديد ، والبهلوانات يغنون ، ويغنون ، وهنا لم أستطع مقــاومة البكاء .. فانطلقت ابكى دون أن أعرف ماذا يجعلنى أفعل ذلك ، ولكننى هكذا أحسست بأننى يجــب ان ابكى ، .. وتحركت نحــــو الجانب الآخر من العيادة ..

وقال (هارى) : « والآن .. لمــاذا تبكى أنت أيضا ؟ طبعا تريد أن تنزل للشارع .. ولكن ذلك لا يمكن .. لقد اتيت هنا لكى ينزع لى الدكتور ضرسى الفاسد . ولم نأت للنزهة ؟! » .

وفى تلك اللحظة قال الدكتور : هل تعرفون شيئا عنهم ؟! .. ولم يرد عليه أحد ، (.. وكان الرجل جامد الملامح ، له شفتان جافتان دائما .. لا يبدو عليه اية نضارة أو حيــوية ، وقد كان فى الخامسة والأربعين تقريبـــا ، فارع الطول مع تقوس فى كتفيه كما أن انفاسه كانت ســـاخنة باستمرار اذ لم يكن يتوقف عن التدخين ، فكان يشــعل السيجارة من الأخرى ، ولا يبعـدها اطلاقا عن فمه ، خاصة أثناء قيامه بأى عملية فى فــم أى « زبون » ، أما عن عمله فلم يكن وقته كله مشغولا ، بل كان



يقضي معظمه جالسا على الكرسى بجانب النافذة يتطلع الى السماء ، بينما يتصاعد دخان سيجارته من فمه وأنفه ..) .

.. وقال مرة اخرى : « انني لم ار فى حياتى شيئا مثل هذا ؟ .. استمع اليهم .. حاول أن تستمتع ؟ » .. فرد هارى قائلا « كيف أسمعهم وهؤلاء الأطفال يبكون ؟ » .

وصاحت « ايمى » « أنا لست طفلة ــ الطفل أنت .. انك تخشى أن تنزل لتراهم عن قرب !! » .

فقال : أنا جئت هنا لأخلع ضرسى ؟

قالت : أنت خائف .. أنت تعرف انك ستفزع لو نظروا اليك .. أو فعلوا أمامك أى شىء !

قال : أنا لا أخاف شيئا ، ولكن ليس لدينا الوقت الكافى لكى ننزل .. اليس كذلك يا دكتور ؟

ورد الطبيب : « بالنسبة لى .. ليس مما يليق بسمعتى النزول .. وطبعا يجب ان أحافظ عليها .. » .

(.. لقد كان الدكتور خائفا هوالآخر .. ولكن .. أيخاف رجل كبير مثله ؟ يخاف من ثلاثة رجال سمر ، صفار الأجساد ؟ .. انهم لا يشبهون بقية الناس .. لأنهم بهلوانات وراقصون ، ولأنهم لم يخشوا أن يغنوا فى الشارع !!)

وقال هارى : هل فهمت الآن ؟ .. (وكنت أنا قد توقفت عن البكاء ، لأننى شغلت بملاحظة الفزع المرتسم على «هارى» والدكتور . لقد كانوا مرتاعين تماما !! لماذا ذلك؟ هذا ما كان يدهشنى! لقد كنت أنا شخصيا خائفا ، وكذلك ايمى ، ولكن خوفنا لم يصل الى هذا الحد !!) والواقع أن الدكتور كان أكثرنا خوفا ورعبا ، وظهر ذلك جليا فى قوله: « اننى أعتقد أن هناك قانونا للمدينة يحرم مثل هذه الأشياء ؟!

وقال « هارى » : « هل تظن ذلك ؟ ايمكنك أن تذهب الى شارع رئيسى فى مدينة ما ، ثم تقوم بحركات اكروباتية ، وتسبب زحاما كهذا ؟ » .. قال ذلك ، واستدار نحو « ايمى » مناديا .

« تعالى يا ايمى .. تعالى انظرى فقد بدأوا حركاتهم من جديد ! » .

قالت : لن أنظر الى شيء .. أى شيء .

قال : أنت حرة .. تعال أنت يا « چو » .

قلت : كلا !! (ولا أدرى اى سر فى الدنيا جعلنى أعاند هكذا واقول : كلا » ولكننىهكذا وجدتنىأقولها !!) .. واستدار هارى الى الدكتور قائلا :

« ما رأيك يا دكتور ؟ .. هيا نعود الآن الى « ضرسى » لننتهى منه .. » .

لكنه أجابه : « ليس الآن يا هارى.. ان من واجبى أن أكون شاهدا على ما يدور الآن ، فأنا متأكد أن ثمة تشريعا مدنيا يمنع ذلك .. ولابد انه يوجد فى اى كتاب .. » .

وردت ايمى : ليس هناك شيء كهذا الذى تقوله !!

فقال الدكتور : « حسنا .. لكنه لم يحدث شيء مثل هذا من قبل .. ولابد من سبب وراء ذلك !! »

.. وكان هارى قد بدأ يفقد أعصابه، فقال موجهاكلامه للطبيب « ارجوك تقوم لتنزع ضرسى » لكنه رد عليه : سأفعل ذلك فى الوقت المناسب . أما الآن فأنا أستعد لكى أكتب تقريرا عما يحدث بعدما ينتهى كل شيء .. ولكن.. بماذا تفسر هذا ؟ انهم يمرون الآن على الناس ويمدون أمامهم قبعاتهم ؟ — وهنا أسرعت « ايمى » نحو النافذة كى تراهم وكذلك فعلت أنا ، وكان الرجلان الكبيران يقفان منتبهين ، بينما أخذ ثالثهما — القزم — يدور داخل الحلقة، وهو يمد قبعته للناس ، وكان يفعل ذلك بطريقة تجعلك تفهم انه يسألهم أن يعطوك أى شيء .. كان يتيح لهم الفرصة لاعطاء ما يجودون به .. لو رغبوا فى ذلك .. وكان يدور داخل الحلقة بسرعة دون أن يضع أى واحد من الواقفين اى شيء فى القبعة ، لم يفعل ذلك شخص واحد !! .. وكان جميعهم يستديرون حينما يقترب منهم متظاهرين بأنهم ينظرون عبر الشارع الى شيء بعيد .. وأحيانا كانوا يتحركون الى الخلف .. وفى تلك اللحظة ، وبينما كان الرجل يدور عليهم بسرعة وقبعته ممدودة أمامه ، أسرعت « ايمى » بفتح الباب ، ثم اندفعت خارج العيادة قبلما يمسكها « هارى » الذى أخذ يصيح : « ارجعى فورا يا « ايمى سيلبى » ؟ » . ولكنها كانت تجرى نحو الواقفين .. ، وكان منظرها يسر العين فشعرها الذهبى الناعم كان يتحرك معها بطريقة جميلة ، ورأيناها تندفع الى وسط الحلقة ، فى نفس اللحظة التىكان الرجل يدور فيها بقبعته ، ولمحناها وهىتسقط ما معها من نقود داخل القبعة ، ونظر الجميع فى دهشة وذهول ، وتراجع الرجل عدة خطوات الى الخلف ، ثم انحنى لها ، وأخذ يتشقلب الى الوراء ثلاث مرات ، ولم يكن قد قام بهذه الحركات من قبل ، وعاد فانحنى « لايمى » من جديد ، فاستدارت ، وانطلقت تجرى عبر الشارع نحو متنزه بيت القضاء ، وبدون أى كلمة ، تحرك البهلوانات من داخل الحلقة ومضوا بعيدا ، بينما وقف الناس جماعات يتحدثون عنهم ..

وقال الطبيب من جديد : « ما رأيك يا هارى فيما حدث ؟ اننى اعتقد أن هناك قانونا ما ضد ذلك .. ولكن رئيس المدينة لم يفعل شيئا .. وها هم أولاء قد اختفوا عن الأنظار !! » .

.. (وتفرق الناس وما زال البعض يتحدثون عما رأوا منذ لحظات ..) .. وقال « هارى » : انتظر حتى تعود « ايمى » الى المنزل . انها ستأخذ بدلا من نقودها . انها الوحيدة التى أعطتهم !!

— قال الطبيب : « .. ولم يكن هذا من واجبها ، فليس مثل هذا العمل فى الشوارع الذى نشجعه ؟ » .. واستمر الاثنان واقفين أمام النافذة لمدة دقيقة، أو دقيقتين ، ينظران الى الناس ، حتى استدار هارى قائلا : ماذا عن « الضرس الفاسد » يا دكتور ؟

قال : سأخلعه لك فى ثوان معدودات ، وتوجها نحو الكرسى الخاص بذلك .

(وجلست أنا عند النافذة حتى تم خلع الضرس) .

وحينما كان « هارى » قد استعد للعودة للمنزل . قال لى :

« حسنا يا « جو » .. **هيا بنا** الآن .. لابد أن ايمى ستأخذ بدل نقودها حينما تعود » .. ولكننا حينما وصلنا ، لم تكن ايمى هناك . فأخبر هارى « مدام سيلبى » بكل شىء ، وقال « لابد انها تخشى العودة للمنزل » — ولم تعد ايمى حتى كاد الليل يسدل أستاره ، وقد عرفت فيما بعد انها كانت تبكى ، وربما ظلت تسير طوال اليوم ، — وكان هارى ينتظرها فى حجرة الجلوس ، ليجعل مدام سيلبى تعاقبها ، وحينما رأته ايمى ، أحست بالخجل من الطريقة التى ظهر عليه بها الخوف ، وكذلك أخجلها أن أحدا لم يدفع لهم شيئا ما .

وقالت : « اننى لا يهمنى شىء .. لقد أعطيتهم كل ما أحمل ، ولو كان معى المزيد لأعطيته لهم أيضا » ..

قال هارى : انك ستنالين حقك !

وهنا أقبلت مدام « سيلبى » من المطبخ ، ووقفت برهة موجهة نظرها نحو « ايمى » التى كان يبدو عليها التعب .. والجوع .. والغضب .. وكذلك الفخر والاعتزاز ..

.. وفجأة .. ابتسمت « مدام سيلبى » ، ومدت ذراعيها الى « ايمى » التى اندفعت اليهما ، وأخذت أمها تضحك بينما أجهشت هى بالبكاء . ونهض هارى مغادرا المكان ، بينما قالت مدام « سيلبى » : « اننى سعيدة بما فعلت يا ايمى ، ولو كنت مكانك لفعلت مثلك تماما ، فلتحدثينى عنهم يا ايمى » .. ولكنها — ايمى — كانت من السعادة بحيث لم تستطع أن تفعل شيئا سوى البكاء ! فجلجلت ضحكة عالية دافئة من أمها جعلتنى أحس بالراحة — أنا ابن أخيها — .. نعم .. كانت ضحكات مدام « سيلبى » ودموع « ايمى » السعيدة ، تجعلنى أحس بالمتعة والراحة ..

فوكنر

ومسيرة الحرية

بحث : زكى عبد الله

الأحـداث الدامية التى تقع فى الولايات الجنوبيـة بأمريكا تحتل العناوين الأولى فى صِحف العالم ... وهى الشغل الشاغل لكثير من المهتمين بقضايا التفرقة العنصرية والمؤمنين بحرية الانسان وكرامته ... وقد أصبحت هذه الأحداث الطبق اليومى . المفضل لكبار المعلقين السياسيين ... كما انها تثير أسئلة تحير أذهان الكثيرين ...

فى الأسابيع الماضـيـة أذاعت الصحف نبأ القبض على زعيم الزنوج الثائر **مارتن لوثر كنج** فى ولاية الاباما على رأس مظاهرة كبيرة من الزنوج المطالبين بتطبيق قانون الحقوق المدنية فى الولاية ... ومن السجن بعث كنج برسالة نشرتها معظم الصحف التى تتعاطف مع قضايا الزنوج قال كنج فى الرسالة : **يا للعجب ... لقد وجـدت فى السجن زنوجا أكثر من أولـئـك الذين يعيشون خارجـه ...** واهتز الجنوب مرة ثانية وخرجت المظاهرات ... واستمرت الاعتقالات ... وأفرج عن كنج ليعتقل مرة ثانية ... واليـوم مرة ثانية يسـير كنج على رأس مسيرة الحـرية من مدينة سيلما ، الى مدينة مونتجمرى عاصمة الولاية ... المظـاهرة تضم أنصار الحقوق المدنية ... المنادين باعطاء الزنوج حق التصويت ... أو بالأحرى السماح لهم بمزاولة هذا الحق ..

ومرة ثانية تعلقت الأسئلة فى أذهان النـــاس كدخان تخلف عن معركة ... **هل البيض هناك متوحشون ينسفون الكنائس ويحرقون المنازل ويقلبون عربات السكك الحديدية ؟ .**

لماذا يرفضون الاعتراف بآدميـــــة مواطنيهم الزنوج الذين بذلوا عرقهم ودماءهم لرى أراضى « البيض » ؟ . هل هو تعنت أحمق غشيم ، أم هو تصرف ترسمه سياســة يمليها موقف فكرى محـــــدد ؟ .

هل هى محاولات متشنجة لتاخير أجل محتوم ؟ . هل هو رقص الدجاجة المزبوحة ، أم هناك جرح عميق لم يندمل ولن يندمل الا بعد أجيال ؟ .

... ثم ماذا عن الأساطير التى تروى عن الجنوب ... هل صحيح أن الفقر هناك ينشر جناحه كالظلام فى الليل ؟ وان الجنس يسيطر على تصرفات كل الناس ؟ .

ما مغزى كل ما يحدث ؟ .

رجل وجسد عرف الاجابة على كل هـــذه الأسئلة ... ذلكم هو القصصاص العالم المشهور **وليام فولكنر** ... فقد ولد هناك فى ولاية المسيسبى ... وكتب حوالى تسع عشرة رواية طويلة وثمانين قصة قصيرة كلها تقريبا عن الجنوب ... وقد استطاع أن يقدم لنا فى هذه الروايات الطويلة والقصص القصيرة رؤى فنيـــة جديدة وثرية فى نفس الوقت ... وقد كتب فولكنر ذات مرة يقول « **عن طريق هذه الرؤى تستطيع أن تكون جنوبيا ... وهى رؤى ينبغى ان يعرفها أبناء الشمال ... وربما احتاج الجنوب الى تذكيره بها .** »

ورؤى فولكنر ليست تسجيلية تهتم بالتفاصيل الصغيرة والمعالم الدقيقة ، بل هى رؤى شمولية للتاريخ ... لكنها لا تنسى خفقات القلوب ... انهـــا تبدأ بالأرض فى بدائيتها الأصيلة المتوحشة ثم تطويعها على أيدى النازحين الاول وعبيدهم الذين جلبوهم مع معاول الهدم ... وهو يرى ان اللعنة حلت بأرض الجنوب وشعبه لأن البيض هناك زرعوا العبودية مع كل حبة بذروها .. ولأن عرق الزنوج روى الكراهية بجانب أعواد القمح ... ومنــــذ بدأ فولكنر يكتب أحس الرجل الابيض فى الجنوب بعقدة ذنب ثقيلة غامضة .. عقدة قريبة منه يحسها ولكنه لا يستطيع الفكاك منها ... وكأنما رضعها مع لبن امه ...

ولقد كان استعباد الرجل الأبيض للزنجى سببا فى الحرب الاهلية التى جلبت الدمار والخراب لامريكا فى ذلك الوقت ... واذا كان لهذه الحرب من حسنة تذكر فهى أنها عملت على توحيد الجنوبيين وان كانت قد تسببت فى انتشــــار البطالة والفقر بدرجة رهيبة ... وقد باءت كل محاولات الاصلاح بالفشل ... لان الاصـــلاح ارتبط فى أذهان الجنوبيين البيض بالتغيير الشامل فى أوضاع الزنوج وعلاقاتهم بالبيض ومن ثم تأخر أى أمل فى الاصـــلاح قرنا كاملا أو يزيد ... ويعتقد فولكنر أن قيام الجنوبيين البيض بهذه الاصلاحات كفيل بأن يخلصهم من عقدة الذنب التى تعلق بهم .

ولقد نزع الرجل الأبيض فى المـــاضى الى العنف لان البيض كانوا قلة فى بحر من الزنوج .... وقد تميزوا بالعناد الشديد وصلابة الرأى والصلف ... كى يقنعوا أنفسهم بأنهم يتفوقون على الزنوج وكى يسدوا من ناحية أخرى أية ثغرة فى أى حلقة من حلقات هذا الفهم قد تؤدى الى انهيار كامل لهذا البناء الاجتماعى القائم على الكراهية والحقد من ناحية الزنوج والخوف والعنف من ناحية البيض .

تتناول قصص « فولكنر » بعمق وفهم اللحظة التى يبدأ فيها الطفل الأبيض يكره زميله الصبى الزنجى ... وفولكنر يعتقـــد أن الجنوبيين البيض يعانون مرض العيش فى الماضى ... وهو يذكرنا مرارا بخوف البيض من اختلاط الدم ... ويتعمق مغزاها الهستيرى فى أذهان الجنوبيين ... ويفك طلاسم أسطورة الجنس ... ويوضح معنى الكثير من أحداث الشغب والعنف التى تجرى دون أن تجد من يقدر على تحليلها ..

وقد عرف فولـكنر ثمن الســلام فى بلده وصعوبة دفع ذوى النوايا الطيبة للعمل وضرورة ذلك فى نفس الوقت ... فالسلام فى ولايات الجنوب لابد أن يكون رد فعل للسلام فى داخل كل نفس ... وهو أمر صعب ولمنــــه مرتفع .. ولكن فولـكنر يؤمن بالمستقبل ولكنه وهو يتلمس ملامح هـــذا المستقبل فى بلاده لا يتصرف كعـــالم اجتماعى فيتقدم بكتاب أزرق وبرنامج اصلاح .. وانما لصفته قصاصا « **لقلب الانســـان فى صراعه مع نفسه** » .. كما وصف نفســه عندما تسلم جائزة نوبل ... وتتضح أماله فى النسيج النفسى لشخصياته وفى القيم الاخلاقيـــة التى يرمى الى أن يخرج بهـــا القارىء ... ويبدو انه كان يتمنى أن يخرج الناس من قصصه باحترام جديد للأرض والانسان ... كان يتمنى أن يفرغ الجنوبى الأبيض من قراءة قصصه وهو قادر دون ما اكراه على الاعتراف بانسانية الزنجى ... وهو يضع ثقته المطلقـــة فى الجيل الجديد ويرى أنهم سيكونون أقدر على خلق سلام داخل أنفسهم .

ضرب فولكنر على هـــذا الوتر ولمدة ربع قرن من الزمان فى جميع قصصه .. منذ كان الناس لا يهتمون كثيرا بما يجرى من عنف واضــطهاد عنصرى بصفة دائمة فى الجنوب ... بحجة أن هـــذه مشاكل محليـــة لا تهم أحـدا قدر أصحابها المحليين . بل ان فولكنر نفسه كان يعتبر كاتبا محليا

حتى سنة ١٩٤٥ أى قبل حصوله على جائزة نوبل بخمس سنوات وحتى ذلك الوقت لم يكن فولكنر قد وجد الناشر الذى يغامر بطبع كتبه بل ان كثيرين من الجنوبيين البيض كانوا يعتبرون قصصه صعبة وقوطية ومليئة بالرعب والخوف ومحملة بعقدة ذنب يدعون أنهم لا يحسون بها .. ولكن فولكنر يعتبر الآن الكاتب الوحيد ليس بين القصاصين فحسب بل وبين رجال التاريخ والاجتماع والفنون الاخرى ... سواء كانوا من الشمال أو الجنوب ... الذى استطاع ان يقدم فهما عميقا متعاطفا مع قضية الجنوب وأزمته ..

ولقد صنع فولكنر لنفسه عالما خاصا به ... واختار مقاطعة تجرى فيها أحداث قصصه وأسماها « يوكنا باتوفا » ـ وهو الاسم الهندى الأصلى للنهر الذى يشق مدينة اكسفورد فى مقاطعة المسيسبى حيث عاش فولكنر طوال حياته ـ وحدد فولكنر مكانها فكتب يقول « انها تقع فى أعماق الوادى الاخضر المزين بنتف القطن والمحاصر بتلال مدببة ... على بعد ثمانين ميلا من ممفيس » ثم قسم المقاطعة الى مدن أهمها مدينة جيفرسون التى تبلغ مساحتها ٢٤٠٠ ميل مربع .. ويسكنها حوالى ١٥٦١١ مواطن منهم ٦٢٩٨ رجل و ٩٣١٣ زنجى ... الى هذا المدى وصل فولكنر فى تحديد ملامح عالمه ... بل انه رسم له خريطة كما تصور موقعه وعلقها خلف مكتبه .

وقد أدار فولكنر أحداث خمس عشرة رواية من رواياته التسع عشرة فى مقاطعة « يوكنا باتوفا » وقد كان فولكنر يعيش باحاسيسه وخياله وعقله فى هذه المقاطعة التى رسمها فى خياله ... وذات ليلة ... وأثناء عشاء مخمور سأل فولكنر ناشر رواياته أرسكين الذى كان فى الحفل : هل سمعت بما حدث لسارتى سنوبس ؟ ولما هز الأخير رأسه بالنفى ... أخذ فولكنر يسرد عليه أخبارا وأحداثا لم تنشر ... كما لو كان أرسكين من أهل المقاطعة وغاب عنها فترة ... وذات مرة قال فولكنر لأحد أصدقائه : ان محامى مقاطعة « يوكنا باتوفا » المدعو « جافين ستفنسن » كان رجلا طيبا غير أنه لم ينجح فى تحقيق ... وأضاف فولكنر .. الا أنى أعتقد أن ابن أخيه الصبى « تشيك ماليسون » ـ بطل قصة الملوث بالتراب ـ سوف يكون أحسن حظا من عمه ... وأعتقد أنه سوف ينجح كانسان .. والحقيقة أن الواقع والخيال كثيرا ما اختلطا فى ذهن فولكنر من شدة معايشته لشخوص رواياته فى عالمه الخيالى الذى خلقه لهم وسواه مكتملا ...

●● المرآة السحرية

والواقع أن فولكنر أخذ مادته من حياته التى عاشها .. فمدينة أكسفورد فى مقاطعة المسيسبى كانت مادته الخام التى صنع منها مدينة جيفرسون فى مقاطعة « يوكنا باتوفا » ... كما أن المحيطين بفولكنر يقولون ان معظم شخصياته هم فى الحقيقة أفراد أسرته ومعارفه وأجداده وأحفاده مرسومون بعناية فائقة .

... فقد كان جد فولكنر مثلا وليم ثيوبرت فولكنر ضابطا كونفيدراليا وقائدا ثائرا لجماعة من الفرسان . ثم اتجه بعد ذلك الى العمل فى بناء السكك الحديدية وعمل بالسياسة وقتل رجلين فى مبارزة ... ثم قتل أخيرا بيد أحد شركائه القدامى ... لقد كان هذا الجد هو المادة الخام التى صنع منها فولكنر شخصية « جون سارتوريس » فى قصة « سارتوريس » ... وقد تتبع الكاتب تاريخ أسرته وفقدانها لثروتها ومكانتها الاجتماعية لاربعة أجيال ذهبت فى احدى عشرة رواية .. أما زملاء فولكنر ورفاقه فيمكن تتبعهم وقراءة قصة حياة كل منهم .. فانت تجدهم متناثرين أو متجمعين فى مختلف قصصه .

ومقاطعة « يوكنا باتوفا » أبعد من ان تكون تجربة أفلاطونية أو حقل تجارب لنظريات أخلاقية أو علمية ... ولكنها مرآة سحرية يستطيع المرء من خلالها أن يرى الجنوب كله ... ما خفى منه فى تلافيف نفوس الناس وما ظهر منه فى علاقاتهم الخارجية ... وأهمية فولكنر فى انه يعتبر أول من ارخ لضمير الرجل الابيض فى الجنوب الامريكى .. وانه القى اضواء باهرة على عقل الرجل الابيض ووعيه ..

الظل الأسود

هناك فكرة سائدة بين الأمريكيين تقول ان كاتبا من الجنوب لا يستطيع أن يعبر عن الجنوب ... الا أن فولكنر كان استثناء لهذه القاعـدة ... وخروجا عليها ... فرغم أن فولكنر ارتبط عاطفيا بالتقاليد السائدة بين البيض فى الجنوب ... فقـد كان جـده يمتلك العبيد والمزارع الضخمة وكذلك كان أبوه وأخوه « جون » ... الا أن فولكنر سيطر عليـه احساس قوى بأن هـذه الأرض مصابة بلعنـة ... وهـذه اللعنة تطارد البيض لأنهم اغتصبوها من أصحابها الحقيقيين الهنود الحمر ورووها بعرق الزنوج ودمهم ...

وقد عبر عن هذه اللعنة فى قصة « الضوء فى أغسطس » ... اذ تعود البطلة المعذبة « جوانا بيرون » بذاكرتها الى الوراء ... الى يوم أخذها أبوها الى مقابر الأسرة وقال لها : هنا يرقد جدك وأخوك مقتولين ... لم يقتلهم أحد ... ولكن اللعنـة حلت بهم ... اللعنة التى سلطها الله على الجنس كله قبل أن يفكر فيها جدك أو أخوك أو أنا أو أنت ... اننا قوم مكتوب عليهم اللعنة ... تذكرى دائما أن هذا مصيرى ومصير أمك ومصيرك أنت أيضا رغم أنك ما زلت طفلة ... أنها اللعنة التى تلحق بكل طفل ولد أو سوف يولد ... لا مهرب لا مهرب .

وتعود جوانا تقول « لقـد رأيت الزنوج وعرفتهم منذ بدأت أرى وأعى وأتذكر ... كنت أنظر اليهم كما أنظر الى المطر أو الأثاث أو الطعـام أو النوم ... كنت أراهم كاحدى الظواهر الطبيعية فى حياتنا .. ولكنى لم أستطع أن أحس بهم كآدميين .. بل أشياء ... ظل اسود يتابعنى ... يتابعنا نحن البيض ... وكل النـاس الآخرين ... وأخذت أفكر فى الأطفال الذين يأتون دائما أبدا الى العالم لون بشرتهم أبيض ... ويرتبط بهم ظل أسود حتى قبل أن يبدأوا فى التنفس » .

لقد تتبع فولكنر هذه اللعنة فى معظم قصصه ... ونرى بذور هذه اللعنة مجسمه بطريقة حية ومثيرة فى قصـة « أنزل يا موسى » اذ أن الطفل الصـغير ذا الاعوام السبعة « روث أدموند » ... يصطحب طفلا زنجيـا يدعى هنرى .. وهو ابن فلاح زنجى ... يعيش الطفـلان معا معظم ساعات طفولتهما المبكرة ... يلعبـان معا ويذهبان للصيد ويتناولان طعامهما على مائدة واحدة ... وينامان معا فى نفس الفراش « ثم نزلت اللعنة ذات يوم ... لعنة الأباء المتكبرين ... تلك الكبرياء التى لا تقوم على أى قيم بل على صـدفة جغرافيـة لا تنبع من الشجاعة أو الشرف ... ولكن من الاثم والعار » فجأة يهب ادموند من نومه ويأمر هنرى بأن يترك الفراش فورا وأن ينـام على الأرض . ... هـذا الانكار المفاجىء لمبدأ المساواة التى عاشها الطفلان فى وئام ... يهدم السلام الهادىء فى نفس الطفل ... فيصاب أدموند بهياج شـديد وتتجمد أطرافه من الخوف الشديد ويحس بحزن عميق لا يدرك سببه وخزى يحس به ولكنه لا يستطيع أن يعترف به حتى لنفسه » .

أما قصة « ابسالوم ابسالوم » فهى تعكس تاريخ الاضطرابات فى المسيسبى وهو تاريخ العنصرية الجامدة ... والقصة تسقط الاطار الرومانتيكى الذى يحيط به رجال السينما حياة الجنوب وتتعقب بصمات العنصرية والوحشـية وكبرياء أصحاب المزارع البيض وصلفهم ... منهم يأمرون الزنجيات بالركوع أمامهم حتى فى مخادعهم ... وكأنهم يدعون عرباتهم أو جيادهم بالاقتراب من الباب كى يركبوا .. وقد تعقدت مشكلة الجنس فى الجنوب بعد أن خرج جيل من أبناء السفاح .. الذين يحملون ملامح آبائهم بطريقة لا يخطئها البصر ويحملون فى نفس الوقت لون الأمهـات ... ووقع الكثيرون فريسة الاحساس بأبنائهم وعدم قدرتهم على منحهم أسماءهم أو الاعتراف ببنوتهم .

وبلغة صعبة ... وجمل قصيرة حادة تذكرنا بلغة « جوناثان سونيت » ... التى تنقل القارىء بسرعة .. من احساس الى آخر .. ومن مكان الى آخر .. يجعل فولكنر القارىء يلهث خلفه وهو يتابع « توماس ستبن » فى قصـة « ابسالوم ابسالوم » ... فقد جاء توماس الى المسيسبى بعربة مملوءة بالعبيد سنة ١٨٣٢ . مصمما على تحويل غابة عذراء مساحتها مائة ميل مربع الى مزرعة ضخمة .. وتوماس رجل قوى المراس حـديدى الارادة .. الا أن كلماته ترتفع الى مستوى الشعر فى رقتها .. وهو أقرب ما يكون الى البطـل المأسـاوى بالمعنى الأغريقى الـكلاسيكى .. من أى بطل آخر فى الأدب الأمريكى .

وينجح « توماس » فى البداية ... الا أن الدمار سريعا ما يطارد أسرته ، اذ يأتى ابنه الأكبر الى بيت الأسرة بصديق يدعى « شارل بون » وتقع ابنة « توماس » الكبرى « جودث » فى حب شارل .. وتعاشره معاشرة الأزواج .. ثم يتضح ويا للهول أن شـــارل هـــذا ابن « توماس ستبن » من زوجته الأولى .. التى طلقها ورفض الاعتراف ببنوة ابنها عندما عرف أنها ليست نقية الدم ... وان دماء زنجية تجرى فى عروقها . ثم تنشب الحرب الأهلية ويذهب الرجال الى المعركة ... ولكن عندما يعود المقاتلون المنهكون **... يقتل « هنرى » أخاه « شارل » .. وهنا لابد أن يثور سؤال ... لماذا قتل هنرى أخاه ؟ هل خوفا من أن تقع « جـــودث » فى خطـــأ زواج المحـــارم ؟ أم خوفا من اختلاط الأجناس ؟ ...** وفولكنر لا يجيب على هذا السؤال مباشرة بل يتركه معلقا ولكنه يوحى اليك بأن هنرى ما فعل ذلك خوفا من زواج المحارم ؟ فشارل قد اتصل « بجودث » وقد كان ما كان ... ولكنه قتله استجابة لعقدة تعيش فى عقله الباطن ... وهو خوفه من اختلاط الأجنـــاس ... وبالتالى تذويب الفرق الوحيد الذى يعتمد عليه الرجل الأبيض فى التمسك بتفوقه وسيطرته على الزنجى .. وهو اختلاف الجنس المتمثل فى اختلاف اللون ..

●● محنة الانسان

وفى قصة « الضوء فى أغسطس » يعـــالج فولكنر نفس الفكرة .. فكرة العداء المتأصل فى نفس الرجل الأبيض ضد فكرة اختلاط الأجناس .. البطل هنا « جوكريسماس » يعيش فى جحيم دائم .. انه يعانى أزمة ساحقة تمزق داخله .. فهو يعتقد أن دما زنجيا يجرى فى عروقه .. وهو فى محنته الأزلية يتخذ من « جوانا بيرون » عشيقه يجد بين ذراعيها التسلية واللهو والنسيان .. و « جوانا » فتاة بيضاء تؤمن بقضايا الزنوج وحقهم فى الحيـــاة والمساواة ... وهى تشترك فى المظاهرات وتحض على الاضراب دفاعا عن حقوق الزنوج ... وهى تفهم جماهير الزنوج تفهم مشاعرهم ولغتهم .. وتستطيع ان تخاطبهم وان تلهب حماسهم ... ومع ذلك فهى لا تستطيع أن تتجاوب معهم كأفراد ... وعندما تلتقى بأفرادهم لا تجد لغة مشتركة تقرب بينها وبين كل منهم ... وذات يوم يعثر على « جوانا » مذبوحة بوحشية فى مخدعها ... من الواضح أن « جو » قتلها .. لكن أحدا لا يستطيع أن يوجه اليه الاتهام ... فهو من الفئة الممتازة .. أبيض قتل فتاة تدافع عن الزنوج .. تستحق القتل .. اذن فقد أتى الرجل عملا عظيما يستحق عليه الاكبار والاجلال .. وينبغى أن يساعد الجميع فى اخفاء معالم الجريمة .. اذا كانت هنـــاك جريمة .. ويكاد يمر الحادث بهدوء .. لولا أن أحد أصدقاء « جـــو » يقول فى المقهى انه يعتقـــد أن دما زنجيا يجرى فى عروق صديقه « جو » ... هنا فقط يثور الرعاع ... وتقلب الموازين .. وتصبح القضية قضية رجل زنجى قتل فتاة بيضاء تدافع عنه وعن أمثاله .. ينبغى قتله فى الحال .. بل هو وعائلتـــه .. ولا يهتم أحد بتأكيد الشبهات التى تثور حول « جو » .. فمجرد وجود الشبهات يكفى ... وينفض أصدقاء « جو » عنه فى الحال ... ويتبارون فى الصاق التهم به ـ وسواء أكانت صحيحة أم مزيفـــة فلم يعد يهتم أحد بذلك ـ وتعقد فى الحال محاكمة عرفية .. وفى مشـــهد بليغ ومحاكمة حية مليئة بالهرج والضجة تذكرنا بمحاكمات الثورة الفرنسية .. نخرج بمعنى واحـــد يؤكد نفســـه دائما .. وهو أن الانتقام عبث لا يكفر عن ذنب ولا يذهب بجريرة .

وفولكنر ليس متشائما رغم قتامة صوره فهو يلقى دائما بصيصا من النور يقود الى المستقبل ... وهذا البصيص يصبح وهجا فى قصة « انزل يا موسى » حيث ينادى فولكنر بالسلام وبانهاء استغلال الانسان لأخيه الانسان .. ويتجسد أمل السلام فى « ايك ميكاسلين » ... فهو يحمل الحل العاطفى لعقدة الذنب التى تلازم الرجل الأبيض ... يبدأ فولكنر القصة بالرجوع عشرات السنوات الى الوراء عندما جاء أجـــداد « أيك » بالعبيـــد الزنوج واغتصبوا الأرض من أصحابها الهنود ... وحولوها الى مزارع قطن ضخمة ... ينشـــأ « أيك » فى مدينة « جيفرسون » ويتعلم كيف يصطاد الغزلان فى الغابة ... ثم يكبر ليحب كل ما يحيطه فى الغـــابة من حيوانات .. يستأنس بها ويرفض الاعتداء عليها .. ويقضى الساعات الطوال بينهـــا .. وطبيعى نرى الكثير من القصص الممتعة للتآلف والحب

الذى وصل بينه وبين الحيوانات المختلفة .. والحقيقة أن « أيك » يحمل فى طياته بذور مذهب الانسانية وهو المبدأ الذى يطالب بنبذ حياة المدنية وآثامها وشرورها والعودة الى الغابة والأرض البكر العذراء والتصالح مع جميع أهل الأرض فى سلام ووئام بلا قتال ولا عراك ولا أنانية .

وعندما يرث « أيك » المزرعة الضخمة ... يضيق بها نفسا ويتمزق داخله ... هل يقبل الأرض التى أقامها أجداده على الظلم والاغتصاب ... وهل يديرها بالقسوة والوحشية التى يعانى منهما الانسان والحيوان .. وهل يمكن أن تدار بغير استعباد الآخرين واستنزاف عرقهم ودمهم ... ويحس « أيك » انه لن يحصل على السلام فى داخل نفسه الا اذا تنازل عن المزرعة للعاملين فيها .. وبالفعل يفعل ذلك .. ولكن ما ان تعلم حبيبة « أيك » بذلك حتى تهجره .. وهكذا يفشل « أيك » فى أن يكون لنفسه أسرة خاصة به .. ان ثمن السلام الداخلى مرتفع جدا .. ويضيف فولكنر .. ولكن حتى هذا الثمن قد لا يكفى .

●● قصة يرويها أبله

يجمع النقاد على ان قصة « العقل والجنون » تعتبر من أعظم ما كتب فولكنر ... وهو فى هذه القصة يعرض لحياة أسرة من البيض فى الجنوب .. فى الثلاثين عاما الأولى من هذا القرن .. حياة بلا هدف .. وانحدار خلقى .. ومصير محتوم يخيم على الجو ويلاحق الجميع .. **الأحداث بسيطة جدا ولكن القارىء يتتبعها** بصعوبة لأن الكاتب يستخدم المنولوج الداخلى فى **تصوير ابعاد الشخصيات النفسية .. فأسرة « كومبسون »** الأرستقراطية تضم أربعة أبناء .. ينجى **العبيط والفتاة « كادى » التى تحمل سفاحا وتهرب** مع عشيقها و**الغلام « كوينتين » الذى** يحس بالعار **والخزى من جراء فعلة أخته فيفضل الانتحار .. واخيرا « جاسون » الذى يصبح رجلا يسيطر عليه الحقد والياس والألم المكبوت .**

« ديلزى جيبسون » خادم الأسرة الزنجية العجوز هى الشخص الوحيد السوى فى هذا العالم الذى انقلبت معاييره وصار عاليه أسفله وأسفله عاليه . و « ديلزى » انسانة بسيطة بساطة بطولية فى عالم مليء بالعقد متشابك العلاقات .. وهى رغم سواد بشرتها تبدو بيضاء ناصعة البياض فى عالم أسود كئيب .. وهى تعتبر المعيار الأخلاقى الوحيد الذى نقيس عليه أفراد أسرة « كومبسون » حتى نضع كلا منهم فى مكانه الحقيقى ، والقارىء يجد نفسه دائما يقارن رغما عنه بين الانحلال والغباء والاستهتار والقيم الأرستقراطية المتعفنة التى تعيشها أسرة « كومبسون » وبين تماسك « ديلزى » وصبرها وتمسكها بالقيم ومعانى الشرف والبطولة .. بل ان ديلزى الخادم العجوز تنجح فى المحافظة على وحدة أسرة « كومبسون » على مدى ثلاثة أجيال متعاقبة ... ولقد أرادها فولكنر تحية لقدرة الزنوج على الصبر والتمسك بالقيم الشريفة رغم عنت الظروف .

●● ازمة الجسد

ان فولكنر يعيش الاضطرابات التى تقع كل يوم .. جرائم قتل وسلب ونهب واغتصاب .. يرتكبها مجانين العنصرية .. « بيض » عنصريون يدافعون عن آخر معاقل لهم .. وزنوج يبذلون الحياة لقاء التمسك بحقوقهم كآدميين ... الدنيا قلق وخوف ورعب دائم ... وقد سوى فولكنر من القلق ثلاثة شخصيات فى قصة « الملوث بالتراب » ... وقد كانت هذه أول رواية تنشر له سنة ١٩٤٨ ... **فنحن فى البداية نقابل « لوكاس » الزنجى الذى يتهمه المتعصبون البيض بالصلف والكبرياء والوقاحة ... وعندما تبدأ الرواية يساق « لوكاس » الى محاكمة عرفية لاتهامه بقتل رجل أبيض** ... ويبرهن « لوكاس » على أنه مثال للشجاعة النادرة التى يحسده عليها اى زعيم من زعماء الحقوق المدنية اليوم .

ويطلب « لوكاس » المحامى « جانين ستفنسن » للدفاع عنه .. وجانين هذا صورة للرجل الأبيض الطيب القلب المعتدل ولكنه قليل الأثر .. فهو لا يملك الارادة الحرة .. ويكاد يفشل فى الدفاع عن « لوكاس » .. ولكن ابن أخيه الصبى « تشيك ماليسون » ينقب على الأدلة والبراهين لتبرئة « لوكاس » ... والحقيقة أن « تشيك » يمثل المستقبل الذى ينتظر منه فولكنر أن يحل الأزمة الطاحنة الدائرة الآن ... يتمزق « تشيك » بين التقاليد التى تتوقع منه أن يكره « لوكاس » الزنجى الوقح الصلف وبين احترامه المتزايد « للوكاس » الرجل الشريف ذى الارادة الحرة والشخصية المستقلة .. ويعقد شيك مقارنة بين « لوكاس » وعمه جانين ... فيزداد احترامه لشخصية « لوكاس » . وتعتبر قصة « الملوث بالتراب » من أهم قصص فولكنر التى استطاعت أن تحل مشكلة العنصرية فى احدى صورها .

●● البطل يخرج من بين السطور :

ولا يتعرض فولكنر لمشكلة الزنوج فى ولايات الجنوب فى أمريكا فحسب .. بل هو يخرج أيضا ليناقش مشاكل الرجل الأبيض بفضح تعفن مجتمعه وانحلاله .. ففى ثلاثيته « سينوبس » التى يؤرخ فيها لأسرة « سنوبس » يبدأ فى القصة الأولى « القرية الصغيرة » بالحديث عن صغار الفلاحين من المستغلين البيض ... وفجأة ومن بين هؤلاء الفلاحين يظهر ذلك الفلاح الأبيض الذى لا يعترف بمثل ولا قيم ولا يقيم وزنا لتقاليد أو عرف .. « فليم سنوبس » .

و « فليم » مخلوق طفيلى من مخلوقات فولكنر التى تقوم بغير ... وتظهر فجأة وكأنها تخرج من بين السطور .. فعائلة سنوبس تظهر فجأة فى مقاطعة « يوكنا باتوفا » وهى تختلف فى هذا عن كل الأسر التى تعرض لها فولكنر من قبل والتى تتبع سيرتها الأولى قبل أن يقدمها للقراء .. ولكن أسرة « سنوبس » تبرز بلا أجداد ولا تراث .. أو على الأقل ليس للأسرة جذور بعيدة فى المسيسبى .. ويشير فولكنر الى والد فليم فيقول : أما أبو فليم القذر فما كان يلبس الزى الأزرق ولا الرمادى ولكنه كان يظهر فجأة .. ويختفى كما ظهر فجأة .. كغراب البين الأسود فى معارك الحرب الأهلية .

و « فليم » يرتفع لأنه لا يملك الانسانية التى تحس بالبرد يطحن عظام الآخرين ولا الضمير الذى يأبى استغلال ضعف المقهورين .. وعندما يغادر الريف الى مدينة جيفرسون - فى قصتى « المدينة » و « القروى » .. الجزء الثانى والثالث فى الثلاثية - تبدأ أسرته فى الذوبان فى المجتمع الجديد .. ويخرج أفراد الأسرة الى الحياة الجديدة يعيشونها حتى الثمالة .. فان « مونتجمرى سنوبس » يبيع الصور العارية و « وات سنوبس » يعمل نجارا و « فيرجيل سنوبس » يفتح صالون حلاقة ويدير بيتا للدعارة .. بينما يواصل « فليم » نجاحه المضطرد .. وعندما يصل به الحد الى شراء بنك سارتوريس تشك الأسر العريقة ذات التقاليد والمثل فى قيمة تقاليدها وجدوى التسمك بها .

وتتميز كل روايات فولكنر بالدقة المتناهية فى رسم معالم الشخصية وتحديد ابعادها النفسية والجسمية .. ورغم أنها تلتزم بخط واحد الا أنها مع ذلك تحافظ على حيويتها وتتجسد دما ولحما على مسرح الأحداث .. فجاسون كومبسون مثلا بطل قصة « العقل والجنون » شخص ضيق الأفق .. فى حلقة مرارة لا يبتلعها ابدا .. وهو حانق دائما .. ويعتبر « جاسون » نموذجا للجنوبى غير المتسامح الذى يعبر عن شعوره دائما فيقول « ان ما ينقصنا هنا هو العامل النظيف الأبيض أما هؤلاء الزنوج الأوغاد فينبغى ان يتركوا حتى يموتوا جوعا » ثم يقول فى مقام آخر « اتركوهم عاما أو عامين .. وعندئذ سيعرفون أى حياة نوفرها لهم ... وسيقبلون أحذيتنا من جديد » ومع ذلك فان جاسون ليس شخصية نمطية .. تجسد فكرة معينة .. بل هو شخصية متكاملة تؤثر وتتأثر وتتفاعل مع الغير ومع المواقف المختلفة .

ويقول القصاص الزنجى « رالف اليسون » ان « ديلزى » الصابرة تذكرنى دائما بروزا باركس التى بدات مقاطعة الاتوبيسات فى بيرنجهام سنة ١٩٥٥ .. عندما رفضت ان تقف لراكب أبيض

لان قدمها تؤلمها .. أما لوكاس فان بطولتـــه واستبساله يذكراننا بجيمس ميرديث الشاب الزنجى الجسور الذى اقتحم جامعة ميسيسبى قبل موت فولكنر بثلاثة أشهر .

لقصص فولكنر أيضـــا صفة أخرى تميزها كلهـا وتلونها بلون واحد .. قد تختلف درجاته .. وهى قدرتها على أن تشد القارىء منذ البداية .. من أول كلمة حتى آخر كلمة .. والقارىء سريعا ما يجد نفسه غارقا فى لحظات تأمل عميقة .. ثم لاهثا وراء حقيقة خافية .. وفولكنر فى أحسن حالاته لا يقل عن ديستوفسكى .. وهذا يفسر شعبية فولكنر خارج أمريكا خاصة فى اليابان وفرنسا ... ويقال أن قصصه تروج فى فرنسا لأنها تعالج الجنس فى ميدان جديد .. وقد أقبلت أوربا على قصص فولكنر قبل أن يحس به الأمريكيون أنفسهم ... وأعتبرت قصصـــه دراما لأزمة الضمير فى الولايات المتحدة ... وهى أزمة يعانى منها الجميع هناك .

●● مقالات فولكنر :

وآراء فولكنر التى كتبها لتوضيح أزمة الجنوب فى الجرائد والمجلات قليلة وغامضة .. فقد كان فولكنر قصاصا فى المقام الأول .. وربما لم تتبلور الأفكار فى راسه قبل أن يودعها فى رواياته شخصيات حية تملأ الدنيا ضجيجا وحياة .. وقد أشار بعض النقـــاد الى أن قصصه تعتبر نوعا من اليوميات التى تسجل بدقة متناهية نضاله الداخلى المرير .. فهو « رجل يريد أن يحدد موقفه بين ولائه لجنسه الذى ينتهى اليـــه بحـــكم المولد واللون ... وفـكره الذى ينتمى اليـــه بكم ثقافتـــه وانسانيته ونواياه الطيبة ..

وقد احتفظ فولكنر لنفسه بمكانة بعيدة عن الجماهير .. فقد سجن نفسه فى منزل كلاسيكى الطابع فى مدينة « اكسفورد » ونادرا ما كان يسمح بمقابلة الزوار .. وحتى عنـــدما يفعل فانه يبدو جامدا متبرما .. كما كان يرفض الرد على التليفون .. وعندما نالت قصته « الملوث بالتراب » جائزة اكسفورد العلميـــة الأولى أعلن أنه لن يحضر حفل توزيع الجوائز .. وقد كان الناشر يعلق أملا كبيرا على الدعاية من وراء الحفل .. ولما فشل فى اقناع فولكنر .. لجأ الناشر الى عمة فولكنر يطلب منها العون .. فاخذت تلح عليه أن يصحبها الى مكان الحفل حتى رضخ تحت الحاحها .

... بهذا الاهمال كان فولكنر يقابل اهتمام الجماهير .. هذا بالأضافة الى اهماله الأرستقراطى المتعمد فى مظهره فقد كان لا يبلس رباط العنق ولا يحلق ذقنه أياما طويلة ..

غير أن فولكنر بدأ يهتم قليـــلا بنفسه وبالجماهير عندما حصل على جائزة نوبل سنة ١٩٥٠ .. اذ بدأ النقاد يلتفتون الى قصصه يحللونها ويقدمونها للقراء ويفسرون أفكارها .. واهتمت به الصحف بصفته الأديب الوحيد الذى فهم قضايا الجنوب .. وبالتالى يستطيع أن يتحدث عنها .. الا أنه يبدو أن فولكنر الرجل كان يختلف كثيرا عن فولكنر القصاص .. فرغم أن قصصه تعبر عن فهم عميق ناضج للصراع العنصرى وتجاوبا انسانيا لقضايا الزنوج العادلة .. الا أن أفكار فولكنر الرجل كانت ما تزال مشوشة متناقضة وغير ناضجة .. ونجد مصداقا لهذا ما كتبه الصحفى الانجليزى وادن راسل سنة ١٩٥٩ بعد مقابلة عاصـــفة مع فولـــكنر فى منزله باكسفورد .. فقـــد كتب وادن على لســـان فولكنر « اذا وصل الصراع الى حد القتال .. فانى سوف أقاتل بجانب ولاية المسيسبى ضـــد الولايات المتحـــدة .. حتى لو كان هـــذا يعنى الخروج الى الشـــارع واطلاق النـــار على الزنوج . » لـكن فولـكنر يؤكد للصحفى « لـكن الزنوج على حق – تاكـد من ذلك جيدا – انهم على حق .. والجنوبيون البيض مخطئون .. وموقفهم غير محتمل » غـير أن الصحفى الانجليزى نشر الجزء الأخير من الحديث وجعـل من الجزء الأول عنوانا كبيرا .. وقد رد عليـــه فى حينـــه المؤلف الزنجى المعروف جيمس بالدوين مســـتنكرا كلام فولـكنر وواصـــفا اياه بأنه يفتقد شرف الرأى وكرامة العاطفة .. وصفاء الذهن .

وانهالت الخطابات على فولكنر بعضها يسبه ويلعنه والبعض الاخر يطلب منه ان يكذب ما نشره الصحفى الانجليزى على لسـانه ... ولـكن فولكنر لزم الصمت .. مما اضـطر أصدقاء فولكنر الى أن يذيعوا أن فولكنر الذى عاش دائما بعيـدا عن الجماهير لا يحسن الحديث ومواجهة الناس العاديين .. فما بالك بالصحفيين الخبثاء .. وانه يوم تحدث الى الصحفى كان فى حالة نفسية سيئة فقد تشاجر قبل وصول الصحفى مباشرة مع أخيه جون وهو من أشد المتعصبين البيض ضد الزنوج .

●● قف لحظة من فضلك

... ولكن فولكنر اضطر أخيرا الى كتابة سلسلة من المقالات فى مجلة « لايف » فى نفس العـام تحت « **عنوان قف لحظـة من فضلك** » .. وفى هذه المقالات شرح أن كلامه لم يكن نداء للجنوب لحمل السلاح ... ولكنه دعوة للشمال الى التوقف فترة من الوقت عن استخدام الضغط والارهاب لاحداث التغيير بالقوة .. انها دعوة الى ترك الجنوب وشأنه فترة يسترد فيها عقله ويفكر بهدوء ... وهو قطعا سوف يؤمن بحرية الزنوج وحقهم فى المساواة .. وكتب يقول ان الجنوبيين يؤمنون بخطأ موقفهم وعدم عدالته ولكنهم يتميزون بالعناد ويرفضون ضغط الشمال وارهابه .. وقد ورد هذا الرأى على لسان المحامى « جانين ستيفنسن » فى قصة « الملوث بالتراب » التى نشرها سنة ١٩٤٨ .

ومثل هذه الآراء لا تكاد تضع رجلا فى صف الراديكاليين الأحرار فى ولايات الشمال ... ولكنها تضعه فى مقدمة الراديكاليين فى ولايات الجنوب حيث التزمت الشديد والتحفظ الجامد .. ولقد كان الزنوج يقولون دائما أن فولكنر واحد منا .. كما كانوا يسمونه « ويلكى » الصغير حبيب الزنوج ... وقد استهدف فولكنر دائما لغضب المتعصبين البيض فكثيرا ما تعرض للضرب والقذف بالطوب .. وربما كان هذا من أهم أسباب احتجابه عن الجماهير .. كما أنه لا يكاد ليمر يوم دون أن تصـله عشرات الخطابات التى تلعنه وتصفه بالتخاذل والتخلى عن جنسه ولونه ... بل ان كثيرا من المحلات التجارية فى اكسفورد وكذلك محطات البنزين ترفض التعامل معه لموقفه المتعاطف مع الزنوج ..

والحقيقـة أن فولكنر كان من أشد الناس ولاء لشعبه ولونه وجنسه وأرضه ولكنه كان يرى أن مشكلة الزنوج سوف تحل ان آجلا أو عاجلا .. رضى المتعصبون البيض أم لم يرضوا ... ولهـذا كان يرى أن يبدأ الجنوب باصلاح نفسه قبل أن يفرض عليه الاصلاح .

لم يعرف فولكنر ــ رغم ذلك ــ كل شىء عن الجنوب ــ على الأقل عن الجنوب الجديد . فقد كان يعرف عددا قليلا من الزنوج معرفة وثيقة ولكنه لم يلتق بأحد من الزعماء المطالبين بالمساواة ... ولم يعرف .. وبالتالى لم يصور الزنوج المثقفين الذين يمثلون طليعة الركب الزاحف المطالب بالحقوق المدنية .. وهو ايضا لم يستطع أن يقدر حاجة الزنجى الملحة فى أن يجلس فى نفس البار وأن يقص شعره فى نفس الصالون وأن يسبح فى حوض سـباحة واحد جنبا الى جنب مع المواطن الأبيض ... ولكنه كان يرى أن سن قانون الحقوق المدنية يعطى الأبيض ذا النوايا الطيبة الفرصة كى يتصرف حسب ما تمليه عليه طبيعته الخيرة دون أن يتعرض لسخط أبناء جنسه من البيض .

وفولكنر لم يفهم قضايا الجنوب بعيدا عن اطارها الانسانى العريض .. وهو يرى أن المشاكل القائمة بين الابيض والاسود فى جنوب أمريكا لا تخص أهل الجنوب فقط بل هى مشكلة الانسانية فى كل مكان مهما اتسعت الاميال التى تفصله عن الجنوب الامريكى ... وهو يعتقد أن الضمانات القانونية هامة ولكن التقبل العاطفى الواعى لهذه الضمانات أهم .

ولقد كان فولكنر ينشد هدفا صـعبا ... وهو أن يغير الجنوبيون ما بهم قبل أن يجبروا على ذلك .. ولكن الدلائل لا تشير الى أنه حاول أن يفعل ذلك هو نفسه .. وهو اذا كان قد ترك لمواطنيه رسالة من بعـده فقد كان ذلك حثه الدائم المستمر لهم بمواصلة الكفاح لتغيير بأنفسهم ..

هل نجح فولكنر ؟ .

سؤال تجيب عليه الأحداث التى تجرى اليوم فى ولايات الجنوب .

حب و خبز

تأليف: اوجيست استرندبرج
ترجمة: محمد سامى فريد

عندما تقدم الشاب « جوستاف فولك » - العضو المساعد بأحد المجالس - لطلب يد « لويز » رسميا من والدها كان أول سؤال وجهه اليه السيد العجوز هو :

- ما مقدار دخلك ؟

- لايزيد على مئة كرونر فى الشهر، ولكن « لويز » ..

فقاطعه حموه المنتظر .

- لا عليك الباقى .. فأنت لا تكسب كثيرا ..

- أوه .. ولكن « لويز » وانا نحب بعضنا الى حد كبير .. وكل منا يثق فى الآخر كل الثقة .

- ليكن .. ومع ذلك دعنى أسألك : هل مبلغ الف ومائتين كرونر فى السنة هو جملة ما تكسبه من كل مواردك ؟

لقد تعرفنا ببعضنا أول الأمر فى « ليدينجو » .. ولكن والد « لويز » أصر على سؤاله .

- وهل لك دخل آخر خلاف مرتبك الحكومى ؟

- حسن : نعم .. وأعتقد أننا سنحصل على مايكفينا وعندئذ سترى أن عواطفنا المتبادلة ..

- نعم . فعلا ، ولكن دعنا نتصور المستقبل

قال الشاب المتحمس :

- أوه .. بوسعى أن أحصل على مايكفينى عن طريق عمل اضافى !

– أى نوع من العمل .. ومامقدار ما ستربحه منه ؟

– أستطيع أن أعطى دروسا فى الفرنسية ، كما أستطيع الترجمة ، وبامكانى ايضا أن اشتغل بالتصحيح .

وسأله الرجل العجوز وقلمه فى يده.

– كم ستربح من الترجمة ؟

– لا استطيع تحديد ذلك الآن ، ولكن اقوم فى الوقت الحاضر بترجمة **كتاب** عن الفرنسية بواقع عشرة كرونر عن كل صفحة .

– وكم يبلغ عدد الصفحات كلها ؟

– لنفرض ٢٤ صفحة .

– حسن جدا .. حوالى مائتين وخمسين كرونر .. والآن ماذا ايضا غير هذا ؟

– اوه .. لا ادرى .. فان ذلك شىء غير مؤكد .

– ماذا ؟ ألست متأكدا ؟ وتعتزم الزواج ! ؟ يبدو ان لك آراء غريبة عن الزواج ايها الشاب .. هل تدرك انه سيكون هنالك أطفال وانه سيكون عليك أن تطعمهم وان تكسوهم وان تربيهم ايضا ؟

فعارضه « فولك » قائلا :

– ولكن أليس من المحتمل الا يأتى الأطفال بسرعة هكذا ؟ .. اضف الى هذا اننا نحب بعضنا جدا لدرجة ..

– لدرجة ان انجاب الأطفال شىء يمكن التنبؤ به بكل بساطة .

واذعن والد « لويز » ومضى يقول :

– أعتقد انكما قد اتفقتما على الزواج ولا اشك فى انكما تحبان بعضكما حقيقة .. ولهذا يبدو انه لابد لى من الموافقة اخيرا ولكن فقط استغل فترة خطبتك لـ « لويز » فى محاولة زيادة دخلك .

وقفز « فولك » فرحا لدى سماعه هذه الموافقة وقبل يد الرجل العجوز فى حماس .. يا للسماء كم كان سعيدا ساعتها ! وكم كانت « لويز » سعيدة هى الأخرى .. لكم كانا فرحين عندما خرجا للنزهة سويا للمرة الأولى وهما متشابكى الأيدى وكان الكل يلاحظون السعادة المرتسمة على وجه الخطيبين بكل وضوح .

كان يأتى فى بعض الأمسيات لزيارتها ومعه « البروفات » التى كان عليه أن يصححها فكان لهذا أطيب الأثر فى نفس الوالد كما مكن الشاب المكافح من الحصول على قبلة مكافأة من خطيبته ولكن حدث فى احدى الأمسيات أن ذهبا الى المسرح ليرفها عن نفسيهما ثم عادا الى المنزل فى احدى عربات الأجرة فبلغت تكاليف هذه السهرة حوالى عشرة كرونر ، وفى الأمسيات القليلة التالية كان يأتى الى بيت خطيبته ليصحبها فى نزهة سيرا على الأقدام بدلا من اعطاء الدروس .

* * *

ومع اقتراب اليوم المحدد للزفاف كان عليهما أن يقوما بشراء ما يلزمهما لتأثيث شقتهما ، فاشتريا سريرين انيقين من خشب الجوز ، وما يلزم من الحشيات السلك والأغطية المحشوة بالريش ، وكان لابد لـ « لويز » من غطاء أزرق يتناسب وشعرها الأشقر

كما قاما بالطبع بزيارة محل الأدوات المنزلية حيث انتقيا مصباحا ذا ضوء أحمر وكذلك تمثالا من الخزف لـ « ڤينوس » ، كما اشتريا طقم سفرة كامل وسكاكين « وشوك » وأوعية زجاجية فاخرة ، وأفادتهما نصائح « ماما » ومعونتها كثيرا فى اختيار أوعية الطبخ .

أما بالنسبة «لعضو المجلس المساعد» فلقد كان مشغولا جدا فى البحث عن مسكن وفى مراقبة العمال ليرى ما اذا كان الأثاث قد تم تجميعه أم لا ، وفى تحرير الشيكات وما الى ذلك .

وكان من الطبيعى جدا فى ذلك الوقت ألا يدخر « جوستاف » أكثر مما ادخر فعلا ، أما بعد الزواج فما أسهل أن يعاود الادخار من جديد ، لذا فلقد قررا أن يكونا أكثر اقتصادا .. غرفتان فقط كبداية ، وعلى أى حال فبامكان المرء أن يؤثث شقة صغيرة خيرا من أخرى كبيرة وعلى ذلك فلقد استأجرا شقة فى الطابق الأول بمبلغ ستمائة كرونر فى الشهر تتكون من حجرتين ومطبخ وحجرة للكرار .. قالت « لويز » فى بادىء الأمر انها كانت تفضل ثلاث حجرات فى الدور العلوى ، ولكن ما أهمية ذلك الآن وهما متحابان الى هذه الدرجة ؟ .

وأخيرا تم تأثيث الشقة ، وكانت غرفة النوم أشبة بمحراب معبد صغير يقبع فيه السريران كعربتين تنطلقان على طريق الحياة . كانت الأغطية الزرقاء والملايات الثلجية البياض وحواش الوسائد الموشاة بالأحرف الأولى للعرسين الشابين متعانقة فى حب ..

كان لها مظهر مشرق يبعث على البهجة ، هذا بالاضافة الى (پرفان) مرتفع ورشيق لاستعمال « لويز » التى كان البيانو الخاص بها والذى تكلف الفا ومائتين كرونر يقع فى الغرفة الأخرى التى كانت تستعمل للجلوس والطعام والمكتب فى آن واحد علاوة على دولاب ضخم ومائدة للكتابة وأخرى للطعام مع بعض المقاعد التى تناسب المائدتين .. زد على ذلك مرآة مذهبة الاطار وأريكة ومكتبة بالأضافة الى باقى المظهر العام للراحة والأناقة .

وفى مساء أحد أيام السبت تم الاحتفال بالزواج ، وظل الزوجان السعيدان نائمين الى ساعة متأخرة من صباح الأحد ، وكان « جوستاف » أول من استيقظ وبالرغم من أن ضوء النهار الساطع كان يتخلل فتحات النافذة الا أنه لم يفتحها بل أضاء المصباح الأحمر الذى القى ضوءا غامضا على تمثال « ڤينوس » الخزفى . ورقدت الزوجة فى فراشها فى استرخاء ودعة .. لقد نامت جيدا ولما كان اليوم هو الأحد فانها لم تستيقظ على الرغم من قرقعة العربات المتجهة الى السوق . ودقت أجراس الكنيسة فى فرح كما لو كانت تحيى مولد الرجل والمرأة .

وتقلبت « لويز » فى الفراش بينما كان « جوستاف » يستبدل ملابسه خلف (البرڤان) ثم دلف الى المطبخ ليأمر باعداد وجبة الغداء فراعه بريق الأوانى النحاسية ولمعان الأوعية الذى



يخطف الأبصار لقد كان كل شيء هنا ملكه .. ملكه وملكها .. وأمر الطاهي أن يتوجه الى المطعم المجاور ليطلب ارسال وجبة الغداء اليهما ، وكان مالك المنزل يعلم هذا فلقد تلقى تعليمات كافية فى اليوم السابق فكل ما يحتاجه الآن هو من يذكره فقط بأن الوقت قد حان للتنفيذ .

وهنا يعود العريس الى غرفة النوم ويطرق بابها فى خفة سائلا .

ـ هل أستطيع الدخول ؟

وعندئذ تأتيه صيحة خفيفة من الداخل .
ـ كلا يا عزيزى .. انتظر لحظة !

وبعد « جوستاف » المائدة بنفسه فى الوقت الذى يصل فيه الطعام من المطعم وتصطف الأطباق الجديدة والفضيات والأكواب على المفرش الجديد الأبيض بينما تقبع باقة زهور الزفاف الى جوار المكان المخصص لجلوس « لويز » التى ما أن تدخل الغرفة فى ثوب الصباح الوشى حتى تصافحها أشعة الشمس .. وهى لا تزال تشعر ببعض التعب لذا ينصحها بأن تستريح على أحد الكراسى ذات المساند ويقدمه لها بنفسه ، كما يقدم لها بعض قطرات من الشراب لانعاشها وقضمة من الكاثيار لفتح شهيتها ، وتصور ما ستقوله « ماما » لو رأت ابنتها تشرب الخمر ! ولكن تلك هى احدى مميزات الزواج كما تعلم .. وعلى هذا فبوسع المرء أن يفعل ما يحب .

ويقف الزوج الشاب على خدمة عروسه اللطيفة بكل جوارحه .. يا للسعادة ! لقد تناول قبل اليوم الكثير من وجبات الطعام الشهية فى أيام عزوبيته ولكن أى راحة أو رضى قد عادت عليه منها ؟ لا شيء ..

هكذا يفكر بينما يتأمل طبقا من المحار أو قدحا من البيرة .. ما أغبى هؤلاء العزاب .. لا يتزوجون ! ما أشد أنانيتهم ! لماذا !؟ يجب أن يفرض عليهم رسم ما كما يفرض على الكلاب .. أما « لويز » فلم تكن فى مثل قسوته وهى تقول فى رقة وطلاوة انه ربما كان هؤلاء المساكين ممن يفضلون حياة العزوبية أحق بالشفقة بدون شك . وهى تعتقد أنه لو كان بوسعهم الاقدام على الزواج لفعلوا . ويشعر « جوستاف » بغصة فى قلبه اذ من المؤكد أن السعادة لا تقاس بالمال .. لا .. لا .. ولكن .. ولكن .. حسن .. لا بأس ، عما قريب سيكون هنالك عمل كثير وحينئذ سيكون كل شيء على ما يرام أما الآن فها هو السمان المشوى مع صلصة التوت التى لا يمكن اغفالها وكذلك البورجندى .. كل هذه المتعة مع بعض ثمار الخرشوف المنتقاة تسبب للزوجة

الصغيرة انزعاجا لا يستمر أكثر من دقيقة فتسأل « جوستاف » فى خضوع عما اذا كان بوسعهما أن يستمرا فى حياتهما بهذا الشكل ، ولكن «جوستاف» يصب مزيدا من الخمر فى كأس صغيرته « لويز » ليطمئنها ويهدىء مخاوفهـا التى لا اساس لها فيقول .

ــ ان يوما واحـدا ليس كباقى الأيام .. وما على النـاس الا ان يستمتعوا بحياتهم كلما أمكنهم ذلك .. آه .. ما أجمل الحياة !

وفى الساعة السادسة تقف أمام الباب عربة انيقة يجرها جوادان ويخرج العروسان فى نزهة ، وتحس « لويز » بالسعادة وهما يعبران المنتزة بينما هى تضطجع فى هدوء تام ، ويلتقيان ببعض معارفهما سائرين على الأقدام فينحنى الأخيرين لهما فى دهشة وحسد ظاهرين ، لابد أنهم يفكرون فى أن ذلك « العضو المساعد بأحد المجالس » قد تزوج زيجة ناجحة .. لقد انتقى فتاة ثرية ، أما هم ، فما أتعسهم اذ يجب عليهم أن يسيروا .. ما أجمل الركوب هكذا بدون مجهود ، مستنداً على هذه الوسائد اللينة ! انها دليل الحيـاة الزوجية السعيدة .

ومضى الشهر الأول فى نعيم لا حد له .. سهرات ، حفلات ، وجبـات غداء ، وجبات عشاء ، مسارح ، الا ان ذلك الوقت الذى كانا يمضيانه بالمنزل كان على الرغم من كل هذا خيرا منهـا كلها ، وما أمتعه من احساس أن ينتزع « لويز » من بين والديها ليعود بها الى المنزل حينما يرغبان فى أن يفعلا ما يحلو لهما فى منزلهما .. فما أن يصلا الى الشقة حتى يشرعا فى اعداد عشاءخفيف ثم يجلسا فى دعة ويأخـذا فى الثرثرة حتى ساعة متأخرة .

كان جل اهتمام « جوسـتاف » بالاقتصـاد أو بمعنى أصح بالطـرق الاقتصادية فلقد حدث فى أحد الأيام مثلا ان قدمت العروس الشابة ومديرة المنزل طبقا من السمك المدخن مـع البطاطة المسلوقة التى لاقت استحسانها أيضـا ولكنهـا مـع ذلك لم تعجب « جوستاف » ، فلما حان موعد تناول السمك المدخن فى يوم آخر أضـاف اليه زوجا من السمان كان قد اشتراه من السوق بمبلغ « كرون » واحد وكان مبتهجا جدا بصفقته الرابحة وان لم توافق عليها « لويز » اذ انه حـدث فى احدى المرات ان اشترت هى الأخرى زوجا من السمان بثمن أقل مما اشتراه هو . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فان تناول لحوم الصيد يعتبر محض تبـذير واسراف الا أن شيئا كهـذا لا يدعوها اطلاقا الى الاختـلاف مع زوجها على شيء تافه .

وبعد مضى شهرين آخرين انحرف مزاج « لويز فولك » بشـكل يدعو للانزعاج ، ترى هل أصيبت بنوبة برد ؟ أو ربما تكون قد أصيبت بتسـمم من أوعية المطبخ المعدنية ؟ .

ولم يفعل الطبيب الذى استدعوه أكثر من أن ضحك وقال أن كل شيء على ما يرام ــ لاشك أن هذا هو أغرب

تشخيص قيل عن مرض ـ بينما العروس الشابة فى خطر . من المحتمل وجــود سم الزرنيخ فى ورق الحائط ، لذا أخذ « فولك » بعضا منه الى الكيميائى سائلا اياه أن يجرى عليه تحليلا دقيقــا ، واكد تقرير الكيميائى ان ورق الحائط خال تماما من وجود أى مادة سامة به .

ولما لم يتحسن حال زوجته ، راى « جوستاف » أن يتحرى الأمر بنفسه وأسفرت دراساته فى أحد الكتب الطبية عن علاج اكيد لمرضــها ، وبدأت هى بالتالى فى أخذ حمامات ساخنة لقدميها ، وفى خلال شهر واحد تحسن حالهــا بشكل يبشر بالخير وان كان مفاجئــا وأسرع مما توقعا الا أنه على الرغم من ذلك لم يكن أجمــل ولا أروع من أن يصبحا مجرد أب وأم والمولود بالطبع ذكر ـ لا شك فى هذا ـ ولابد للمرء من أن يفكر فى اسم له .

فى هذه الأثناء ـ برغم هذا ـ انتحت « لويز » بزوجها جانبا وذكرته بأنه لم يحصل على أى دخل اضافى بجانب مرتبه منذ زواجهما الذى لم يعد يكفيهما بأى حال من الأحوال .. حقا ، لقد عاشا فعلا فى مستوى مرتفع الى حد ما ، ولكن يجب الآن أن يحدث نوع من التغيير حتى يكون كل شىء على ما يرام .

وفى اليوم التالى توجه « العضــو المساعد » لزيارة المحامى صديقه الحميم راجيا اياه أن يوقع له احدى الضمانات التى بواسطتها يستطيع ان يقترض المال اللازم لمواجهة بعض المصروفات الضرورية فى المستقبل . وبعــد أن أوضــح « جوستاف » لصديقه رجل القــانون كل شىء ، قال الأخير .

ـ حقا .. ان الزواج وتكوين أسرة أمر يكلف كثيرا ولا أقدر عليه مطلقا .

وأحس « جوســـتاف » بمنتهى الخجل من أن يلح فى طلبه ، وعندما عاد الى منزله صفر اليدين قوبل بنبأ زيارة شخصين غريبين للمنزل سألا عنه فى غيابه .

وفكر « جوستاف » فى أنهما لابد وأن يكونا اثنين من الملازمين الأول فى الجيش .. بعض الأصدقاء من حصن « فورت ڤاكسهولم » ، وأجيب : لا .. لا يمكن وأن يكونا من الملازمين الأول فى الجيش اذ ان مظهرهما أكبر فى السن من ذلك .

آه .. لابد اذن أنهما شخصان كان يعرفهما فى « أوبسالا » ومن الجائز أنهما سمعا بنبأ زواجه وأنهمـــا حضرا ليزوراه ، واجاب الخادم فقط بأنهما ليســا من « أوبســـالا » بل هما من « ستوكهولم » وأنهما يحمــلان معهما عصيا .

ـ شىء غريب فعلا .. لابد أنهمــا سيعودان مرة أخرى .

وعاد الزوج الشاب للتسويق من جديد فاشترى بعضا من ثمــار الفــراولة صفقة ولا شك .

وهتف قائلا لزوجته .

ـ فقط تصورى ـ ١٢٥ درهما من هذه الفراولة الكبيرة الحجــم بمبلغ « كرون ونصف » فقط ..
وفى هذا الوقت من السنة !



— أوه .. لكننا يا « جوستاف » يا عزيزى لا نستطيع تناول مثل هذه الأصناف .

— لا عليك يا حبيبتى .. لقد أعددت عدتى لعمل اضافى .

— وماذا عن الديون ؟

— ماذا ؟ .. الديون ؟ سأقترض مبلغا كبيرا من المال وهكذا أسدد كل ما على من ديون دفعة واحدة ..

فقاطعته لويز قائلة :

ـ آه .. ولكن ألا يعنى هذا ببساطة دينا جديدا ؟

ـ لايهم ماذا يعني والمسألة كلها مسألة تأجيل كما تعلمين ، ولكن لماذا تثيرين مثل هذه الأمور الكئيبة ؟ .. ما أفخر هذه الفراولة .. أليس كذلك ياعزيزتي ؟

الا ترين أن كوبا من عصير الكرز يكون رائعا بعد الفراولة ؟

وعلى هذا أرسل الخادم ليشترى زجاجة من عصير الكرز ـ أجود الأصناف بالطبع .

فى ذلك اليوم ، عندما استيقظت زوجة « فولك » من اغفاءتها فى فترة بعد الظهر ، عادت لتبرر ما قالته بخصوص موضوع الدين وكان كل أملها ألا يغضب لما ستقوله .

يغضب ؟ بالطبع لا .. ماذا تريد أن تقول ؟ هل تريد بعض المال للانفاق على المنزل ؟

قالت « لويز » موضحة .

ـ لم يدفع حساب البدال بعد ، وقد هددنا القصاب كما يصر مالك المنزل على تسديد ايصالاته .

ورد « العضو المساعد » .

ـ هل هذا هو كل ما هنالك ؟ .. سيسدد حساب كل منهم دفعة واحدة ـ غدا ـ كل مليم ، ولكن لنفكر الآن فى شيء آخر .. ما رأيك فى نزهة قصيرة الى المتنزهات ؟ هل تفضلين الا نستقل عربة ؟ ليكن كذلك .. اذن فلنستقل الترام الى المنتزه .

وهكذا ذهبا الى المنتزه وتناولا عشاءهما فى غرفة مستقلة بمطعم « الهامبرا » وكانت تلك متعة كبيرة اذ ظن الناس فى القاعة العامة للطعام أنهما عاشقان مدلهان . وأعجبت «جوستاف» هذه الفكرة رغم أن « لويز » بدت واجمة بعض الشيء خصوصا عندما رأت (فاتورة) الحساب . لقد كان بامكانهما أن يتناولا ضعف هذه الكمية فى المنزل بتكاليف أقل .

وتتعاقب الشهور ، وبتعاقبها تظهر الحاجة الملحة الى الاستعداد الفعلى .. مهد للمولود ، وملابس وما شابه ذلك . ولم تساعد « فولك » ظروفه العصيبة على تدبير المبلغ اللازم لكل ذلك ، فمالك المسكن ، والبدال يرفضان أى تقسيط آخر اذ أن لهما هما أيضا أسرهما التى يعولانها . ما أبشعها مادية !

وأخيرا .. يأتى اليوم الموعود ولا بد لـ « جوستاف » من العثور على ممرضة وبينما هو يحمل طفلته الحديثة الولادة يستدعى للخارج لكى يهدىء من ثائرة دائنيه وهنا يشعر بثقل المسئوليات الجديدة على كاهله حتى ليكاد يتهاوى تحت ضغطها .

نعم .. لقد نجح فى الحصول على ما يترجمه ، ولكن كيف يستطيع أن يؤدى عمله وهو مضطر فى كل وقت الى انجاز بعض المأموريات ؟ وفى غمار هذه المشكلات يتجه الى والد زوجته طالبا العون ، ولكن السيد العجوز يلقاه فى برود قائلا :

ــ سأساعدك هذه المرة فقط .. فأنا نفسى لا أملك الا القليل ، كما انك لست ابنى الوحيد .

ولابد من توفير حياة رغدة للزوجة الأم .. لابد لها من بعض الدجاج وافخر انواع الخمور ، كما ينبغى أن يدفع للمرضة مرتبها .. ولحسن الحظ تتمكن زوجة « فولك » من الوقوف على قدميها فى وقت قصير وها هى تعود فتاة مرة أخرى بقوامها الرشيق ، وها هى الوسامة تعود الى محياها من جديد الا أن والدها برغم هذا يتحدث فى جدية الى زوج ابنته قائلا :

ــ والآن .. لا مزيد من الأطفال .. أرجوك .. والا جنيت على نفسك .

وتعود أسرة « فولك » الصغيرة فى وقت قصير الى العيش على الحب والديون المتزايدة. الى أن يطرق الافلاس بابها فيحجر على ممتلكاتها ويأتى الوالد ليصحب معه « لويز » وطفلتها ، ويرحيهم فى احدى عربات الأجرة خلف الوالد وراءه انطباعا مريرا بأنه انما كان يقرض ابنته لأحد الشبان الذى ردها بدوره لصاحبها بعد مضى عام . ياللعار! الم يكن الأجدر ب « لويز » أن تبقى مع « جوستاف » .. ولكن لم يعد هناك بعد ما يمكن أن تقتات منه .

وظل فى مكانه فى الخلف يرقب (المخضرين) .. هؤلاء الرجال ذوى العصى ــ وهم يجردون الشقة من كل شيء . الأثاث ، والفراش ، والخزف ، والفضيات ، وأدوات المطبخ حتى أصبح عاريا مما فيه تماما ..

من هنا بدأت حياة « جوستاف » الحقيقية ، فلقد سعى للحصول على وظيفة مصحح باحدى الجرائدالصباحية لذا كان عليه أن يعمل لمدة عدة ساعات فى كل ليلة . ولما لم يكن قد أشهر افلاسه رسميا بعد فقد استطاع الاحتفاظ بعمله فى خدمة الحكومة وان لم يكن يحلم فيه بأى ترقية .. ووافق حموه على السماح له برؤية زوجته وطفلته فى أيام الآحاد وان لم يسمح له بالبقاء معهما بمفرده . وعندما كان ينصرف فى المساء الى عمله فى الجريدة كانا يقومان بتوصيله حتى الباب الخارجى حيث كان يفارقهم وهو يحس هوانا لا مثيل له .

قد يستغرق فى تسديد كل ما عليه من ديون ما يقرب من العشرين عاما وعندها .. نعم وعندها ؟ هل يستطيع أن يعول زوجته وطفلته ؟ لا .. من الجائز الا يستطيع ولو حدث وتوفى والد زوجته فى ذلك الوقت فلن يصبح لهما مأوى ، لذا يجب عليه أن يشكر ذلك الرجل الغليظ القلب الذى فرق بينهم بمنتهى القسوة .

آه .. حقا ، فالحياة الانسانية نفسها صعبة وقاسية .. حتى الحيوانات تجد من يعولها فى يسر وبساطة بينما يجب على الانسان وحده من بين جميع المخلوقات أن يكد ويكدح . انه لعار ! نعم .. انه لعار صارخ ألا يحصل كل فرد فى هذه الحياة على ما يلزمه من السمان والفراولة مجانا .

عم عبد الحكيم

قصة : محمود حسن العزب

وضعت يدى على خدى صباح اليوم أحدق فى الفضاء عبر النافذة ، وأفكر فيما جرى لعم عبد الحكيم ٠ منذ التحقت بعملى والرجل يلفت نظرى اليه فى اطار ما يحيط بى ٠ كانت حركته الدائبة مثار انتباهى ٠٠ أدق الجرس ـ مثلا ـ فاذا الرجل يسابق الدقات ٠٠ ويسبقه لسانه بكلمة « نعم » ؟ ٠

كان عم عبد الحكيم فريدا بين السعادة ٠٠ لا يتلكأ أو يتخلف عن تلبية أى نداء ٠٠ مع أنك لن تراه الا مشغولا تتسابق الأفواه ٠٠ والأجراس فى طلبه ، ولو كان الجرس معطلا يكفى أن تقول ياعم عبد الـ ٠٠٠ وقبل أن تتم نداءك تجده على عتبة حجرتك مستفسرا عما تريد بصوت خافت يلونه الخجل !

فى بعض الأحيان كنت أضيق بسرعته ٠٠ وخجله ٠٠ وتمنيت لو أخلف مرة ٠٠ وتغافل عن ندائى « هات ياعم عبدالحكيم ٠٠ شاى ٠٠ « حاضر » ثم يختفى كأننى لم أطلبه ٠٠ ياعم عبد الحكيم ٠٠ مر على الأستاذ حسين ٠٠ وهات منه دوسيه ٠٠ وقبل أن أتم كلامى ٠٠ يسبقنى ويقول « حاضر » ٠٠ وابتسم ٠٠ هل عرفت يا عم عبده أى دوسيه ٠٠ أعنى ؟وأجابنى الرجل بطيبته المعهودة : تقصد دوسيه الأمس ٠٠٠ وأول أمس ٠٠ فأنت تطلبه كثيرا » ، وتتسع دائرة ابتسامتى : هذه المرة ٠٠ سأخيب ظنك ٠٠ سأعطيك ورقة باسم الدوسيه الجديد ٠٠ متشكر يا عم عبد الحكيم » ٠

« الشكر لله يا افندم » ٠

وغاب الرجل عن عينى لكن صورته تظهر فى لوحة رأسى ٠٠ وأكتشف أن مظهره العام ليس فيه شىء من الجدة أو العناية ٠٠ يلبس بدلة عمل مستهلكة أضافت لقامته القصيرة قدرا من التهدل وعدم التنسيق ،، وعكست على وجهه الشبيه بلون ماء الفيضان دكنة جديدة ٠٠ وشفت احساسا مسالما فيه اعتذار عن شىء يخشى أن يحدث منه ، فاذا سمعت ايقاع صوته الخافت مقترنا بانحناءته نحوك خيل اليك أنه فريسة حزن مجهول لازمه بعد رحلة زمن ! »

ولمحته مقبلا بالدوسيه فى زجاج النافذة المواجهة للباب ٠٠ يخب فى مشيته كالنعامة ، ويمسح عن شفتيه آثار حلوى ٠٠ يتلمظ ٠٠ لم أكن أدرى سر تعلقه بالحلوى لكنه يلوكها فى فمه بنشوة طفل حصل عليها بعد نوبة بكاء !

«كيف عدت سريعا ياعم عبد الحكيم؟»

«أسرعت الى الدور الأول٠٠ وأحضرت لك ما تريد » ٠

« ياه ٠٠ قل لى ٠٠ كم مرة نزلت وطلعت من الصبح على السلالم ؟ » ٠

وضم أصابعه ، ونفضها فى الهواء ، وتمتم بصوته الخافت : كثير ٠٠ كثير ٠٠ يا أستاذ ٠٠ الكل يطلبنى ٠٠ ماذا أعمل ؟ ٠٠ أى خدمة ثانية ؟! » ٠

ولم أدر هل سمعنى أشكره ٠٠ لكنه

ذاب من أمامى .. يستجيب للنداءات المنبعثة من الحجرات حولى . أحيانا أضطر عندما تحل نوبة عمل عم عبد الحكيم أن أغلق باب الحجرة ، ولولا ذلك فلن أنهى عملا كافيا فى يومى .. اذ تشدنى النداءات وهى تلاحق الرجل كسوط شفاف ... أراه يهرول هنا ، ويدلف هناك .. ينظف مكتبا .. يحضر دوسيها .. يلبى كل الطلبات كسيارة تعمل على جميع الخطوط ، وكعادته عند كل محطة .. يستقبل من يناديه بـ « نعم » ويغادره بكلمة « حاضر » وكثيرا ما تشيعه نظرات الشكر .. ولا يراها .

« ناولنى الدوسيه الفلانى يا عم عبده .. تأخر الشاى يا عم عبد الحكيم .. اذهب للأستاذ فلان .. انزل القسم تحت .. اطلع الدور الثالث .. وهات »

وأثارنى دأب الرجل على اطاريه النحيلين .. تتبعته فترة .. أحصيت عدد المرات التى تردد فيها بين حجرات طابقنا وحده .. فى خمس دقائق .. وجدتها ثمانى مرات .. وقفت فى زاوية السلم أطل على فناء المبنى من نافذة .. تهت فى عدد المرات التى طوى بها درجات الأدوار الثلاثة ، ولم أكن مستطيعا أن أنقل خطواتى خلفه ـ ربما أفضل أن أصون اطاراتى من البلى ـ لكنه كان يمر على فى وقفتى ،ويصر على تحيتى كل مرة بلسانه ، ويده .

واطمأننت عليه قليلا عندما هبط الى الدور الأول .. وغاب فيه طويلا .. قلت لنفسى .. انه الآن يختلس وقتا لراحة اطاريه .. وربما يتناول افطاره .. لكنى لمحت افطاره على المقعد لم يمس .. استبعدت الفكرة الثانية همست لنفسى : لا بأس بالفكرة الأولى ..فكيف يظل الرجل يهبط ويصعد الدرجات بلا التفات لاجهاد قدميه ؟!

رن جرس .. ظننت أن « جمعة » الساعى الآخر .. سيحل محله ..لكنه تصامم ، وانسحب بعيدا كأنه غير موجود ... فى حالة وجود « جمعة » وحده فى « الوردية » .. تقل طلبات الموظفين .. ويؤجلونها أحيانا .. وتتناثر تعليقاتهم فى حق « جمعة » وسلوكه . ثم يخفف أحدهم من السخط عليه فيقول مازحا « جمعة » يظهر مولود فى يوم جمعة .. والجمعة أجازة .. يعنى ان طلبتم « جمعة » ... انتظروا « جمعة » .

طال غياب عبد الحكيم .. وخشيت أن يكون تعثر على احدى الدرجات .. هممت أن أسأل عنه .. كثرت دقات الأجراس .. اتجهت ظنون الموظفين الى فكرة الاستياء من عم عبد الحكيم .. كأنه من نمط « جمعة » .. لكن هذه الظنون تبخرت حين تبين أنه أرسل خارج المبنى ليحضر افطار الموظفين فى الدور الأول مع أن به سعاة آخرين !

عاد عم عبد الحكيم لاهثا .. لاحظت أنه عجوز أكثر مما كنت أقدر له .. لم لا يبقى هنا .. يكتفى بتلبية طلبات قسمنا ؟ ويجيبنى باستسلام ظاهر ، ورنة كلها طواعية : ماذا أعمل ؟ الكل يطلبنى . ومسح بكمه حبات عرق صغيرة متراكمة على جبهته السمراء ، وانهمك فى تناول لقيمات من افطاره .. لكنه لم يتمه حين طلبه رئيس السعاة !

اتجه الى المبنى الآخرلشركتنا فىشارع الصحافة لتسلم طلبات عاجلة ، وحمل معه دوسيهات ملونة نبه عليه باهميتها .. وأكد لى عقب عودته أنه اجتاز شارع «الجلاء» بفضل أدعيةمختارة يثق فيها.. وراح يحمد المولى على النجاة .. ثم ترك لسانه يصب سخطه على الأتوبيس ..

والترام .. والمترو ... كأنهما ثالوث أخطار شره يتلمظ للمارة . ولم يكن يدرى كيف يستوعب شارع كهذا تلك الأفواج الصاخبة .. وخيل له ظنه أنها مقدمة طوفان .. لا نوح له . ومد الى شفتيه قطعة حلوى جديدة ، وتناسى مخاطرة اجتياز طريق الطوفان ، وانغمس فى تلبية كافة النداءات والرجاءات .. وكأنها كانت فى انتظاره !

كان يمضغ الحلوى الجديدة بلذة المدمن .. وسألته عنها .. أجاب منتشيا : من الأستاذ عزت .. « ولكنها حلوى المولد ؟ » .

« كل سنة وانت طيب يا أستاذ .. حد ينسى المولد ؟ » .

وهرول مجيبا لنداء .. وفكرت لحظات فيما قال .. ثم شدتنى مكالمة تليفونية .. وقمت من فورى وأغلقت باب الحجرة .. أمنع عن مكالمتى ما خلف الباب من طنين النداء . بعد ساعات سمعت طرقا على باب الحجرة ، وانفرج الباب عن وجه « جمعة » وبيده دوسيه .. وفجأة لاحظت بسمة تتراقص على شفتيه .. خيل الى انها بلا داع .. لكنه كان يلتفت خلفه ، ويثبت ابتسامته .. كان عم عبد الحكيم يرفع كفيه الى أعلى ، ويخبط بهما فخذيه كمن ارتكب ذنبا .. ثم يكرر حركته .. ويبسط يديه الى السماء راجيا أن تنعم عليه بالراحة من الدنيا ومن فيها « .. آه .. لو لم يكن لى أولاد .. لرحلت عن الدنيا .. وتركتها لهم ... » وخالجنى شعور بالأسى لمشهد الرجل يدق على ركبتيه ، وينحنى كفرع شجرة جاف تعابثه ريح قاسية .. ما الحكاية يا جمعة ؟ قسر الانهاك عم عبد الحكيم ، وجره الى مقعده ، وأغفى بلا مقاومة ، وطلبه رئيسه .. عرف أنه نائم .. وسمع عم عبده من يشيع أن رئيسه غاضب ، وسيكتب مذكرة باهماله .. وتصور أنه سيجازى بخصم لا محالة .. بل ألقى أحدهم فى روعه — على سبيل المداعبة — أنه عرضة للفصل .

كان منزويا فى ركن الصالة كأنه هرة تتوقع عدوانا ما .. ويصمت قليلا ثم يهدر نادبا حظه : متمنيا على الله أن لو كان ترام دهسه .. واستراح ! .

ولم يطلق أخيرا انزواءه .. هرول الى رئيسه يقسم له بايمان من كل لون .. وملة .. أنه غير مهمل .. وأن النعاس — منه لله — خادعه . !

ونسى أن يسأل « جمعة » ماذا يمكن أن يتصرف فى مثل هذا الموقف مع رئيسه ، مع أنه يعرف جيدا أن « جمعة » له طرقه التى يفلت بها حيث لا يستطيع « الريس » أن ينال منه حقا ولا باطلا .

وتحرك الرجل عقب أى نداء كالمكوك .. أوقفته .. طلبت له شايا .. احتساه واقفا !

« ارحم رجليك يا عم عبده .. ربما يداعبونك .. أم انك « غاوى » طلوع ونزول السلالم ؟ »

« ماذا أعمل ؟ نصيبى كده .. أكل العيش يا ولدى ... عندى ثلاثة أولاد .. وزوجة .. وأم واختين .. لو اقتطع يوم واحد من مرتبى .. لاضطررنا للمبيت بلا عشاء .. وانت سيد العارفين .. المرتب كله « يا دوب » .. انت زعلان من السلالم .. هكذا الدنيا .. مرة نطلع .. ومرة ننزل .. ولما يتم الأجل .. لا نطلع .. ولا ننزل .. قل يارب » !!

— قل لى .. لماذا عدت من مبنى الصحافة .. بلا نتيجة ؟!

ـ لم يرض أحد بتسليمى « الشغل » من غير بطاقة
ـ وأين بطاقتك ؟
ـ فى البيت ٠٠ أخاف أن تسرق ٠٠ لو حملتها ؟
ـ لكن ٠٠ كيف يعرفك الناس ؟
ـ ومن يهمه أن يعرفنى ؟
ـ كلنا ٠٠ يهمنا أن نعرفك ٠
ـ الله يحفظك ٠٠ حاجة واحدة عرفتها وعرفتنى ٠٠ السلالم ٠٠ لو تعرف كم درجة هنا ٠٠ وكم درجة هناك ؟ ٠٠ وآه ٠٠ عندما أصل آخر درجة يكون نفسى انقطع ٠٠ قل يارب !»

اسندت ظهرى الى المقعد ، وامتدت يدى الى جيبى تطمئن على بطاقتى ، وراجعت رقمها فعادة أنساه ٠٠ ولم أدر لم فعل زملائى مثلى ٠٠ أنسوا أنفسهم ٠٠ أعنى أرقامهم كما نسيت ؟!

انشغلت أياما عن متابعةعم عبدالحكيم ٠٠ ثم أحببت ان أراه ٠٠ضربت الجرس ٠٠ لم يلب عم عبده ندائى ٠٠ تحركت مشوقا الى معرفة السبب ٠٠ وفى ركن ردهة داخلية لمحته يداعب صبيا صغيرا، ويمازحه بحركات طفولية ساذجة ، وملامح الصبى تشع بالسرور ، ويطلق ضحكات صافية كأنها الشروق ٠ وعبس الصبى فجأة ، وطلب ماء فهرع عم عبد الحكيم الى « البوفيه » ومر بى ٠٠



نسى أن يحييني ، وعاد سريعا فى خفة العصـــفور يحمل كوب الماء ، وناوله للصبى فى ابتهال ، ثم مد يده فى جيبه، وأخرج قطعة حلوى ٠٠ ناولها له ٠٠ ٠٠ أخذها الصبى وجرى نحو والده ٠٠ ولم يكن رئيس السعاة كما توهمت !

وأحس عم عبد الحكيم بوجودى ٠٠ حيانى ٠٠ انتظر أن أكلفه بأية خدمة ٠٠ ثم أخبرنى أنه ذاهب الى الصحافة فى مأمورية ٠٠ ولم تقل لى ذلك يا عم عبده ؟

« أحس بالخوف ٠٠ فالترام صدم أمس صبيا فى شارع الجلاء ٠٠ وتنتابنى رعشة لمجرد المرور من هناك ٠٠ »

« الأعمار بيد الله يا عم عبد الحكيم »

« ٠٠٠ ونعم بالله ٠٠ لكن يا أستاذ ٠٠ تستطيع أن تقول لى ٠٠ لماذا قدر للصبى أن يموت هكذا ؟ ٠٠ سمعت هذا السؤال من اثنين عقب الحادثة ٠٠ قلت لهما ٠٠ ان الموت حق ٠٠ لكن ٠٠ لماذا يموت ؟

وحدقت فى الرجل وهتفت : ماذا تقول يا عم عبده ٠٠ هذا سؤال كبير كيـف تعلق بذهنـك للآن ٠٠ ومـع ذلك فأنا لا أدرى ٠٠ أنا لا أزيد عنـك معرفة فى هذا الشأن ٠٠ طمئن نفسـك فمثل هذه الأمور علمها عند ربى » ٠

« ظننت أنك تعرف ٠٠ فانت أستاذ ٠٠ و ٠٠ » ٠

وقاطعته وهمست لنفسى ٠٠ قبله : من يعرف يا عم عبده ٠٠ من يعرف ؟!!

تحركت فى مقعدى متململا٠٠ انتابنى القلق ٠٠ فما كان من عادة عم عبده ـ فى تقديرى ـ أن يثير سؤالا على هذا النحو ٠٠ وبهذا المســتوى ٠٠ والآن بالذات حتى ولو كان سمعه من الغير ٠٠ وحاولت أن أصرف ذهني عن مثل هذه المنطقة من التفكير ٠٠٠ وأنا أوثر أن تسير حياتى دون أســئلة خطرة ٠٠ ولعلها عقيمة ٠٠ لم أفتح على نفسى بابا للظنون يمتص من قلبى سكينة الرضا بما أنا فيه ٠٠ وعليه ؟!

واســتطعت أن أقبر هواجسى ٠٠ وأثير بنفسى اتجاها آخر ٠٠ هــذا سؤال من ساع ٠٠ وربما ألقــاه على ظاهره ٠٠ أيثيرنى سؤال ساع الى هذا الحد ؟ انه لا يزيد عن ساع وما زالت رواسب التفــرقة تغرينى على ضرورة التمييز بيننا ٠

وغادرنى الرجل وهو يهمس لنفسه : صحيح ٠٠ الله حق ٠٠ الموت حق ٠٠ استغفر الله ٠٠٠ استغفر الله العظيم »٠ واتجه ناحية افطاره المنسى ، واقسم على « جمعة » أن يتناول معه الافطـــار ، واستجاب « جمعة » خوفا على قسمه ، وأثناء تناول لقمة العيش المشتركة رجاه « جمعة » أن يحل محله فى « ورديته » التالية « عشان وراه مشوار » ٠ووافق الرجل فى ترحـــاب ٠ وعرفت بعـــد الافطار أنه ذهب الى مبنى الصحافة ، وهدأ صراخ الأجراس ، وخفتت حـــدة النداء ٠ لم يعد عم عبد الحكيم فى ذلك اليوم ، ولم يحفل بذلك الا رئيسه ،والا موظف آخر سجل أمام اسمه تغيبه عن العمل دون أسباب ٠٠ لكن انقضى يومان آخران ٠٠ دون أن يعـــود ٠٠ وسرى الاهتمام بغيابه بين الجميع حين استفسرت عنه زوجته ٠٠ ولم تجد خلال الدهشـة المطبوعة على الوجوه من يعرف شــيئا عنـــه ٠٠ وعن سر تغيبه ٠٠ وانطلقت المرأة تولول ، وتندب حظها ، وتسدد للمجهـول قبضـــات متشنجة ترافق احتجاجها الصارخ الباكى ، وراحت تضم الى صدرها أطفالا لا يفقهون تماما سر

أمهم النادية ! « أنا قلبى كان حاسس» وخرجت ترددها وتضيف « ٠٠ وفضل يبوس فى الأولاد ٠٠ ما اعرفش ليه !»

فى صباح اليوم ٠٠ الثالث منذ اختفائه ـ التقيت بزملائى فى المكتب ٠٠ صامتين على غير العادة ٠ هممت أن أضرب الجرس مؤملا أن عم عبد الحكيم قد عاد ٠٠ لا بد أنه عاد ٠٠ كنت آمل عودته ٠٠ وبى رغبة أن أستقبل يومى بتحيته ودعواته الطيبة !

٠٠ لوح أحدهم بيده وهمس : لا داعى ٠٠٠

مات الرجل ٠٠ كان يجتاز شارع الجلاء فى طريق عودته من المبنى الآخر ٠٠ صدمه المترو ٠٠٠ ولم يجدوا فى جيبه ما يثبت شخصيته ٠٠ ولم يعرف أنه هو طوال هذه الأيام الا ليلة أمس بعدما طال التحرى ٠٠ وكان قد دفن فى مقابر الصدقات !

لفنى الصمت فجأة ، وتسمرت فى جلستى ، ووضعت يدى على خدى أحدق عبر النافذة ، وأتأمل صفحة السماء ٠٠ تنهدت تنهيدة طويلة ، وما زلت مسمرا فى مكانى ٠٠ وحولى زملائى يخوضون فى سيرته ٠٠٠ يعيدون ظروف الحادث ٠٠ يترحمون عليه ٠٠ يتذكرون أولاده! وبقيت وحدى صامتا !

وخلال صمتى لمحت وجه « جمعة » يطل علينا من الباب ، وما زلت ساهما أحدق فى صفحة السماء ، ولم أكن أدرى ماذا أريد منها !



بحث

قلعة الأبطال

بين قصص الكفاح

محمد جبريل

« قلعة الأبطال » رواية لعبد الحميد جوده السحار تدور أحداثها فى تلك الفترة الحاسمة من تاريخنا القومى ‥ أعنى بها سنوات حبلى بالظلم والسخط الشعبى ، منذ أواخر عهد الخديو اسماعيل ، ونفيه ، واعتلاء توفيق للعرش ‥ الى قيام الثورة العرابية ، وبداية عهد الاحتلال .

لجأ الفنان الى خلق حكاية حب ساذجة ، لتكون قواما لروايته : فثمة شابان ، هما حامد ويوسف ، أحب كل منهما سعدية ابنة عمة حامد اليتيمة ، ويخطب يوسف سعدية من جدها الشيخ ، فيجد فيه حامد غريما يكن له بالغ العداء ‥ وتنشب الثورة العرابية ويهدد الاسطول البريطانى البلاد ، فيلتقى يوسف وحامد فى طابية صالح ، دفاعا عن الوطن ، وتنهال القذائف على الطابية الصغيرة ، ويصاب ذراع يوسف ، فيهرع اليه حامد ، يخلع عنه قميصه ، ويضمد له جرحه ‥ ثم تصيب شظية حامد فى صدره ، وتطيح أخرى بساعده ، فيشترك حامد ويوسف فى حشو مدفع الطابية بالقنابل ، يناولها أحدهما للآخر ، فيطلقها فى وجوه الأعداء ‥ « وأحس حامد وهنا يدب فى أوصاله فنادى فى صوت ضعيف :

ـ يوسف ‥ يوسف ‥

فزحف يوسف اليه ، حتى اذا حاذاه ، رنا الى وجهه فألفاه ذابلا ، يلتقط أنفاسه فى جهد ، والدم ينزف من صدره ، فمد يده السليمة ، ووضع كفه على الجرح ، فلم يلتفت حامد الى ما فعل ، وقال فى صوت واه :

ـ اذهب اليهم ، اصبحوا فى حاجة الى رجل يرعاهم ‥ قل لجدى اننى مت وانا قرير العين ‥ وبلغ سعدية سلامى ‥

وأسبل حامد عينيه فى وهن ، ثم فتحهما فى جهد ، وهمس :

ـ اذهب ‥ ماذا تنتظر ؟ ‥

وصمت حامد ، وطال صمته ، فهتف يوسف في لوعة :

ـ حامد ‥ حامد ‥

وظل حامد صامتا ، فقد أطبق شفتيه الى الأبد ، واستمر يوسف يرنو اليه باسر الوجه يصرف أنيابه فى حنق ، ثم راح يزحف ، حتى اذا ما غادر القلعة ، كان الظلام قد ران على الكون ، وبلغ كل شىء فى جوفه » .

لقد زاوج الفنان بين الواقع الفنى ، والواقع التاريخى ، فى ديناميكية متطورة .. حركتها الأولى فى عهد الخديو اسماعيل ، الذى شل اقتصاديات البلاد ببذخه واسرافه .. وينفى الخديو اسماعيل خارج مصر ، ويعين توفيق بدلا منه ، ويأمل الشعب فى الخديو الجديد خيرا .. ولكن الظنون ما تلبث أن تخيب ، فيظهر عرابى ويتقدم الى الخديو بمطالب الشعب ، وتحاك المؤامرات من قناصل الدول الأجنبية حتى تبلغ الأحداث ذروتها باقتحام الاسطول البريطانى للموانى المصرية ، بداية لاثنتين وسبعين عاما من الاحتلال .

لعل صور يعقوب صنوع فى « أبى نضارة » ــ وأعدها ارهاصا للقصة المصرية ــ خير ما كتب عن العهد الاسماعيلى . انها تنادى عن التعبير المباشر ، بعكس « قلعة الأبطال » مثلا ــ (١٩٥٣م) التى يلجأ فيها الفنان الى تصوير عهد اسماعيل بتقريرية مباشرة ، تقلل من أثر العمل الأدبى ــ لا أقول فنية العمل الأدبى ــ « .. كان اسماعيل يبنى القصور ، ويقيم الحفلات للملوك والملكات ، ويدعو كبار الفنانين والفنانات ، وينثر المال ذات اليمين وذات الشمال ، ليبهر الغرب ببذخه وكرمه ، ويزهو لحظات فى خيلاء حتى اذا ما ابتلعت مباذله الاموال ، واختفت فى جيوب من التف حوله من الأفاكين ، والساقطات ، وذابت ثروة البلاد ، نسى كبرياءه ، ومد يده يستجدى الدائنين ، ليشبع فى نفسه شهوة الانفاق » .

اما يعقوب صنوع ، فانه يرسم لوحات بالغة الدلالة ، تهب النفس متعة ، ومذاقا مؤثرا . يقول على لسان اسماعيل ، قبل خلعه عن العرش : « راحت عليك يابو السباع آه .. الله يلعن اليوم اللى توليت فيه شيخ حارة .. ده كان يوم نحس .. وانا كان مالى ومال الشبكة دى اللى زى الطين .. المكتوب على الجبين تراه العيون .. تعمل ايه فى طمع الدنيــا .. أدينى أصبحت أشقى مخـلوقات الله .. والخوف قاتلنى .. مائتين عسكرى ومدفعين حول سرايتى وبرضه مرعوب .. وكل ما اسمع حد قابل على اتفزع ، وقلبى يطب ، واقول فى نفسى .. اهم ضباط الجهادية ، وتلامذة المدارس ، وأولاد البلد والفــلاحين .. جايين ينتقموا منى .. ويقبضوا روحى .. وياخدوا مفاتيح السهاريج .. وينهبوا الاموال اللى لميتهم بغاية التعب والمشقة .. آه .. انا سامع تشخير الاغوات يابختهم دول مبسوطين .. ولا هم عارفين الدنيا بتعمل ايه .. والناس اللى ماتفهمش الصورة ايه تقول عليهم .. دول مساكين لكونهم محرومين من لذات الدنيا.. آه يا مغفلين والله ما حد محروم غيرى انا .. لكونى ما بستلذ لا بالاكل ولا بالشرب .. من خوفى ان خدامينى يسمونى الخ .. » .

نبض هذه الكلمات (١٨٧٧ م) روح فن قصصى تشوبه سذاجة وفطرة ، ولكنها بعد ارهاص لنوع من الادب ، يخالف المقامة ، وحواديت ألف ليلة وليلة .

ولكن عبد الحميد السحار يوفق فى الربط بين ترحيب الشعب بعهد الخديو توفيق أملا منه فى أن يكون خيرا من عهد والده المنفى ، ثم تمنيهم زوال حكمه ، فى سؤال يوجهه توفيق الى عائشة الكوديا ، غداة توليه منصبه :

ــ **ماذا يقول الناس عنى ؟ :**

وتجيبه عائشة الكوديا :

ــ **الناس مستبشرون بكم .. لا يذكرونكم الا بكل خير .. عقدوا عليكم كل آمالهم .**

ويبدأ توفيق عهده ، باظهار ميله الى اصدار دستور للبلاد ، ويقــول لرئيس النظار شريف باشا :

ــ ان العناية الالهية سلمت زمام الحكومة الى يدنا فضلا منه واحسانا ، ولعلمى ان الحكومة الخديوية يلزم أن تكون شورية ، ونظارها مسئولين ، فانى اتخذت هذه القاعدة للحكومة مسكنا لا أتحول عنه ، فعلينا تأييد شورى النواب ، وتوسيع قوانينها ، لكى يكون لها الاقتدار فى تنقيح القوانين ، وتصحيح الموازين .

ثم ينكث توفيق بكل وعوده ، ويتخذ سياسة غريبة لضرب القوى الوطنية بعضها ببعض ، فيصل سخط الشعب الى مداه .. ويسأل توفيق عائشة الكوديا :

ــ ماذا يقول الناس عنى ؟ ..

ويذعر للجواب :

ــ **يقول الناس انك قد خيبت آمالهم فيك ..**

ــ **لماذا ؟ ..**

ــ لماذا ؟ ..

ـ وعدتهم انك ستشركهم فى حكم بلادهم ، ثم عدت وتنكرت لوعدك ، وقربت منك بطانة أبيك ، مع انك تعلم انها بطانة سوء ، واستعنت برجال حاشيتك على حبك دسائسك » •

وكان توفيق قد أصم أذنيه عن سماع أى كلمة حق ٠٠ حتى انه ينفى عائشة الكوديا الى خارج البلاد • ىلإي لقثيهمنطاـفه٠٠

وبينما موكب الخديو اسماعيل ينطلق كعادته كل يوم على جسر قصر النيل ، يقف بنا الفنان عند رجلين أحدهما فى الثالثة والثلاثين « يلبس عمامة بيضاء وقفطانا ، رفيع القامة ، أسمر اللون ، والآخر فى الاربعين ، بجبة وسراويلات سوداء تنطبق على الكاحلين ، وعمامة بيضاء صغيرة على زى علماء الاستانة ، وسحنته تدل على انه ليس مصريا • كان عالما حكيما ، راح يجوب الشرق ينفخ فيه من روحه ، لينفض عنه غبار الخنوع والاستسلام • التفت الى تلميذه ، وقال :

ـ لا بد من خلع هذا الطاغية ، بل لا بد من قتله واراحة المصريين منه •

فقال تلميذه :

ـ هذا هو الراى ٠٠ ولكن من يقتله ؟

ـ انت ٠٠

وانطلق السيد جمال الدين الافغانى والشيخ محمد عبده يتناجيان ، ويفكران فى تخليص الناس من ذلك الذى يجر البلاد الى هاوية الدمار • وكان ذلك هو أول ظهور الرجلين فى « قلعة الأبطال » •

ولعل « قلعة الأبطال » هى أول رواية تعرض للثورة العرابية وأحداثها • وقد لجأ الفنان الى خلق حكاية حب ، لتكون قواما لروايته ، ثم فصل ثوبها التاريخى من مصادر عدة •

الرواية اذن تجربة غيور معاشة بالنسبة لكاتبها ، بعكس « عذراء دنشواى » ـ مثلا ـ التى وضعها محمود طاهر حقى ، كتأثر حاد بالمأساة الرهيبة التى أتيح لأبناء جيله أن يعاصروها • كانت « عذراء دنشواى » تعبير عن المأساة الدامية التى عاشتها القرية المسكينة ، والتى كانت ارهاصا لثورة ١٩١٩ ، بينما « قلعة الابطال » ـ فى واقعها ـ تعبير عن تأثر الفنان بثورة الثالث والعشرين من يوليه عام ١٩٥٢ • وأكاد أتصور عبد الحميد السحار ، اثر نشوب الثورة ، يفتش عن مضمون يصلح قواما لرواية جديدة يواكب بها المسار الثورى ، فلا يجد الا ثورة الجيش من أجل الشعب فى عام ١٨٨١ صورة تتفق فى معظم ملامحها ، وان اختلفت بعض التفاصيل ، مع ثورة الجيش من أجل الشعب فى عام ١٩٥٢ • ومن هنا تبدت صورة عرابى فى « قلعة الابطال » كانه اله اغريقى لا تجد النقائص سبيلها الى طبائعه أو تصرفاته •

ماذا أقول ؟ ٠٠ هل كانت تلك الصفات التى اتسم بها عرابى فى « قلعة الابطال » ثوبا فضفاضا على جسد هزيل ؟ ٠٠ الجواب ـ فى رأيى ـ فى كتاب « بلنت » عن الثورة العرابية ٠٠ « ويجب أن نذكر انه فى تاريخ مصر لم يبرز قبل عرابى فى مدى ثلاثة قرون على الأقل ، فلاح بسيط الى حد أن يصبح داعية اصلاح ، أو الى أن يهمس بكلمة تدعو حقا الى الثورة ٠٠ وأخذ الناس فى الاقاليم يذكرونه بقولهم «الوحيد» ولقد استحق هذه التسمية حقا•

« قلعة الابطال » اذن ـ فى دوافع كتابتها وتوقيتها ـ ذات مناخ يناقض تماما كل المناخات التى صدرت فيها أعمال أدبية وتاريخية ، تعرض لتلك الفترة الهامة من تاريخنا القومى • ومن هنا جاء اختلافها ـ قالبا ومحتوى ـ بصورة حادة عن تناول الرافعى ـ مثلا ـ لحياة عرابى العظيم • نبض « قلعة الابطال »

حماسة واعجاب ، وتجاوز عن الاخطاء ٠٠ بينما « الزعيم أحمد عرابى » للرافعى ، محاولة للتقييم الجاد المخلص ، يصعب تكاملها أمام ضغط الظروف السياسية والاجتماعية • وكان لطبيعة الفترتين ـ قبل الثورة وبعدها ـ تأثير حتمى فى اختلاف نظرة الفنان والمؤرخ • ثمة اتفاق بين المؤرخ والفنان على أن الحركةالعرابية ليست انحرافا عن الطريق الوطنى الذى عرفته فى عهد اسماعيل ـ وأعنى به اليقظة الشعبية الهائلة التى جعلت من الشعب قوة لها تأثيرها ـ وانما هى توسع نطاقه • ولكن الرافعى لا يجد حرجا فى أن يصف عرابى بأنه « أصبح دكتاتورا محضا » ، بل انه يضع تحليلا لشخصية عرابى يرى فيه أن عرابى « ٠٠كان بلا نزاع ذا شخصية قوية جذابة تؤثر فى الافراد والجماعات ، فله من هذه الناحية أخص صفات الزعماء ،

ولولا هذه الموهبة لما استطاع أن يجتذب اليه محبة ضباط الجيش وجمهرة الأمة وينال ثقتهم ويملي أرادته عليهم • وكانت له أيضا موهبة الكلام والخطابة والصوت الجهوري وهذه أيضا من مزايا الزعماء التى تحببهم الى نفوس الجماهير •• وقد كان لخطبه تأثير السحر فى نفوس سامعيه ، وكان بلا مراء يريد الخير لبلاده ، ويريد لها الحرية والاستقلال ، وعلى هذا الاساس قامت دعوته » • ثم يضيف الرافعي : «••على انه الى جانب ذلك لم يكن على حظ كبير من الكفاية السياسية وبعد النظر •• ومن هنا جاء شططه فى كثير من المواطن ، وعدم تقديره للامور وملابساتها • وعرابى معذور فى ذلك لانه لم ينل حظا كبيرا من الثقافة والالمام بشئون السياسة وأطوارها •• فهو لا يعدو أن يكون ضابطا من تحت السـلاح ، لم يتخرج فى المدارس الحربية ولا المدنية ، ولم يعلم نفسه بنفسه تعليما ناضجا ، ولم يكن له من العبقرية ما يغنيه عن الدرس والتحصيل •• ان الفرق كبير بين عرابى وبين كافور - مثلا - فى ايطاليا - أو وشنطن فى أمريكا ، أو كوشيسكو فى بولونيا ، أو كوشوت فى المجر •• ولو وفقت الثورة العرابية الى زعيم مثـل كافور لسارت فى سبيل الفوز ، ولعرف كيف يدير دفة السفينة بمهارة وكفاية » •

اما عبد الحميد السحار ، فانه يقدم لنا شخصية عرابى فى صورة اسطورية هى اقرب الى صـورة البطل الاغريقى « هرقل » الذى يقتحم كل العقبات فى جسارة واقدام •• » ذاع اسم عرابى بين الناس ، وراح الشعب يتحدث عن الفلاح الذى تحدى الحكومة فى اعجاب واقبل على كثير من الاعيان والمشايخ على الاتصال به ، فكان يحدثهم فى تواضع جم ، فيجذبهم اليه بابتسامته العذبة ، ورقته الأصيلة ، وبيـانه المتدفق الذى كانت قلوبهم تتفتح له •

أدرك الشعب أن عرابى واحد منهم ، فتركزت فيه كل آمالهم • وكان أول فلاح منذ قرون يصعد الى ذروة الشهرة السياسية ، ويثور فى وجه الظلم الذى ران على البلاد ، فخفقت له الأفئـدة ، وهرع اليه المظلومون يبثون آلامهم ، فهطلت عليه من أنحاء البلاد العرائض المفعمة بالشكوى والآمال فى العدل والنصفة والاحسان ••

واحس الجنود الاول مرة زهوا بانفسهم ، فقد صاروا محط رعاية الاهل والصحاب ، كلما عادوا الى قراهم فى اجازاتهم • كان الفلاحون يلتفون حولهم ، يسائلونهم فى لهفة عما فعله عرابى ، فيقصون عليهم انباءه ، فتنبثق الامانى فى صدورهم ، فقد وجدوا فيه النبراس الهادى الى طريق **الخلاص** •

وثمة مبررات لقيام الثورة العرابية اوردها الفنان فى ثنايا روايته •• فقد اقترض الخديو اسماعيل من الدول الاجنبية ١٢٦ مليون جنيه ، فى الوقت الذى لم تكن ميزانية مصر كلها تزيد على سبعة ملايين ونصف من الجنيهات •• ويتضح تأثير ذلك كله على حياة الشعب ، وبخاصة فئاته الكادحة ، عندما ينظر الشيخ ابراهيم الى أرضه التى تعهدها بجهده ، فيؤلمه أنها يابسة مجدبة » ومن أين له أن يرويها ، اذا كان الاجانب قد تحكموا حتى فى الماء » • كان جبى الضرائب يتم بطريقة تناقض أبسط قواعـد الخلق والانسانية ، فثمة جابى الضرائب وشيخ البلد وبعض الخفراء •• ويتوقف الركب أمام بيوت القرية واحدا بعد آخر •• ويقول الجابى للشيخ ابراهيم - مثلا - : **اما ان تدفع المال الآن ، او ترهن له ارضك ليؤدى المال عنك !** » •• والتفت الى اليونانى القصير ، المنتفخ الكرش ، فاذا ببريق الجشع يشع من عينيه ، وقال الشيخ ابراهيم فى صوت خافت :

- ليس عندى ما ادفعه الآن •• امهلونى شهرا ••

فقال الجابى فى سخرية :

- لو أمهلناكم جميعا لخربت البلاد ، اما أن تدفع أو تتركه يؤدى دين الحكومة **عنك** •

فقال الشيخ فى حدة :

- لن أرهن ارضى ابدا ، ما دام فى نفس يتردد •

فقال الجابى ، وقد لوى شفته السفلى هزءا :

- سنرى ••

والتفت الى شيخ البلد والخفراء ، وقال لهم : اجلدوه !••

وقال للشيخ ابراهيم معتذرا :

- ما كنت أحب أن يجلد شيخ كبير مثلك ، ولكنك عنيد •

وكانت الجنسية المصرية فى الجيش الوطنى دليل زراية واحتقار · يقول عمار فى مرارة : « اذا أردت أن تكون شيئا مذكورا فى الجيش المصرى ، فلا ترتكب أى حماقة وتولد من أبوين مصريين ، بل عليك أن تختار أبويك من الامريكان أو الفرنسيين أو من السادة الأتراك انها وصمة عار أن تكون مصريا فى جيش مصر ، فالويل للفلاح » ·

ويتلقى أحمد عرابى من عثمان رفقى ناظر الجهادية ، أمرا بحفر الترعة التوفيقية ·· ويرفض عرابى، اشفاقا على جنوده من أن يعملوا كسخرة ، حتى فى أراضى الخديو ·· ثم يشرع عثمان رفقى فى سن قانون يمنع ترقى المصريين العاملين فى الالايات تحت السلاح · بل ان الضباط الجراكسة بدأوا فى عقد اجتماعات دورية فى منزل الفريق خسرو باشا ، للتناقش فى وجوب عودة دولة المماليك !· ثم بلغت الأحداث ذروتها بصدور الأمر العالى ، بتقديم عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى الى المحاكمة · ويحاول الخديو بوسيلة غادرة القبض على عرابى ورفيقيه ، ولكن الضباط والجنود المصريين يحبطون المحاولة فى مهدها ، وتشير كل الدلائل الى العاصفة المرتقبة ·

***

كانت مذبحة الاسكندرية هى بداية العاصفة » ·· ولم يقنط الخديو ، وراح يفكر فى دسيسة اخرى· أنه وزير الداخلية ، ومحافظ الاسكندرية عمر لطفى يتلقى الأوامر منه ·· فلماذا لا يستغل هذا الجركسى الطامع فى الوزارة ، فى تنفيذ مآربه ؟·· فاذا كان قد عجز عن اثارة القلاقل فى القاهرة ، فليجرب اثارتها فى الاسكندرية · وأرسل الى عمر لطفى برقية رمزية : « ضمن عرابى الأمن العام ، وأعلن عن ذلك فى الصحف ، وجعل نفسه مسئولا أمام القناصل ، فاذا نجح فى حفظ الامن فلا بد أن تضع الدول ، ثقتهـا فيه ، وعندها يضيع مالنا من اعتبار ·· أضف الى ذلك أن أساطيل الدول فى ميناء الاسكندرية ، والخواطر متهيجة ، فعليك الآن أن تختار لنفسك : اما أن تخدم عرابى فى ضمانه للامن ، واما أن تخدمنا » · واختار عمر لطفى لنفسه أن يخدم الخديو ففى خدمته لمصالحه ، وان جسرت على البلاد الذل والهوان · وراحت جريدة المحروسة ـ وهى لسان عمر لطفى ـ المعبرة عن آرائه · تنشر على الملأ أن الاوروبيين فى الاسكندرية يقومون باستعدادات حربية ، فتبلبلت الأفكار ، وساد الاسكندرية توتر وقلق ، وأخذ مندوبو عمر لطفى يوزعون النبابيت على الرعاع سرا ، ويوهمونهم أنهم ما يفعلون ذلك الا لمحبتهم لهم ، فهم يسلحونهم ، حتى اذا ما اعتدى عليهم الاجانب كانوا على قدم الاستعداد !· وعمل المستر كوكسن ، قنصـل انجلترا فى الاسكندرية على اثارة الخواطر ، فجمع قناصل الدول ، وقال لهم : ان المصريين فى هياج شديد من وجود الاساطيل الحربية فى الثغر ، واخشى من هجوم الرعاع على الاوروبيين ، وأخذهم على غرة ، وأن الحزم يقضى علينا بالمداولة فيما يجب اتخاذه من التدابير لحفظ أموالنا وأرواحنا · وقرروا باجماع الرأى أن يتسلحوا ، كأنما كانت مصر هى التى أرسلت اليهم أساطيلها لتهدد سلامتهم ، وأخذ الاسطول البريطانى يسرب البنادق والمسدسات الى الانجليز والمالطيين · وجاء يوم الأحد ، واجتمع أوشاب الاجانب وأوشاب الوطنيين فى الحانات ودور اللهو ، وانطلق أحد المالطيين لزيارة أخيه ، وكان فى خدمة المستر كوكسن ، فلما انتهت الزيارة منحه كوكسن جنيها ، فخرج المالطى ، وركب عربة راح يدور بها على الحانات فى الحى الاوروبى ·· ووصل أخيرا الى قهوة الجزار فى شارع الاخوات ، وأراد أن يصرف الساقى ، فوضع فى يده قرشا واحدا ، فثار السائق وصاح به يناقشه ، وتطورت المناقشة الى شجار ، فأطبق الحوذى على رقبـة الرجل ، فما كان من المالطى الا أن طعنه بسكين ، وجاء رجل ينصر المظلوم ، فهب يونانى وقتله··واندفعت الشرارة التى تعاون الخديو والانجليز على قدحها · وخف الناس الى المكان ، فاذا برصاصة تطلق من منزل مالطى ، واذا بالمستر كوكسن يخرج من نفس المنزل ، فثار الناس واعتدوا عليه ، فقد حزروا أنه مشعل نار الفتنة ، والمحرض على اطلاق النار عليهم ·· وخف الى المعركة البرابرة والاعراب مدججين بالعصى ، التى وزعها أعوان المحافظ عليهم ، وجاء عمر لطفى ليزكى نار الثورة ، فدنا من عرابى وأشار الى أحد الاوروبيين المطلين من النوافذ ، وفى أيديهم مسدساتهم وقال له : **هل أطلق النار على هذا الرجل يا باشا ؟**· فقال عمر لطفى : **نعم ، اضربه** · وأطلق الاعرابى رصاصة فأردى الرجل قتيلا · وراح أحد خدم المستر كوكسن يطوف على الاوروبيين ، ويحرضهم على التقدم والمثابرة على القتال ، وأراد عمر لطفى أن يزيد النار اندلاعا، فأمر بعض أعوانه أن يعرضوا القتلى على الجماهير ، ليؤجج نار الثورة فى الصدور ، فتنتشر الفتنة وتتداح حتى تغمر المدينة كلها · وأراد عمر لطفى أن تتم حلقات تدبيره ، فانطلق الى تليفون قريب ، واتصـل

بالقناصل وطلب منهم الذهاب الى قسم اللبان ٠٠ وخف القناصل الى المكان ، فلما رآهم النـاس ثاروا عليهم ، حسبوهم ما جاءوا الا لشد أزر المعتدين ، فهجموا عليهم حانقين يسددون اليهم الضربات وانسل عمر لطفى بعيدا بعد أن أشعل نار الفتن ، ورآه رجل يعرفه بالقرب من زيزينيا ، فقال له فى دهش :كيف تكون هنا والمذابح على خطوات منك ؟٠ فقال عمر لطفى فى استخفاف : لست بقائد ، وهذا لا يعنينى ٠ فقال الرجل : لم لم تحضر بلباسك الرسمى على حصانك ، شاهرا سيفك فى خمسين من عساكر المحافظة ، وبذلك كان الأمر ينتهى ؟ ٠ فقال عمر لطفى فى غلظة : **انصرف ليس هذا من شانك ، وهل أنت محـافظ البلد ؟** ٠ وأسرع عمر لطفى يتصل بالخديو ، فأرسل اليه برقية يخبره فيها ان الأمر أضحى خطيرا ، وان **من الجنرال سيمور ، ولا تطلب جنودا مصرية** ٠ ولم يستطع أحد الاميرالايات بالاسكندرية أن يبرق لعرابى بما يحدث فى المدينة ، فقد كان التلغراف مشغولا بالبرقيات المتبادلة بين عمر لطفى والخديو ٠٠ وهرع النهب يجرى فى المدينة ، وان زمام الأمور أفلت من يده ٠٠ فأبرق اليه الخديو : **أطلب المعونة العسكرية** عمر لطفى الى الاميرال سيمور ، قائد الاسطول البريطانى ، يلتمس منه العون ، ولم يطلب معاونة السلطات المصرية ، على الرغم من أن معسكر الجنود النظاميين كان على مقربة من الحادث ٠ كان كل همه أن يقيم الحجة أمام القناصل ان عرابى عجز عن حفظ الامن ، حتى يتمكن الخديو من عزله ٠ ورفض الاميرال سيمور التدخل ، فقد كان ينتظر حتى تندلع نار الثورة ، وتعم الفوضى ، فيجد فى ذلك مبررا قويا لضرب المدينة ٠٠ وأبرق عمر لطفى الى الخديو : الاميرال غير موافق خشية أن يحدث شىء آخر من الجنود فى المدينة ، مما يكون من الصعب تلافيه ٠٠٠ وأرسل عمر لطفى الى الاميرالاى سليمان سامى رسالة شفوية يطلب منه فيها أن يحضر هو وفرقته الى المدينة بدون سلاح ، فخف الاميرالاى الى حيث استدعى ، فلما رأى الثـورة الهوجاء ، ثار فى وجه عمر لطفى وقال له : أنت خائن لوطنك ولدينك ٠ وحقد عمر لطفى عليه ٠ وأبى سليمان سامى أن يطيع أوامره ٠٠ وبلغ خبر الفتنة اسماعيل باشا كامل قائد الالايات بالاسكندرية ، فأسرع بالارسال الالاى الخامس والسادس الى ساحة المنشية ، وانطلق على رأس قواته ٠ وعنـد غروب الشمس نامت الفتنة » ٠

وثمة تأييد تاريخى لأحداث ذلك اليوم كما رواها الفنان ، فى رواية المؤرخ رونستين ٠٠ ابتدأت الفتنة حوالى الساعة الاولى بعد الظهر ، واستمرت الى حوالى الساعة الخامسة ٠٠ حدث ذلك كله ، ورجال البوليس كانوا لا يفعلون شيئا تارة ، وتارة يشتركون فى الفتك والتدمير ٠ أما عمر لطفى محافظ المدنية فكان فى أثناء ذلك كله قد استحوذ على محل التلغراف ليكون على اتصال بالخديو ، ولم يخبر سـليمان سامى قائد الحامية بشىء عن الفتنة الا بعد مضى الساعة الرابعة ، وحتى فى هذه الساعة أمره بان يقود الجنود عزلا من السلاح ٠

وكتب محمد عبده فى مذكرات منفاه : « **٠٠ ان أكثر من قبض عليهم بعد الحادث بيوم كانوا يقولون لا لوم علينا ، فان سعادة المحافظ نفسه هو الذى كان يأمرنا أن نضرب ، وأن نسرق** » ٠

ولكن رواية الرافعى لاحداث ذلك اليوم ، تناقض تماما روايات السحار ورنستين والامام ففى كتابه « الزعيم أحمد عرابى » يقول : « ٠٠ وكان عمر لطفى باشا محافظ المدينة ، حين بدأت الحادثة يتولى رياسة قومسيون تحقيق الجمرك بدار المحافظة ، فابلغه أحد موظفى الضبطية نبأ الشجار الذى وقع بين الوطنى والمالطى ٠ وكان ذلك فى نحو الساعة الثالثة بعـد الظهر ، فأوفد حسين بك فهمى وكيل المحافظة الى مكان الواقعة لفض الخلاف ، ثم جاء بعد ربع ساعة نبأ باستفحال الفتنة وتجسمها ، وان السيد بك قنديل مامور الضبطية مريض فى منزله ٠٠ فذهب بنفسه الى جبهة الواقعـة بشارع السبع بنـات ٠٠ وهناك أدرك خطورة الفتنة ،ورأى ازدحام الشوارع بالمتجمهرين ، فطلب من اسماعيل باشا كامل ، قومندان الجنود بالاسكندرية ارسال المدد من الجنود لوقف الهياج ٠٠ فتباطأ الأميرالاى مصطفى عبد الرحيم بك قائد الآلاى الخامس الذى كان مرابطا برأس التين ، والقائمقام سليمان سامى قائد الآلاى السادس الذى كان بباب شرقى ، فى ارسال الجند ، ولم يحضروا الا فى الساعة الخامسة مساء ، قبل المغرب بساعة وحين جاء الجند فرقوا المتجمهرين بغير صعوبة ، وانتهت الفتنة فى مغرب الشمس ، فساد المدينة سـكون رهيب » ٠

ونسأل : هل بدأ الجيش ثورته ـ كما يقول الدكتور عبد العزيز رفاعى ـ دفاعا عن مصالحه الخاصة ، ثم انتهى بها بالدفاع عن المصالح المصرية ؟ الثورة فى رأى الدكتور رفاعى لم تقم الا بدافع الشعور بالظلم من تفضيل الأتراك والشراكسة على المصريين ، وتسخير للجنود المصريين ، ومنع مرتباتهم وترقياتهم · أما الوعى السياسى فلم يكن هناك من الدلائل ما يشى به ، الا ما تضمنته عريضة الضباط الى رياض من ضرورة عزل عثمان رفقى ·· ولكن عرابى فى « قلعة الابطال » يكتب العريضة الى رياض ، وضمنها أكثر من مطلب: عزل ناظر الجهادية ، وتاليف مجلس نواب ، وزيادة أفراد الجيش الى ١١ ألفا الخ ··

ويحسم الرافعى الامر كله ·· **انها ليست ثورة عسكرية فحسب ، بل هى أيضا ثورة قومية ، اشتركت فيها طبقات الامة كافة ، واذا أردنا ان نستقصى أسبابها وجدناها على نوعين : أسباب خاصة ، أو مباشرة ، وهى المرتبطة بطبقة الضباط والجند وموقفهم من الحكومة وموقف الحكومة منهم ·**

والواقع ان المطالب التى أعلن الجيش عنها . بضرورة مساواة الضباط المصريين بزملائهم من الشراكسة والأتراك ، لا يمكن اطلاق صفة الثورة ـ وهو التعبير الذى استخدمه الدكتور رفاعى ـ عليها ·· لأن الثورة شمول ، بدليل قيام ثورة الجيش فى ٢٣ يوليه ١٩٥٢ ، هادفة الى تحقيق مبادىء ستة ، فى مقدمتها : تطهير الجيش ، واقامة حياة ديمقراطية سليمة ·

لقد أضحت الثورة العرابية نبضا لبعض القصص الذى يعالج مشكلات قائمة · ففى قصة « خيال » مثلا ، لفاروق منيب ·· نجد المدرس الذى يتحدث عن الثورة العرابية كرد فعل سلبى لحياة قاسية ، طحنته فى رحاها ، طيلة خمسة عشر سنة ، اشتغل فيها بالتـــدريس ولكنه لا يتحدث عن العهـد الاسماعيلى على الاطلاق ·· ويقول له ناظر المدرسة :

ـ ما هذا التركيز على الثورة العرابية بالذات ؟ ··

ـ لأنها ثورتنا كلنا ···

ويقول له : ارجع الى عصر اسماعيل ··

ـ لا أستطيع الرجوع الى الفساد ·

ويتخلى الرجل ـ بتأثير مبادىء عرابى ـ عن الاستكانة والبلادة والخمول » ·· قال عرابى للخـــديو يا أولاد ·· لقد خلقنا الله أحرارا ولم يخلقنا ارثا وعقارا ·· فوالله الذى لا اله الا هو اننا سوف لا نورث ولا نستعبد بعد اليوم ·

يقول الشيخ ابراهيم : « كان ذلك منذ نصف قرن ، فقد صرت احسب الزمن بأنصاف القـرون ··

(٣) زائر الصباح ـ الكتاب الماسى ـ ص ١٩ ·

تمنيت يومها مثلك أن أجاور فى الأزهر ، فشددت الرجال الى القاهرة ، وذهبت الى حلقات الشيخ ، وكلى رغبة فى تلقى العلوم ، راح الشيوخ يلقون ما يعرفون وما لا يعرفون ·· حاولت أن أفهم ، ولكننى لم أفقه مما يقول شيئا ·· هذا يشرح الكفراوى على الاجرومية ، وذلك يشرح الزرقانى على العزية وثالث يسهب فى شرح الشيخ خالد على الاجرومية ·· فأحسست رأسى يدور ، وأعمدة الازهر تتراقص ، وخيل الى ان الشيوخ يتحدثون بلغة أخرى غير اللغة العربية » ·

ولكن الأفغانى ومحمد عبده يدعوان الى تحرير الفكر من قيد التقليد ، وأن الاسلام دين عام ، يناسب كافة الناس ، ويلائم جميع العصور والثقافات ·

ويذهب السحار الى أن حركة الاصلاح فى الازهر بدأت قبل عام ١٨٨٢ ·· ولكن أحمد شفيق باشا يقول فى مذكراته ، ان حركة الاصلاح الحديثة فى الازهر ترجع الى أواخر ١٨٩٤ ·· وذلك ان الشـيخ محمد عبده ـ لما رأى من عباس جرأته وجهاده للأخذ بناصية الحكم والحد من تدخل الانجليز ـ مال اليه ، وتقرب منه بواسطة محمد ماهر باشا ، فاستقبله عباس بترحاب وعطف ، وقال اليه لما آنسه فيه من صدق الوطنية وأصالة الرأى ، وتقابلا مرارا بصفة غير رسمية فى عابدين والقبة والمنتزة ، وتحدثا فيما يمكن عمله من خدمة الوطن وتحقيق أمانيه ، فاقترح الشيخ عليه ان هناك ثلاث نواح لا تزال بعيدة عن تدخـل الانجليز ، ولا يعارضون الخديو فى العمل لاصلاحها ، لأنها دينية محضة ، وهى الأزهر والأوقاف والمحاكم

الشرعية ٠٠ وأشار على سموه ، أن يبدأ باصلاح الأزهر ، واتفقا على أن يقدم الشيخ الى سموه مذكرة بما يراه من وجوه الاصلاح » ٠

ونحن نجد فى « حديث عيسى بن هشام » التى تصور حياة المجتمع المصرى فى بداية القرن الحالى ، نقدا لعلماء الدين لأنهم ـ مثلا ـ « **أبعد الناس عن اجتياز هذه الطريق ـ الصحافة ـ وممارسة هذه الصناعة، وهم يسرون الاشتغال بها بدعة من البدع ، ويعتبرونه فضولا تنهى عنه الشريعة ، وتداخلا فيما لا يعنى** » ٠

ويتساءل أحد المشايخ من رجال الازهر :

ـ **خبرونى ناشدتكم الله ٠٠ ما هو هذا العلم الذى يسمونه الجغرافيا ؟ ٠٠**

فيجيبه شيخ آخر :

ـ هذا هو الذى يقال له عندنا علم تخطيط البلدان ، ولو كان قاصرا عندهم على ذلك لما كان ضارا ولا نافعا ، ولكن ضرره عظيم ومغبته وخيمة ، بما امتزج فيه من نسبة الدوران للأرض والسكون للشمس وتعليل حوادث السماء بتلك العلل المبتدعة التى يكذبها العيان ، ولا يقوم عليها البرهان ، مثل زعمهم أن مطر السماء من جوف البحر ، وان السحاب أبخرة متكاثفة ، وان الرعد والبرق من احتكاك السحب بضغط الهواء ، مما ينافى العلل المعروفة المعقولة بيننا ، ويناقض ما رواه كعب الاحبار من ان السحاب من ورق الجنة وان الرعد صوت ملك يسوق السحاب ، وان البرق لمعان حربة بيده ٠٠ » ٠

لم يشهد الازهر اذن أى محاولة جادة لاصلاحه وتطويره ، الا فى الثلاثينات من هذا القرن ، وفى عهد الامام المراغى بخاصة ٠ ولعل ذلك التطـــور الذى أكده الفنان فى « **قلعة الأبطـــال** » مبعثه الحماسة والاعجاب بشخصية الامام محمد عبده ، وبكل سمة ثورية ٠

لقد دعا الامام ـ حقيقة ـ الى وجوب تحرير الأزهر من قيود التخلف ٠٠ ولكن دعوته لم تصادف ـ فى حياته ـ أذنا واعية ٠

ولكن الفنان يعرض ـ فى أمانة ـ لموقف الشيخ محمد عبده من الثورة العرابية ـ استنكارا وتأييدا ـ ففى اليوم الثالث من العيد ، مر الشيخ محمد عبده ببيت طلبة باشا ، فسمع جلبة ، ورأى بعضا من صغار الضباط يجولون من جانب الى آخر من البيت ، فدخل للزيارة ، فوجد عرابى وجمعا غفيرا من الضباط ، وأحد أساتذة المدرسة الحربية ، فجلس ، واستمر الحديث فى وجهته ، قال عرابى :

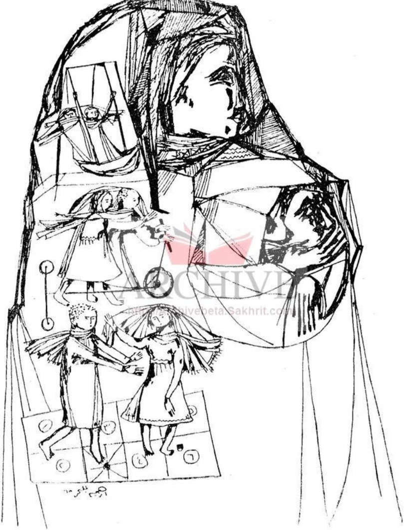
ـ **لابد من تقييد الحكومة بمجلس النواب ، وان لا سبيل للأمن على الأرواح والاموال الا بتحـــويل الحكومة الى مقيدة دستورية ، فقد آن الأوان للتخلص من الاستبداد** ٠

فقال الشيخ محمد عبده :

ـ علينا أن نهتم الآن بالتربية والتعليم بضع سنين ، وأن نحمل الحكومة على العدل بما نستطيع ، وأن نبدأ بترغيبها فى استشارة الاهالى فى بعض مجالس خاصة بالمديريات ، والمحافظات ٠٠ ويكون ذلك كله تمهيدا لما يراد من تقييد الحكومة ، وليس من اللائق أن نفاجىء البـلاد بأمر قبل أن نستعد له ، فيكون من قبيل تسليم المال للناشىء قبل بلوغ سن الرشد ، يفسد المال ويفضى الى التهلكة » ٠

وقامت الثورة بالفعل » ٠٠ **واصبح الشيخ محمد عبده من أتباع عرابى ، فهو يخطب فى كل حفل ، ليؤجج نار الثورة فى الصدور** » ٠

كتب عبد الله النديم ، يصف احدى المعارك بين القوات الثائرة ، وقوات الاحتـــلال ـ صورة فنية تضاف الى ارهاصات القصة المصرية ـ : « ٠٠ فما أتمت أفواه المدافع قولها حتى ملأت رجالنـــا حماسة وعزما ، وأرسلت الرصاص الحار على الأمة الباردة ، وجاوبتها مشاة العدو ببنادقها ، وتصورت ساحة القتال بشكل مريع ، وكنت كلما مررت على أورطة أحمسها وأشجعها لا أسمع منها الا صوت بنادقها ، ولا أرى الا سرعة حركتها ، وكلما وصلت مدفعا أرى أيدى رجاله كآلة ماكينة بخارية لا حد لسرعتها ، وكلما تحول العدو لنقطة تحولت عليه الرجال والمدافع ومع انه كان فى متاريس حصينة ، فان المدافع والقنابل أخرجته منها رغبة منه فى الفرار ، فقطعت عليهم المدافع خط الوصـــول الى المعسكر ، وحالت البنادق بينه وبين المتاريس ـ فلم يجد بدا من الثبات فثبت ، ولكن بقدر ما عدم نصف رجاله ، ووقف انتظـارا للمنون ٠٠ ثم دخل الليل وقد غضبت عساكرنا وزمجرت زمجرة الاسود ، فلا تسل عن هيئة الجو وصورة الميدان ولا تسل عن عساكرنا ، كأنهم العمد ثباتا والغزلان حركة ، وأعجب لوقوف الانجليز وقوف الحيرة والتنقل أمام هؤلاء الاسود ٠٠» ٠



ثم تافل شمس الثورة ··

اما عرابى ورفاقه ، فقد حكم عليهم بالنفى المؤبد وتجريدهم من جميع الرتب والألقاب وعلامات الشرف التى حصلوا عليها خلال حياتهم العسكرية ، ونفى محمد عبده ، وفر النديم · وأما الشعب المصرى ، فقد ران على حياته يأس كامل ، أسلمه اليه احتلال غادر ·



● **التجريب والتجريبيون :**

ما اكثر بطاقات التصنيف التى تستخدم هذه الأيام فى الفن والأدب بشكل عام وفى الرواية والقصة بشكل خاص • وليس ذلك لدينا فحسب ولكنه شائع متواتر الحديث على النطاق العالمى كله • فنحن نسمع أو نقرأ لمن يقول :

هذا كاتب تجريبى وتلك قصة تجريبية ، أو هذا كاتب طليعى ، وتلك قصة جديدة ، وهكذا الى آخر هذه القائمة التى تظهر ببعض أو كل مفرداتها بين الحين والحين •

لكن ما هو التجريب ومن هم التجريبيون فى هذا الفن المتعدد الالوان المسمى « فن القصة » ؟•

لعل أبسط اجابة للسؤال هى ان التجريب هو كل محاولة للخلق والابتكار ينتج عنها جديد يضاف الى الرصيد العام لهذا الفن أو ذاك • وطبيعى انه ليس من المحتم بشكل عام ان تنجح التجربة وينتج عنها اى جديد • فما أكثر التجارب التى فشلت فى مهدها ولم تأت بجديد نافع ، وما أكثر التجارب التى جرت على اصحابها المتاعب والخسائر ، وكذلك ما أكثر التجارب التى لقيت فى حينها العسف والاضطهاد ثم لحق بها الانصاف فى النهاية • فتاريخ الفن القصصى يذكر كتابا كثيرين ماتت شهرتهم بموتهم مثل يوجين سيو فى فرنسا أو اليساندرو مانزونى فى ايطاليا أو تشارلز كنجزلى فى انجلترا وثلاثتهم من كتاب القرن الماضى المعروفين الذين لا يعرفهم اليوم الا الراغبون فى الاستزادة والتعمق فى تاريخ الفن القصصى فى كل من الاقطار الثلاثة على حدة • كما يذكر التاريخ ان فلوبير حوكم على روايته « مدام بوفارى » التى حاول فيها ان يصور جانبا من حياة بطلته اعتبره الناس وقتها ماسا بالاخلاق• وقريب

من هذا ما حدث لرواية « اللادى تشاترلى » للورنس · بل ان مصطلح « قصة قصيرة » الشائع اليوم فى اللغة الانجليزية وبعض اللغات الاخرى التى نقلته عنها لم يكن قبل مائة سنة معروفا على الاطلاق ، وكانت القصة القصيرة كما نعرفها اليوم تسمى حكاية او نادرة بل مقالة ·

غير أن تاريخ الفن القصصى قد عرف مصطلح « التجريب » هذا بنصه قبل مائة سنة قبل ان يعرفه بمعناه العام الذى يتواتر اليوم ويشمل كل محاولة للتجديد والاضافة · فقبل ان ينتهى القرن الماضى ظهر فى فرنسا نفر من الكتاب تمرد على الواقعيين الاوائل امثال بلزاك الذى كان فى عرفهم « غير واقعى » بما فيه الكفاية · ومن ثمة اطلقوا على انفسهم اسم « الطبيعيين » وقام زعيمهم اميل زولا بتوضيح رسالة هذا المذهب ــ الطبيعى ، وكيف انه نتاج للثورة العلمية التى قادها دارون وكلود برنارد فى ذلك الوقت ودعا زولا الى نبذ الدقة المجردة فى نقل الحياة الى الفن مقابل ترك حرية الاختيار للكاتب بحيث يصل عن طريقها الى الفهم العلمى للواقع ·

وكانت الرواية لدى زولا أداة من ادوات المعرفة العلمية ، بمعنى ان يراقب الكاتب الناس من الداخل ، ويكشف ماضيهم وما هم عليه وما يمكن ان يكونوا عليه فى المستقبل ، ووسيلته الى ذلك هى « الرواية التجريبية » التى افاض زولا فى شرحها فى بيان مشهور بهذا الاسم جاء فيه :

« الرواية التجريبية هى نتاج التطور العلمى للفن ، فهى تواصل وتكمل عمل الفسيولوجيا التى تقوم بدورها على الكمياء والطب ، وهى تحل دراسة الانسان الطبيعى محل دراسة الانسان المجرد والميتافيزيقى ، ذلك الانسان الطبيعى الذى تحكمه القوانين الكيميائية والفيزيائية ، وتغيره تأثيرات البيئة المحيطة به · انها ــ بكلمة واحدة ــ ادب عصرنا العلمى ، مثلما ينتمى الادب الكلاسيكى والرومانسى الى عصر مدرسى ولاهوتى » ·

وكان المذهب الطبيعى فى جوهره اذن احتجاجا وثورة على كل المذاهب التى سبقته بما فيها المذهب الواقعى الذى أسيء فهمه كما يقول زولا · وكانت الرواية التجريبية هى السيف البتار الذى يكفل اعادة الفن القصصى الى صوابه وربطه بالمكتشفات العلمية للعصر غير ان زولا لم يحقق كل ما دعا اليه فى رواياته ، فلم تكن جميعها تجريبية بهذا المفهوم الذى قصده من اعتبار الانسان فأر تجارب مكانه الطبيعى فى الفن وهو المعمل ، ولكنها كانت فى معظمها نوعا من التاريخ الطبيعى لنماذج بشرية اختارها زولا بعناية ليطبق عليها فهمه الأخلاقى وموقفه السياسى · ومع ذلك بلغ من تأثيرها انها سرعان ما عبرت المحيطات وأثرت على كثيرين فى أوربا وامريكا ، رغم تفكك انصارها الفرنسيين ، وردتهم كموباسان وهيسمان وغيرهما ممن عادوا الى حظائرهم الاولى او انتقلوا الى مذاهب فردية فى الكتابة ·

ومما لا خلاف عليه ان القرن الماضى كان قرن الرواية ان صح هذا التعبير ،أو على الاقل كان عصرا ذهبيا للرواية والقصة الطويلة بشكل عام ، كما كان مهد القصة القصيرة كفن مستقل ففيه ظهر بلزاك وفلوبير وتورجنيف ودستيفسكى وتولستوى

وجوجول وديكنز وترولوب وجيينه ، وفيه ايضا ظهر موباسان وتشيكوف • ولئن ازدهرت الرومانسية والتناول الرومانسى للموضوعات والافكار فى روايات النصف الاول من ذلك القرن الا ان نصفه الثانى قد شهد ازدهار الواقعية كرد فعل لاغراق الرومانسيين فى المبالغة والتهويم والغربة والبحث عن المثالى والمحال وغير ذلك من خصائص ادبهم ولئن كان بلزاك وديكنز قد ظهرا أبان ازدهار الرومانسية الا انهما كانا واقعيين بصفة عامة رغم جريان الشريان الرومانسى فى اعمالهما • ولئن كان التشاؤم سمة لرومانسية النصف الاول من القرن الا ان التفاؤل ما لبث ان اصبح سمة لواقعية النصف الثانى • ومعنى ذلك كله أن التجريب لم ينقطع طوال القرن وان التجديد لازم الرواية على مدار السنوات المائة • لكن هذه التغيرات التى اشرنا اليها من رومانسية الى واقعية ومن تشاؤم الى تفاؤل لم تأت عبثا قدر ما جاءت لتكون تعبيرا عن العصر وان تفاوتت درجاته ، وانعكاسا للتحول الاجتماعى الذى شهدته اوربا بعد سقوط نظام الاقطاع تماما ونمو الرأسمالية وبالتالى تغير الذوق العام وما يستتبعه ذلك من ادوات واساليب فنية ، فكان من هذه الاساليب رفض التهويم والغربة والارتباط بالناس العاديين وقضاياهم واحلال التحليل محل الوصف والسرد المجردين والنفاذ الى افكار الانسان المخبوءة وتصوير حركات اللاشعور ومقاومة تدخل الكاتب بالتعليق على الاحداث والشخصيات كما هو حادث فى روايات النصف الاول من القرن •

ونخلص من هذا كله الى ان الرواية او القصة الطويلة قد تحدد لها فى القرن الماضى شكل خاص لا يزال الى اليوم نموذجا يحتذى بغض النظر عن الاسهاب الذى كان يلجأ اليه اصحابها ، وتلك كانت سمة اخرى من سمات الرواية فى القرن الماضى ، لكنها انقرضت فى القرن العشرين ، ولم تعد الرواية تشغل الفا او الفى صفحة كما هى الحال لدى تولستوى او دستويسكى او بلزاك بل ان شكل « الرواية القصيرة » هو الشائع اليوم بين مختلف كتاب العالم •

اما فى القرن العشرين فقد تطورت الرواية ولحقت بها عدة تجارب لا من قبيل الابتداع او الاختلاق ، ولكن من قبيل البناء والتجديد الجاد •، ولسنا هنا فى مجال حصر تطورات فن الرواية او منجزاته ولكن حسبنا ان نشير الى عدد من الظواهر التى ترتبت عليها هذه التطورات • فقد ظهر فرويد وثبتت تعاليم ماركس اقدامها وازداد نمو الاشتراكية وتم اكتشاف الذرة ، وبدأت محاولات الانسان للخروج من كوكبه الى كواكب اخرى ، ولم تعد هناك فواصل حادة تفصل بين الانسان فى شرق الكرة الارضية وغربها وانتشرت المفاهيم العامة مثل التقدم والتأخر والامة والسلام والاشتراكية والحرية والثورة وغير ذلك مما كان يدعو اليه فلاسفة القرن الماضى ومفكروه ، وبالتالى اصبح الكاتب او الروائى مطالبا ـ شاء أو لم يشأ ـ باتخاذ موقف من عصره ، والتسلح بوجهة نظر محددة والالتزام بالقضايا العامة ، أى ان رسالة الروائى لم تعد قاصرة على الامتاع المجرد قدر ما شملت دوره الفعال فى بناء الروح وتغذية الوجدان بالدعوة او التبشير وفى هذا القرن ظهر عدد كبير من الروائيين الذين جعلوا التجريب مرتبطا بعصرهم ، نابعا منه على اختلاف درجات فهمهم لعصرهم

فمارسيل بروست وجيمس جويس وفرجينيا وولف وكافكا ، الحوا على تصوير وتحليل الصراع النفسى واهتزازات الدوافع الغريزية والمكتسبة ، ورومان رولان وتوماس مان وفوكنر وهمنجواى وشتاينبك سعوا الى فهم الانسان كمخلوق متقدم على غيره من المخلوقات بينما سعى جوركى وشولوخوف وبرخت الى ربط الانسان بمجتمعه وتطلعه الى مجتمع افضل ترفرف عليه العدالة والمساواة ٠

غير ان هذا كله لم يقف حائلا دون التطرف والمغالاة فى التجريب ٠ فقد ظهرت فى فرنسا منذ سنوات حركة اطلقت على نفسها اسم « مدرسة الرواية الجديدة » وهى حركة اعلنت منذ بدئها رفضها التام لروايات القرن الماضى من حيث الشكل وأسلوب التناول ، واعتبرت بروست وجويس وكافكا الآباء الشرعيين للرواية المعاصرة التى يمثلونها ، ودعت الى الاهتمام بالحياة اليومية والحالات النفسية للانسان المعاصر كمصدرين اساسيين للروائى بدعوى ان الصراع الحقيقى للانسان المعاصر هو صراعه مع العالم الذى يعيش فيه ولا غرابة بالتالى ان نجد فى اعمال هذه المدرسة روايات تقوم بأكملها على لحظات أو حالات نفسية تافهة او عادية يظل الروائى يتعقبها ويسجلها بأمانة تصل الى درجة الاملال ، فاذا اعترض الناقد او القارىء ثار فى وجهه دعاة المدرسة قائلين انهم يقصدون هذا الاملال ويعملون على بثه لانه جزء من الحياة المعاصرة المتناقضة القائمة على العبث ٠ واذا اعترض الناقد او القارىء بانه لا داعى للفن اذن ما دامت الحياة نفسها مملة وسخيفة ثار دعاة المدرسة مرة اخرى قائلين انهم امناء مع انفسهم ولا يقصدون سوى اطلاع الناس على حقيقة العالم الذى يعيشون فيه ٠ وقد استتبع ذلك بالطبع الحاح هذه المدرسة على بعض الاساليب الفنية كالمونولوج الداخلى وبعض الحيل السينمائية المعروفة كالقطع والوصل والاختفاء والظهور وغيرها مما شاع فى الروايات المعاصرة بشكل عام بتأثير الفن السينمائى واغترافه من الفن الروائى ، وكذلك الحاحها على لغة الكلام واصطناع الحوار البسيط الخالى من التنميق والزخرفة٠ غير ان التجديد او التجريب على هذا النحو ليس اصيلا كل الاصالة ، فقد ظهرت مفرداته فى اعمال روائية سابقة كثيرة وبدرجات متفاوتة تجعل منه فى النهاية مجرد تجميع لبعض الاساليب الفنية وحصرها فى مجال واحد ٠

اما فى مجال القصة القصيرة فمن المعروف ان شكلها قد تطور على مر تاريخها الحديث ، ولم يعد ينصل بشكل الحكاية الشعبية الا فى عملية السرد أو القص ، وحتى هذه العملية لم تعد بدورها خاصية تميز القصة القصيرة ، بعد ظهور أساليب المونولوج الداخلى والمراوحة بينه وبين الحوار والعود للماضى وما الى ذلك من أساليب الح عليها كثير من كتاب القصة القصيرة فى العالم ٠ بل ان حيلة العقدة التى كانت تميزالقصة القصيرة فى الماضى من الحكاية لم تعد ذات أهمية كبيرة اليوم ، أى لم تعد القصة تقسم الى بداية مشوقة ووسط مشحون ونهاية مفاجئة كما درج النقاد على تقسيمها ٠ ولكن يكفى الكاتب اليوم ان يثير فى متلقيه اثرا ما دون حاجة الى ذلك التقسيم الثلاثى الجاف ٠

والحق ان القصة القصيرة ــ تمييزا لها من الحكاية المنطوقة ــ قد مرت بثلاث مراحل تقريبا أدت بها الى هذا التنوع فى الشكل الذى نجده اليوم بدرجات متفاوتة٠

فقد كانت المرحلة الاولى هى مرحلة الحكايات الشعبية القديمة التى كانت ولا تزال فى اماكن مختلفة من العالم تروى بالقرب من النيران بعد الغروب كما فى كثير من اقطار افريقيا جنوب الصحراء او بالقرب من المدافىء أو فى المخادع لدى كثير من الامم المتقدمة وهى مرحلة يصعب قياسها قياسا زمنيا دقيقا • ثم جاءت المرحلة الثانية على ايدى رواة متخصصين يجوبون الشوارع ويتنقلون بين الاندية والمقاهى ليقصوا على الناس السير والاخبار والبطولات • وكان القصد من الحكاية او القصة فى هاتين المرحلتين هو الامتاع أو التسلية بجوار النفع الذى ينحصر فى ابراز مغزى اخلاقى بشكل أو بآخر عن طريق الاذن • وطبيعى كان القاص أو الراوى فى هاتين المرحلتين المتداخلتين فى الوقت نفسه يستخدم عددا من الحيل والوسائل الفنية تتناسب مع جمهور يعتمد على الاذن وحدها من جهة ، وقاص ثقافى من جهة أخرى • ومن هذه الوسائل والحيل اعتماده على الاستدراك والاستفهام والاعتراض والتعجب والتكرار والسجع والجناس والمطابقة وغير ذلك من أساليب كانت ولا تزال تستخدم بطريقة شعبية تتفق مع منشىء القصة وجمهوره ، وطبيعى كذلك ان تفتقر معظم هذه الحكايات والاقاصيص الى العقدة لكنها كانت غنية بعنصرى التشويق والاثارة •

ثم جاءت المرحلة الثالثة مع ظهور المطبعة والصحافة، وفيها لجأ الكتاب الى التفكير فيما يناسب الصحف والمجلات من قصص ، وبالمثل فيما يلائم القراءة من وسائل وصيغ وبالتالى لم تعد ثمة حاجة الى التفصيلات الكثيرة التى تحفل بها الحكاية ، وحل محلها التركيز وظهرت العقدة كوسيلة لتهذيب هذه الحكاية المطاطة التى درج الناس على تلقيها عن طريق الاذن فحسب • وكانت القصة المكتوبة المعدة للقراءة دون السماع بمثابة عملية تهذيب وتكرير للحكاية الشعبية • وبالجملة استلزمت القراءة ان يتخلى كاتب القصة القصيرة عن معظم الوسائل التى كان يلجأ اليها القاص او الراوى • ويكفى لكى نلمس هذه الفروق ان نرجع الى حفنة من الحكايات الشعبية التى سمعناها من جداتنا وان نقارنها بحفنة اخرى مما يكتب اليوم • بل يكفى ايضا ان نعقد المقارنة بين هذه الحفنة الاخيرة وحفنة اخرى من المقامات التى كتبها الحريرى أو بديع الزمان لنرى الى أى حد تطورت القصة القصيرة المكتوبة المعاصرة على ايدى كتاب ممتازين موهوبين من امثال موباسان وتشيكوف وهيمنجواى وشتاينبك وغيرهم •

لكن هل يمكن ان تلغى التجربة الجديدة ما سبقها من تجارب بحيث تسود هى على ما عداها ؟ الثابت هنا هو النفى القاطع فكل التجارب التى تستجد تتخذ طريقها جنبا الى جنب مع ما سبقها ، ولكن الذى يحدث هو ان القديم يحاول ان يتفاعل مع الجديد وان يتعايش معه ، ومن خلال صراعهما يستجد جديد آخر وهكذا فقصص الرعب والمغامرات مثلا قديمة جدا بل لعلها اقدم الوان الرواية ومع ذلك لم تمت او تنقرض ، فلا تزال تحتفظ بجمهور ، ولكن الذى حدث حقيقة هو ان اصحابها أفادوا من كل التجارب التى استجدت بعدهم • وهنا نتساءل مرة اخرى ما الذى يجعل الجديد يستمر أو يعيش ؟ والجواب على ذلك هو درجة ارتباط هذا الجديد بالمجتمع الذى نبع منه • فما من تجربة نبعت بمعزل عن مجتمعها الا وانقرضت وماتت تماما ، ذلك لأن الجديد احتياج اجتماعى بالدرجة الاولى وتعبير عن مطالب معينة يستشعرها المجدد بحساسيته

الخاصة فيدعو اليه أو يطبقه ٠٠ حقيقة ان الشكل فى مجال الفنون يميل بشكل عام الى ان يكون محافظا كما يقول ارنست فيشر فى كتابه الممتع عن ضرورة الفن ، وان المضمون يميل الى ان يكون ثوريا ، الا ان جدة المضمون هى التى تسبق جدة الشكل وتطالب بها ، بل وتفرضها وذلك لان الشكل « تجربة اجتماعية راسخة » لا تتزلزل بسهولة ٠ ومن ثمة فان التجريب فى نطاق الشكل الروائى كتقسيمه الى فصول أو مشاهد او اجزاء او غير ذلك لا يمكن ان يأتى بمفرده بل تفرضه جدة المضمون وهى التى تجعله راسخا ٠

غير ان استقراء اهم محـاولات التجـريب فى الفن القصصى على مدار تاريخـه يطلعنا على حقيقة يمكن ان نختتم بها هذه الملحوظات فى التجريب واصحابه وتلك ان جوهر التجريب والتجديد ينبغى ان ينصب ــ حفظا لوجوده واستمراره ــ على تجويد المعرفة بالحياة وتطوير التعبير الفنى عن هذه المعرفة انطلاقا من التفكير فى الغاية والهدف حتى لا يكون التجريب او التجديد عبثا وعقبة ، وعلى هذا النحو يمكن للفن القصصى بالوانه المختلفة ان يساهم فى دفع عجلة التقدم الانسانى و « خلق الحيـاة الجديدة بالانسان فى هذا العصر » على حد تعبير البيان الذى اصدره لفيف من كتاب القصة والرواية العالميين حين اجتمعوا فى لينينجراد منذ عامين ٠

تبقى بعد هذا فى رأيى ملحوظة خاصة بمحاولات التجريب والتجريبيين لدينا ٠ فالفن القصصى فى ادبنا بلغ فى هذه المرحلة درجة كبيرة من النضج رغم أنه لا يستند الى تراث متسع متشعب كما هى حال زميله فى أوربا ، واستطاع فى زمن وجيز يكاد لا يتعدى ثلاثين سنة أن يحقق مجمـوعة من الانجازات ذات الاهميـة والدلالة ، بل استطاع أن يضيف الى حصيلة التراث القصصى العالمى ، وأن يستجيب تلقائيا لكثير من المستحدثات فى هذا الفن الذى سبق أن لقح فن أوربا فى العصور الوسطى كما هو معروف ٠

وقد حفلت السنوات القليلة الماضية بميل واضح لدى جيل الشباب الى التجديد والتنويع فى التجارب والأشكال الفنية ، وهو ميل لا غبار عليه من ناحية المبدأ لكن ما يدفع الى التوجس والتشكك فى هذه المحاولات أن تأتى بدافع التقليد والمحاكاة فتصبح هشة بلا جذور ، أو أن تأتى بنت الاهواء والنزوات الشخصية فتصبح عبئا على القارىء والتراث ٠ ولا يستطيع دارس منصف حتى الآن أن يحدد صلاحية هذه التجارب لأنها لا تزال غضة غير عميقة الجذور ، ولكن أقصى رجائنا أن يضع التجريبيون نصب أعينهم قيمة هذه التجارب بالنسبة لمجتمعنا فى تطوره الراهن ، وأن يدركوا أن الارتباط بهذا المجتمع وفهمه هو طريق الارتباط بالمجتمع الانسانى وفهمه ، وأن فهم العام لا يتـأتى الا من فهم الخاص ، وأن العـام لا ينضج الا من خلال تصويره خلال الخاص ، وكذلك أن يدركوا أن الدولة منحتنا الكثير من الحقوق فى مجال النشر بصفة خاصة ولم تسلبنا الا حقا واحدا هو أن نكتب أدبا رديئا أو قصصا رديئة ٠

القصة العربية فى شهر

يقدمه
فخرى فايد

كانت القصة فى الشهر الماضى ـ ١٥ مايو الى ١٥ يونيو ـ تمثل مركزا ممتازا بالقياس على ما كانت عليه فى شهور سابقة ٠٠ جريدة الاهرام القاهرية بعد طول قطيعة بين ملحق الجمعة الفنى والأدبى ٠ تنشر قصة **نجيب محفوظ :** الصدى ٠ ثم تتبعها بعرض الرواية **صامويل بكيت :** ثلاثية العدم ٠ قدمه **د ٠ حسين مؤنس** ٠ ولقد انعكست اتجاهات الثلاثية على ماكتب الدكتور حسين فنراه تارة يقول ان بكيت رامز ثم ينثنى ليقول أنه غامض وكثيرا ما يكفر بما يكتب ويتهمه بالاغراق فى الغموض ٠

* **أما جريدة المساء** ـ ورغم اختفاء ملحق الاربعاء الادبى ـ فهى أكثر صحف القاهرة اهتماما بالقصة سواء كان هذا فى نشرها للانتاج الموضوع والمترجم أو فى تقديمه للاستطلاعات التى تجرى مع القصاصين ٠ فالى جوار رواية **انطون تشيكوف** : ثلاث سنوات ٠ التى ترجمها **فؤاد دواره** وتنشر مسلسلة يوم الاثنين من كل أسبوع نجد فى عدد ٢٠ مايو قصة للدكتور **نجيب الكيلانى** وفى عدد ٢١ مايو قصة **لمحمد كمال محمد** أما فى عدد ٢٧ مايو فتكتب **هدى جاد** قصةالسلحفاه ويكتب **عبد المنعم صبحى** فى عدد ٢٨ مايو بحثا عن جوركى الانسان من خلال أعماله الروائية ٠

ويتبعه **اسماعيل البنهاوى** فيترجم قصة كاثى لارسكين كالدويل أما محمد جبريل فيلتقى **بنجيب محفوظ فى بحث** عن المضمون والظروف فى قصة الشحاذ وتعود القصة لتواصل رحلتها مع المساء

فيكتب **صلاح الملا** ماهو أقرب للحدوتة تحت عنوان : كيف أصبحت الرحمة فوق العدل .

* **يقابل هذه الانطلاقة ضمور** فى الحيز الذى كانت تشغله القصة فى عدد الخميس من جريدة الجمهورية ، فلقد نشرت قصص ثلاث بدل من أربع . واثنتان منهما : جرعة ماء **لفاروق منيب** والناس والسمك **لسيد جاد** تتصفان بالرمزية . أما قصة **محمد صدقى** (جريئة حبتين) فاسمها يدل على اتجاه القاص الواقعى . والجدير بالملاحظة هو انغلاق باب القصة فى الاهرام والجمهورية على أسماء محدودة محدده .

* **أما جريدة الأخبار** فرغم ضيق حيز القصة فى عددها الاسبوعى فانه يحمل من آن لآخر اسماء متجدده . **ومحمود البدوى** هو صاحب أكبر نصيب فلقد نشرت له قصتان : الجوع والنجوم .

والقصة الثالثة كانت **لسيد جاد** ثم قصتان مترجمتان رجل الجليد **للور يروزويك** وناديا **لدا فيدوف** وقصة أخيره **لمحمد مصطفى غنيم** وهى من النوع الذى يطلق عليه اسم القصة الصحفية . وتقوم على المفاجأة التى تختتم بها ، ولقد استهلك مثل هذا اللون من المعالجة .

* **كان هذا بالنسبة لليوميات أما عن** الاسبوعيات **فروز اليوسف** بدأت تنشر القصص القصيرة بعد انتهائها من مسلسلتها . فنشرت قصة **بهاء طاهر** فنجان قهوة ثم قصة **صالح مرسى** الرجل والحصان وفى عدد ٣١ مايو اختفت القصة القصيرة وظهر باب جديد تحت اسم : أقصر قصة فى العالم نشرت به أقصوصته لانها لم تقل **لالبرتو مورافيا** ثم عادت القصة فى العدد التالى فنشرت قصة سودانية **لأبو بكر خالد** مع أقصوصة الكوبرى لفوزية مهران . وتختفى القصة للمرة الثانية من عدد ١٤ يونيو ويكتفى بنشر أقصوصة القطة لوليم **سارويان**... وخلال هذا الشهر نشرت دعوة من المجلة للقصصين كى يجتمعوا للبحث عن حل لازمة القصة القصيرة . وفى ثنايا الدعوة قال **فتحى خليل** ان مجلة القصة منغلقة على لون معين من النتاج والكتاب . ولعل ا رد الوحيد الذى يفحم هو رجوع الداعى لاعداد القصة وسيتبين بوضوح خطأ دعواه . لان فى اعتقادى .. كما هو حادث دائما - ان الداعى قال ما قال ترديدا لما سمع ، فالمؤلم المعتاد فى كتابة الصفحات الأدبية عدم متابعتهم للنتاج الجديد .

* **أما مجلة الاذاعة والتليفزيون** فلقد افسحت المجال من جديد لتظهر من آن لآخر قصة الاسبوع لقد نشرت قصتان هما : روعة الحب **لنجيب الكيلانى** والسائح لابراهيم الوردانى .

ومجلة آخر ساعة مشـــغولة بنشر مسرحية **نعمان عاشور** وابور الطحين ٠

* **وجريدة تعاون الاحد** الاسبوعية تنشر باستمرار قصة لكاتب من كتابنا المتمرسين فنشرت **لعبد الحليم عبد الله ولمحمود البدوى ولنجيب الكيلانى** ٠٠٠



٠٠ واذا ما خلصنا من هـــذا اللقاء بالمجلات الاسبوعية ٠ فسنقف قليلا فى تأمل مع ما نشر بمجلة الادب القاهـرية الشهرية ٠

فالى جوار نشر قصـة الدكتـور عبد الغفار مكاوى نجد بلاغا منشـورا تحت عنوان : يا شرطة النجدة ، وموقع بامضاء : ناقد اليوتى ٠

يقول كاتب البلاغ انه ضبط حادث سطو أدبى وقع على صفحات مجـــلة القصة ٠ اذ نشرت المجلة فى عددهـــا الـ ١٣ قصة الغريب لستفان زفايج ٠ وهى قصة سبق ترجمتها ونشرها بمجلة الأدب فى عدد ابريل ١٩٦١ ٠ وأيضا نشرت القصة بحث عن تطور فكرة الموت عند توماس مان وهو ما سبق ترجمتـه ونشره أيضا بعدد أكتوبر ١٩٥٩ منمجلة الأدب ٠ وكلا الترجمتين لقلم واحـد سبق اتهامه من قبل بالاستيلاء عـلى ترجمات الغير ونسبها الى ذاته ٠ ويختتم الناقد الاليوتى بلاغه قائلا انه يلوم مجلة القصة لأنها تقع فريسة سهلة لهــذه الأخاديع التى تزعزع ثقة الشــباب فى قدرتها على الارتفاع الىالمستوىمسئولياتها (والسبب !؟) : لأنها تقدم للشباب أسـوأ الأمثلة اذ يرى المسروقات تحظى بالنشر ، بينما المجهود الصـادق الأمين يرقـد حبيس الأدراج أو فى ســــلة المهملات ٠

ولا أدرى ماذا يريد الناقد الاليوتى من مجلة القصة أن تفعله حتى ترتفع الى (مستوى مسئولياتها) ؟

هل يرى أن يطلب القائمين عليهـا منالدولة تعيينموظفين ليعملوا بالتنقيب فى المنشـــورات على مر الزمن ليدركوا ما نشر ؟ واذا كان هذا غير متيسر فهل بامكان أى انسان كان أن يتذكر ما نشر وما لم ينشر منذ عام ، بل منذ شهر أمام ما يستغرق فكره من مسئوليـات وأفكار ، ووسط دوامة متابعته لكل نتاج جديد ؟

أظن أن معقولية معرفة ما نشر ممـا لم ينشر غير قائمة الا اذا جاء هـــذا الاكتشـــاف عن طريق المصـادفة ٠ والصدفة البحتة ٠

ولقد عانت المجلة وغيرها من هذا ، ولذا كان تعليق الأستاذ رئيس تحـرير الأدب على رسالة الناقد الاليوتى صرخة متسائلة : هل من شرطة نجدة اخلاقية ؟

المشكلة اذن تكمن فى حاجتنـــا الى أخلاقيات للنشر ولا تتمثل فى غير هذا ٠ أما عن كون القصة بهذا تعطى مثـــلا سيئا ، فهو أمر غير موجود الا فى ذهن الناقد الاليوتى الذى لم يســـتطع أن يخلص بلاغه مما فى نفس يعقوب ٠

وما يقال له ولغيره من السادة الذين يتأخر نشر أعمالهم : ان للمجلة قاعدة تتبعها هي : الأجود فالجيد فالأقل جوده والدليل على هذا قائم من بلاغ الناقد الاليوتى لأن نشر المجلة لما سبق نشره من قبل دون معرفة حسن اختيار المادة المترجمة هو الذى رشحها لأن يترجمها دكاترة مختصين وبذا استحقت أن تسبق على غيرها من المترجمات فلنحاول أن نخلص نفوسنا من شوائب الأنا حتى تخرج كلمة الحق .. والحق وحده .

.. ومن بيروت تصل مجلة الآداب محتفية بالقصة . فالى جوار قصص خمس قصيرة . يكتب د . سهيل ادريس مقدمة العدد عن رواية أديب نحو : بومبى .

واحتفاء د . سهيل ادريس مربعة الى كون : قصة بومبى هى طليعة أدب روائى خاص بالوحدة العربية . هى طليعة رائعة وفرها أديب نحوى كثيرا من أسباب النجاح : فالتأليف الروائى مركز علوم يضم أطراف صور مرسومة بدقة وايجاز وصناعة محكمة .

ويختتم د . سهيل مقالته بقوله : **وبعد ، فان المؤرخ الأدبى يستطيع أن يسجل بنتاج أديب نحوى انبثاق القصة الفنية للوحدة العربية ، عبر نضال الشعب العربى فى سوريا ضد الانفصال ومن أجل عودة الوحدة : آمنية العرب الكبرى .**

.. واعتقد أن هذا التبشير هو أنسب ما نختتم به جولتنا مع القصة العربية لينشر فى عدد يوليو . شهر الانطلاقة العربية الكبرى .



مجموعات وروايات

.. مجموعات من القصص القصير صدرت خلال يونيو : على الربابة يا زمن مجموعة عبد الفتاح رزق الثانية .. مجموعة الكوخ لحسن محسب .. لأنه رمق لمحمد الخضرى عبد الحميد .. القارب الأخير لطه حواس .. رواية دواعى الاغراء لعلى امام عطية .. السهول البيض لعبد الحميد جودة السحار . الأيام الميتة قصة طويلة لأحمد أبو رحاب .. واحدة تكفى لمصطفى أبو النصر .

أخبار الغد

٠٠ مجموعة قصص لعبد الحليم عبد الله تحت اسم خيوط النور ٠٠ قصة طويلة لنجيب محفوظ : قطرات على النيل ٠٠ رواية البيت الكبير للقاص السوداني الطيب مرزوق ٠٠ حكاية رجل مجهـــول مجموعة محسن جاد ٠٠ في بغداد الزقاق المسدود رواية لياسين حسين ٠٠ في بيروت تصدر مجموعات وروايات : رحماك يا دمشـــق د ٠ سهيل ادريس ـ البلد البعيد الذى تحب لويزى الأمير ـ أناشيد الآلهة لجوزيف أبي فرحات ٠٠ الطريق الآخر مجموعة عبد العال الحمامصي عن الدار المصرية للطباعة

وســام القصة

٠٠ وسام القصة هذا الشهر تناله عن جدارة جريدة المســـاء القاهرية ٠ ومن الأسبوعيات تناله مجلة الثقافة القاهرة ٠

أما الشهريات فهـــو لمجلة الآداب البيروتية ٠

والوسام بعد هذا ،تقدير أدبي للمجلات والجرائد التي تعنى بالقصة القصيرة ٠ يقدمه الباب في كلمات كل شهر ٠

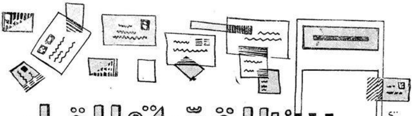


هذا الباب

٠٠ يهدف هذا الباب الى رصد النشاط القصصي وظواهره في ج ٠ ع ٠ م وباقي البلاد العربية ما أمكن ٠ لذا فالباب يرحب كل الترحيب بكل ما يكاتبنا به الاخوة من جميع البلاد العربية الشقيقة عن النشاط القصصي لديهم ٠ وبنفس الترحيب آمل في أن يمدنا الاخوة في المحافظات بنشاطهم ٠

وفي انتظار رسائلكم أقول لكم : أهلا ومرحبا ٠

« فخري فايد »



بين القصة والقراء

يقدمها ثروت اباظة

حين أمسكت بين يدى عدد القصة فى الشهر الماضى احسست أن مجلة القصة قد حققت اسمى هدف لها . واحسست أن القصة العربية تستشرف مستقبلا رائعا .
وان كان الاطمئنان على القصة القصيرة يملأ نفوسنا فاننا لاشك يتملكنا بعض الخوف على مصير الرواية . ولسنا ندرى كيف يمكن لمجلة القصة أن تهيىء للرواية ما هيأته للقصة القصيرة من فرص . اننا نرحب بكل نقد لرواية كتبها شاب بل اننا سنضع فكرة نشر مسلسلات روائية لشبيبة الكتاب تحت البحث . ولكن ايكفى هذا ام لابد أن يلتفت شبيبة الكتاب الى فكرة كتابة الرواية الطويلة وليضربوا صفحا عن اهمال النقاد للروايات التى تظهر فالفن الاصيل يفرض نفسه دائما ولعله يجدر بى أيضا أن أعتب بالنقاد أن انقدوا الاعمال الروائية أو انتم تجنون على الشباب وتجعلونهم يخافون أن يرودوا هذا الميدان باهمالكم له .

لكم أرجو أن نقدم فى عام قادم عددا كاملا لنقد روايات للشباب كما قدمنا هذا العدد عن القصة القصيرة .

وقد كتب الى قصاصان ممن اشتركوا فى عدد الطلائع يردان على النقد الذى وجه اليهما . وقد شاءت الصدفة أن يكون الردان ممن كتب عنهم الاستاذ الكبير الدكتور على الراعى . ولعله يهم الدكتور على الذى وقف على اثار الشابين فى الفن القصصى أن يقف فيما كتبا فى ردهما أعنى مقدار الثقافة التى تزودا بها قبل أن ينشئا قصصا . ولعل شبيبة الكتاب الذين يراسلون هذا الباب يدركون فى هاتين الكلمتين الموجزتين كم من الجهد بذل هذان القصاصان حتى واتتهما الجرأة أن ينشئا فنا قصصيا . وبعد فأنا على ثقة كاملة بما أعرفه فى صديقى الأستاذ الكبير الدكتور على الراعى أنئى وجمال الغيطانى وكمال حمدى واجدون من رحابة صدره وسعة أفقه ما يجعله يقبل حديثهما اليه تقبل الأستاذ حديثا من تلميذه يناقشه فى رغبة للعلم ويستفسره فى حب واعزاز والكلمتان فى ذاتهما لا توحيان بغير هذا المعنى والدكتور على الراعى سيدرك منهما هذا فى كل وضوح وجلاء . **وانني واثق أيضا غاية الثقة أن الدكتور على الراعى لايرضى للمجلة الا أن تفسح للشبيبة صفحاتها ليقولوا رأيهم فانا أعرفه يحب للرأى دائما أن يقال . فاليه اذن ماكتب جمال الغيطانى وكمال حمدى .**

كتب جمال الغيطاني

٠٠ بعد أن قرأت نقد استاذى الدكتور على الراعى لقصتى « أحراش المدينة » فى عدد الطلائع من مجلة القصة رأيت أنه من الواجب أن أوضح بضع نقاط أرى أنه من الضرورى توضيحها ٠

يقول الدكتور على الراعى ان موضوع القصة هو نفس موضوع رواية الطريق لنجيب محفوظ ، الحقيقة ان القصة من هذا النوع من القصص الذى يطلقون عليه « قصص البحث » وما رواية الطريق الا حلقة فى سلسلة طويلة من هذه القصص لها جذور بعيدة ممتدة فى احشاء التاريخ ، وما البحث الا موضوع من هذه المواضيع الخالدة التى ظل الأدب الانسانى يتناولها فى مختلف العصور وشتى المراحل شأنه شأن الحب والكراهية والغيرة والبطولة ٠ اننا نجد فى الأدب الفرعونى قصة ايزيس الباحثة الصبورة عن اشلاء زوجها أوزيريس الذى قتله اله الشر ست ٠ كذلك فى الأدب والاساطير اليونانية حيث يدور ياسون فى بحث دائب شاق عن الجزة الذهبية لكى يسترجع ملك والده وحيث نرى تليماك يذرع الارض طولا وعرضا بحثا عن أوديسيوس ابيه المفقود ٠ كذلك نجد البحث فى قصص السندباد وشهر زاد التى تعج بها الف ليلة وليلة أما فى العصر الحديث فنجد قصص البحث عند مارسيل بروست الروائى الفرنسى فى سعيه وراء الزمن الضائع وعند جويس فى قصته الرائعة « عوليس » حيث يبحث مستر بلوم طوال يومه عن الهدف الذى يقصده « زوجته » ، أيضا نجد فرجينيا وولف تغوص فى أعماق النفس بحثا عن الذات ٠ وفى أدبنا العربى الحديث يبحث صابر عن أبيه ٠ عن الحياة الكريمة والحرية والحياة ٠ وفى أحراش المدينة يبحث البطل عن أمه التى خرج من السجن فلم يجدها ٠

اذن فقصص البحث قديمة قدم الأدب الانسانى نفسه وأعتقد أن مضمون قصص البحث يحدده أكثر من عامل كذلك الهدف الذى يدور من أجله البحث ٠ هناك الواقع والظروف التاريخية بالاضافة الى وعى الكاتب واستيعابه لهذه الظروف ٠ وهنا أرى أيضا انه يجب ابراز بعض الفروق الاساسية بين صابر فى الطريق وبين احراش المدينة ٠ ان صابر لم يدخل السجن لأى سبب من الاسباب التى سجن من أجلها بطل أحراش المدينة ٠ انه ابن هذه البغى التى عاش عالة عليها وعندما ماتت تركته بلا سلاح يواجه به الحياة غير أثر قديم لأب قد لايكون له وجود ومن هنا انطلق صابر يبحث عن أبيه ٠ ابيه الرجل الذى يجوب العالم ٠ الذى يملك كل شىء بنقوده ٠ ان صابر يبحث عن ابيه لأن هذا هو الذى سيكفل له الحياة ٠ لانه لايقدر على العيش بدونه ٠ انه عاجز ٠ يشعر بالرعب كلما قاربت نقوده على الانتهاء حتى أنه يرتكب الجريمة فى سبيل ذلك ٠ حتى الحدود المكانية التى يتحرك فيها صابر لها نوعية خاصة نوعية تلائم ربيب البارات والهدف الذى يسعى من أجله والذى لايوجد الا فى أماكن على هذا المستوى ٠ ثم الاعلان على صفحات الجرائد ٠ فى اللوكاندة حيث يلتقى بكريمة اللعوب التى تقوده الى الهلاك وفى نفس الوقت يرفض طريق الهام الذى كان سينتهى به الى ما ينشده فى الأصل من راحة وحرية وكرامة ٠ هذا هو صابر بطل الطريق فكيف هو بطل أحراش المدينة » ٠ انه شاب خارج من السجن ٠ فقير ٠ كان يعيش مع أمه حياة هانئة وادعة بسيطة هى بالنسبة له كل شىء كذلك هو بالنسبة لها ، فجاة

انتزع من حياتها وانتزعت هى من حياته وعندما دخل السجن لم تستطع الاستمرار كما كانت معه • لهذا اختفت • ابتلعتها احراش المدينة الكثيفة •

خرج من السجن فلم يجدها • انه يبحث عنها ليضمن لها الحياة • ليحصل على الاستقرار الذى ينشده والذى قضى من أجله خمس سنوات لايرى فيها سوى السماء والرمال • انه شاب يعى مايدور حوله جيدا • على مستوى من الثقافة • يحب مصر عن وعى • لم يأكل يوما الا من كدحه ليضمن الحياة له ولأمه وفى اثناء بحثه عن أمه يبحث عن العمل الذى يستطيع بواسطته أن يعيش • انه لايسقط فى احضان الغانيات ولا يرتكب الجريمة • يكفى أن منظر سلسلة ذهبية حول رقبة شاب خليع يثيره •

انه يلقى مسئولية اختفاء امه على الناس الذين هم من نفس مستوى النـــاس الذين كان يتحرك بينهم صابر مع بحثه عن أبيه • انه يسأل نفسه • كيف يعثر على أمه وآلاف من الشبان الواضعين السلاسل الذهبية حول اعناقهم ويعلقون البلوفرات حول أكتافهم يتحركون حوله ويملأون الشوارع بخلاعتهم وضجيجهم • هذا هو بطل احراش المدينة • حتى الاطار المكانى الذى يسأل فيه عن أمه ليس نفس الاطار الذى نراه فى الطريق • انه يبحث عنها فى حارة الوطاويط • امام مدارس الصغار فى حى الجمالية • حول المصانع • انه يكاد أن يصرخ•• آه ياأمى •• آه لو حلقت فوق البلدة كلها • أصرخ واسأل الناس ان أعز شىء عندى ضاع فيبحثوا معى عنها ويسألون بعضهم فى القرى • فى الغيطان » ثم أن القصة تنتهى بتزايد اصراره وتضـــاعف شعوره بأن أمه موجودة •

هذا ما أردت أن أقوله عن بعض الفروق بين صابر وبين أحراش المدينة وأعتقد أن رؤية كل منهما لما حوله مختلفة تماما • أما من ناحية الاسلوب فالتكنيك المستعمل فى القصة استخدمه كتاب كثيرون من قبل • أسلوب مجرى الشعور أو تيار الوعى أو كما يسميه البعض المونولوج الداخلى • كتب به مارسيل بروست وجويس وهنرى جيمس والوجوديون وفولكنر وطوره نجيب محفوظ • لقد كان من الضرورى استعمال هذا التـــكنيك فى أحراش المدينة حيث يعطى الكاتب امكانية حركة درامية خصبة فى التنقل بين الماضى والحاضر والمستقبل للالمام بالموضوع فى نفس الوقت الذى ينعكس فيه الواقع الخارجى على ذهن البطل مثيرا فيه أفكارا معينة ومشاعر وأحاسيس مختلفة• ويلاحظ أن القصة مـــكتوبة كلها بتيار الوعى من أول كلمة فيها الى آخر كلمة ولم يتدخل المؤلف فى سطر واحد مع ملاحظة أن تيار الوعى هنا لم يستعمل للتقوقع فى أعماق الشخصية والتحليل الذى يجمد الحركة فى القصة ويجعلها استاتيكية غير متحركة كذلك البعد عن الواقع كما يفعل الوجوديون وفولـــكنر وأيضا جويس بل استخدم تيار الوعى فى القصة فى تصوير انعكاس الواقع المادى على ذهن الشخصية وتأثيره فيها وبالتالى انفعال الشخصية به وبالتالى أيضا موقفها من هذا الواقع • ان التكنيك ينبع من المحتوى نفسه وكلما كان الشكل مطابقا للواقع وللظروف كان أكثر فهما وتقبلا • اننى طبعا لا أنكر أبدا تأثير أستاذنا نجيب محفوظ فلا بد لكل من يخط بالقلم أن يتأثر بنجيب وغيره من أســـاتذتنا القصاصين وأن يتأثر الكاتب الجديد بهؤلاء فهذا هو التطور الطبيعى وفى النهاية أود أن أشكر لأستاذى الدكتور على الراعى

لمحاته المركزة العميقة الموحية عن القصة ومؤلفها وأرجو أن أكون قد استطعت اضافة شيء متواضع الى ما كتبه ٠

٠٠ وكتب عن كمال حمدى

أعترف أولا أن الدكتور على الراعى قد سبر الأغوار الحقيقية لقصتى ، فى تعليقه الموجز ٠ ولكن هناك بعض نقاط أعتقد أنها تحتاج الى بعض التوضيح :

أولا : يذكر الدكتور على الراعى ٠٠ «أن الكاتب يتردد بين تقمص بطل القصة، وبين القيام بدور الراوية ٠٠ » والواقع أن الراوى هو أحد شخصيات القصة ذاتها ، وهو لا يروى القصة كشيء فى الماضى ٠ من البداية ٠٠ ولكن منذ بداية الأسطر الاولى من القصة ، حتى يوهم القارىء أنه داخل الحدث ، كأنه يحدث فى الحاضر ـ الآن ـ وبتوالى السطور يبدو هذا الايهام تدريجيا الى أن ينتهى بظهور الشخصية المستقلة للراوى فى الاسطر الاخيرة ، الموجهة الى الشخص التى تروى له القصة ـ افتراضيا ـ ٠

ثانيا : يورد الدكتور على الراعى ملاحظته على أن الكاتب لم تبق له أى فرصة معقولة لاطلاعنا على شيء من الحياة الداخلية لابطاله ، فنراه يكتفى بعرضهم من الخارج » ٠

الواقع المفارق هنا ، أن هذا ما هدفت اليه أصلا ، فضيقت نطاق فرصتى للكشف عن الحياة الداخلية للشخصيات ، ولم أحاول أدنى محاولة لسبر أبعادها الداخلية ٠ **وهذا ما كان يعاب على الكاتب ، لو أنه حاول وأخفق ، نتيجة لافتقاده الفرصة المعقولة بتضييق النطاق** ٠ القصة تقوم أساسا على الحوار اللحظى خلال أزمة فى نطاق ضيق أشبه بحصار ، حاولت من خلالها التخلص من السرد القصصى ، على أن يقوم الحوار ـ تلقائيا ـ بسبر أغوار الشخصيات المتحاورة ، **بجهد من القارىء** ـ البعد الآخر للعمل الفنى ـ وبذلك يقوم الحوار بوظيفتين أساسيتين ـ أ ـ تطوير الحدث للحظى الخارجى ٠

ب ـ الكشف عن الدوافع الداخلية للشخصيات المتحاورة ٠

ثالثا ـ يذكر الدكتور على الراعى ٠٠ « أن الكاتب ألزم نفسه الزاما لامبرر له أن يحكى ويطور الاحداث ويصل الى الذروة فى رقعة ضيقة جدا من الازمة القصصية» القصة ـ كما تبدو أو ماكان يجب ـ تبدأ من لحظة تأزم تحيق بشخص ما ، ويحاول هذا الشخص **عن طريق الحوار الذكى المبنى على قاعدة من الشك ، مع افتقاد أى دليل مادى يسنده** ، أن يدير أصبع الاتهام الموجه اليه ، الى الشخص المقابل وعلى ذلك فالقصة تمثل انتقال بين ذروتين من التأزم ، أشبه بالقفز بين قمتى جبل ، يدور اثناءها اصبع الاتهام ، الى أن تتم فى النهاية دورته الكاملة المباغتة ٠

أما ما يقال على أن الشخصيات اشبه بالنماذج الثابتة ٠٠ كيف ٠٠ ؟ والمذنب غدا بريئا ٠٠ والبرىء مذنبا ٠٠ والفتاة التى تحب بثقة ، شكلت بكلمات جوفاء منمقة ٠٠ ؟

وبعد ٠٠٠

لاشك أن كلمة الدكتور على الراعى ، تتميز بالصدق الموضوعى ، الذى يقوم على أساسيات النقد العلمى الحديث ، وذلك فقط ـ هو الذى دفعنى الى كتابة تلك السطور ككلمة صادقة ٠

أقدم فى هذا الشهر
قصة للأستاذ أحمد
نصيف السامرائى

ثمن التذكرة

أحمد نصيف السامرائى

اعترى سعدى السأم القاسى والملل الممض الظـالم ٠٠ من كثرة البحث عن عمل منذ حصـل على الشهادة الثالث المتوسط فى نهاية العام الدراسى ، لكى يدر عليه ولو دراهم قليلة ، يعين فيها والده المكدود فى قيام أود العائلة ولسد بعض نفقات المعيشة لها ٠٠٠ وبينما هو جالس فى البيت، وقد غرق فى لجة التفكير بالبحث والتفتيش ، اختمرت فى عقله فكرة البحث عن عمل فى مدينة اخرى أكبر من مدينته ، لعـل الحظ يحالفه فى العثور على عمل فيها يقتـل به هـذا الفراغ والتسكع والانصهار بهذه الحياة القاسية المريرة ٠

وسعدى هو الشاب الاكبر فى العائلة حيث لديه أخوة كثيرون وهم صغار ، ووالده كبير السن وقد اشتعل رأسه شيبا وأحنى الدهر ظهره فى ممارسة الاعمـال المجهدة الصعبة والتى لا تدر عليه الا رزقا قليلا ٠٠ فقال لأبيه وهو يرنو اليه وعلامات الفقر والفاقة مطبوعة على صفحة وجهه :

ـ لدى فكرة جديدة لعلى أرى فيها استحسانا وقبولا عندك يا أبتاه ٠

فتطلع الأب وسمات الضعف بادية على وجهه المكفهر ، وقال له برنة هادئة وبعدم الاكتراث :

ـ وما هى فكرتك الجديدة ؟ قلها لنرى ٠

ـ لقد مللت البحث هنا فى بلدتنا ٠٠ فعسى الله سبحانه وتعالى يوفقنى فى مدينة اخرى فاجد فيها عملا ٠

فقال له والده وهو لا يزال يرنو اليه وبكل قوة أكثر من ذى قبل :

ـ الى اى مدينة تنوى الذهاب يا ولدى ؟

ـ الى بغداد ٠٠ فان هناك مجالا أوسع وأشغالا أكثر ومشاريع عديدة ٠

وبعد فترة صمت وجيزة والأب مطأطىء رأسه يفكر باهتمام بالغ وسعدى ينظر اليه وكأنه فى محكمة يريد أن يسمع قرار الحكم الاخير ٠٠ الى أن رفع الأب رأسه وقال له بصوت أجش :

ـ طيب ٠٠ ومن أين لنا النقود الكافية التى تحتاجها للسفر والطعام وغيرها فيما اذا لم تجد عملا فى أسبوع او أكثر ؟

ـ اقترض لى بعض المال من أحد معارفك بعد أن تسرد لهم القصة ٠ والى أن أجد عملا وبعد ذلك نسددها لهم ٠

وعند ذلك هب الأب واقفا وقال له :

ـ اعدد لوازمك ريثما أعود بعد قليل ٠

وراح سعدى يلبس أحسن ما عنده من الثياب ٠٠ والأب خرج يطلب مبلغا من المال ٠٠٠ وبعد أن عاد الأب كان سعدى على أتم الاستعداد للسفر فى القطار الذى سوف ينطلق من المحطة البعيدة عن المدينة بعد ساعتين ٠٠ وخرج مودعا أهله واحدا واحدا ٠٠ ووالداه يدعـوان له من قلوب مكلومة أضناها الفقر والحرمان ٠٠٠ بالتوفيق له فى ما هو مقدم عليه ٠٠ وقال له والده وقد اغرورقت عيناه بالدمع :

ـ يا بنى لا تكن مغفلا ، وكن فطنا فى ذهابك وايابك وفى حلك وترحالك لانك لست فى بلدتك ٠٠ واذا وجدت عملا أسرع بالكتابة الينا لاننا ننتظر ذلك على أحر من الجمر ٠

وبعد أن استمع الى هذه النصائح ، انطلق ماشيا صوب محطة السكك الحديدية ٠٠ لكى يوفر أجرة السيارة التى تقله الى المحطة فى حاجات المستقبل الاخرى ٠٠ وأدركها بعد جهد جهيد، مبهور الانفاس ، والعرق يتصبب من جبينه بغزارة ، وهو متأبط الكيس الذى يضم بعض الملابس اللازمة والادوات التى يحتاجها فى يومه ٠٠ وولج بسرعة داخل الغرفة المعدة لاستراحة المسافرين فقرأ فى وجوههم سيماء الارتياح وعدم الاستعجال والاسراع ، وشباك بيع التذاكر لا يزال مغلقا٠٠ وبعد أن ارتاح قليلا من الوقت واسترد شيئا من نشاطه مد يده فى جيبه وأخرج محفظة والده المتهرئة التى تضم النقود ، وراح يعدها مرة أخرى ليتأكد من انها دينار ونصف لا غير فقال فى نفسه وهو يعيدها محلها :

ـ ان هذا المبلغ جد قليل ٠٠ فلسوف أعمل مختلف الطرق فى عدم شراء تذكرة ٠٠ وأعمل بعد ذلك المستحيل وجميع الوسائل دون أن أدع مفتش القطار يرانى ويغرمنى ضعف المبلغ ٠

جلب انتباه سعدى وهو غارق فى حديث مع نفسه ، افتتاح شباك التذاكر وهروع المسافرين نحوه بسرعة وكأن القطار على وشك أن ينطلق بعد لحظة ، أول يخيل اليهم أنه يزعق بصوته الهادر يناديهم الى الركوب ٠٠ وتركهم سعدى يتزاحمون بالمناكب على الشباك ، وراح خارجا يلتمس له مخرجا ٠٠ أو طريقة يستطيع بها أن يصل بغداد دون أن يصرف فلسا واحدا على نفسه فى القطار ٠٠ ومارت فى أعماقه قوتان متصارعتان : الأولى تمنعه من أن يشترى تذكرة فان المفتش لا يراه ان هو اختفى ٠٠ والثانية تؤنبه وتخوفه وترهبه فى عاقبة ومغبة الأمر وتوعده بأن المفتش اذا ما رآه وطلب منه التذكرة فسيكون الأمر أسوأ من ذلك وأدهى وأمر ٠

وبعد برهة رأى سعدى الركاب يهرعون الى العربات ويلجون فى داخلها ، وكل يأخذ مكانه فيها ، ولم يبق الا هو الذى غرق فى لجة من الافكار التى تجيش فى أعماق أعماقه ٠ فزعق القطار لأول مرة صارخا ومناديا : هيا ٠٠ هيا ٠٠ وسعدى متردد لايعلم ماذا يفعل ٠٠ أيذهب الى شباك التذاكر ويدفع مبلغ التذكرة ؟ ٠٠ أم يدخل احدى العربات دون أن يكون لديه تذكرة ٠٠ وأخيرا فاق من ذهوله عندما رأى القطار يدب ببطء وتثاقل يجر وراءه عرباته فقفز الى أقرب عربة مرت من أمامه وهو يقول لنفسه :

ـ الآن أصعد وبعد ذلك فليحدث مايحدث ٠

وعندما استقر داخل العربة تحول تفكيره ٠٠ واتجه الى ناحية أخرى وهى كيف يختفى عن عين المفتش ؟ وأين يذهب عندما يأتى بعد فترة وجيزة ليتأكد من أن جميع المسافرين قد اقتطعوا تذاكر ٠

قال فى نفسه وقد أرهقه التفكير :

ـ ان المفتش يرهقنى قبل أن يلاحقنى لقد بدأت أكره اسم المفتش وأمقت رؤيته ٠٠٠ آه أأنام تحت أحد المقاعد الى أن يمر المفتش ؟ ٠٠ لا فانه اذا رآنى ممددا كالكلب تحت المقعد فسوف يخبر الشرطى المرافق له وهنا تكون الطامة الكبرى ٠

واستطرد يحدث نفسه ويقول :

ـ أأدخل احدى دور المياه ؟ ولكن الى متى أبقى مختفيا هناك ؟ ٠٠ ولا أعلم ربما أخرج فأرى المفتش فجأة وجها لوجه وبذلك يطلب منى التذكرة ، فماذا أقول له آنذاك ؟ ٠٠ لا لا ان هذه الطرق فاشلة ولا جدوى من اتباعها ٠

لا يزال سعدى واجما فى مكانه لا يريم ولا يحيد عنه والافكار تتزاحم فى فكره واذا به ينتبه على صوت صادر من أحد المسافرين يناديه قائلا :

ـ استريح ياولد ٠٠ لماذا أنت واقف هكذا ؟ فهذا مقعد فارغ ٠

ـ أشكرك يا اخى فبعد برهة قصيرة سوف أستريح ٠

ـ هل تفتش عن احد ؟

بماذا يجيبه على هذا السؤال المحرج ؟ ٠٠ أيقول له مايخفى فى صدره وما تكتنفها نفسه٠٠

أم يكذب عليه ٠٠ وان الانسان لايستطيع أن يقول الصدق فى كل مكان ولذلك لايريد أن يقول له الحقيقة فى هذا المجال ٠٠ فقال له متلعثما دون أن ينتبه له الراكب الآخر :

ـ نعم اننى أفتش عن صديق لى جاء معى ولا أعلم أين ذهب ٠٠ ولا أدرى فى أية عربة ركب ٠

وعبر الممر الحديدى الى عربة أخرى وكأنه يريد التفتيش عن الصديق المجهول ولكنه ليتوارى عن أنظار المسافرين التى بدأت تحملق فيه ٠٠ وليفكر أكثر فى خلاصه من هذا المأزق المرعب ، ولعل عقله يرشده الى طريق الخلاص ٠٠ وعند دخوله العربة الاخرى أخذت الشمس بالهبوط نحو المغيب ، وبدأ الظلام يدب داخل العربات قبل أن تنار المصابيح الخافتة فيتراءى الناس تحتها كالاشباح ٠ وهناك اهتدى أخيرا الى مكان ولو كان خطرا يستطيع أن يلجأ اليه بعيدا عن عن المفتش التى ظل خيالها يلاحقه ويرعبه وكأنه ابرة توخز فى ضميره ٠٠ وهو الصعود الى ظهر القطار الأملس وبعد ذلك يهبط من فوق متى انتهى المفتش من مهمته وعمله فراح يتسلق السلم الحديدى من الخارج بتثاقل كأنه أفعى مريض سقيم دب اليه الوهن ، وبذل جهدا كبيرا فى الصعود الى مكانه ، وهناك أسند قدميه بأعلى درجات السلم لكى لاينزلق ويسقط على الارض ٠٠ وتمدد باسترخاء ٠٠ انه بحاجة ماسة الى راحة طويلة من عناء الايام الماضية واتعابها ومشقات البحث عن العمل ٠٠ وبدأ النعاس يغالبه وهو يحاول أن يباعد بين جفونه وكان بها مغناطيسا ٠٠ وابتسامة الأمل المشرق للغد مطبوعة على ثغره الجاف ، واستمر يصارع النوم وهو على ظهر القطار الذى يفر هاربا فى هذا الليل البهيم وكأنه شبح مطرود ومضى شوطا من الليل والقطار لايزال فى الطريق الى بغداد وقبل أن يدركها بدأ سعدى بالهبوط الى داخل العربة وعندما دخلها أحس قليلا بدفئها وانتعش ، وقبل أن يتهالك على أحد المقاعد كان القطار يزعق مؤذنا بالوصول ٠٠ ومن شدة فرحه بالسلامة لم يعد الجلوس رغبته ، فهبط مع المسافرين فى محطة سكك حديد غربى بغداد ٠٠ وهناك على الرصيف وهو يخطو ببطء مد يده فى جيبه فلم يجد المحفظة ٠٠ وامتلكه اليأس حينذاك ٠٠ فضاع فى زحام العابرين وهو ينظر مشدوها اليهم ٠

أحمد نصيف السامرائى
٠٠سامراء ـ العراق

فهرس